بـوصلـة الـمـصـلـح

بسم الله الرحمن الرحيم

بـوصـلـة الـمـصـلـح

«أسئلة المرحلة وخارطة العمل»

أحمد بن يوسف السيد

بـوصلـة المصـلـح

«أسئلة المرحلة وخارطة العمل»

أحمد بن يوسف السيد

حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولىٰ

١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتـاب لا تعبر بالضرورة عن نظر المركز»

TAKWEEN
للدراسات والأبحاث
Studies and Research

Business Center 2 Queen
Caroline Street, Hammersmith
London W6 9Dx, UK

www.Takween-center.com
info@Takween-center.com

الموزع المعتمد

+966555744843

المملكة العربية السعودية - الدمام

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	١١
مدخل إلىٰ أسئلة المرحلة	١٥
القسم الأول: فضل الإصلاح	٢١
الجوانب الكاشفة لفضل الإصلاح ومكانته	٢٣
الجانب الأول: أنه سبيل الأنبياء والمرسلين	٢٤
المعالم الشموليّة لسبيل الأنبياء في الإصلاح	٢٥
الجانب الثاني: موافقة الصلاح الكوني بالإصلاح الشرعي	٢٩
الجانب الثالث: أن الإصلاح من مركزيات الشريعة	٣٢
الجانب الرابع: ما ورد في الإصلاح من ثواب خاص وفضل معين	٣٤
القسم الثاني: جدوىٰ الإصلاح	٣٧
المبحث الأول: مشكلة اليأس والإحباط وفقدان الأمل تجاه الإسلام	٣٩
أولًا: مستويات اليأس والإحباط الموجودة في الواقع	٤٠
ثانيًا: مظاهر اليأس والإحباط الموجودة في الواقع	٤١
ثالثًا: أسباب اليأس والإحباط الموجودة في الواقع	٤٢
أسباب داخلية	٤٢
أسباب خارجية	٤٤
المبحث الثاني: كيفية التعامل مع مشكلة اليأس والإحباط في أوساط العاملين	٤٥

الموضوع	الصفحة
مفاتيح التعامل مع مشكلة اليأس والإحباط	٤٦
المفتاح الأول: النظر إلىٰ جوانب الخير الكامنة في هذه المشكلة	٤٦
المفتاح الثاني: حسن الفهم للسنن الإلهية	٤٧
المفتاح الثالث: إيجاد النماذج العملية المتجاوزة لإشكال اليأس والإحباط	٥٠
المفتاح الرابع: العمل علىٰ تعزيز اليقين، وتثبيت أسس الإيمان، وتقوية أصول الإسلام الكبرىٰ في النفوس	٥٠
المفتاح الخامس: بناء التصور الصحيح تجاه معاني «النجاح والفشل» في العمل الإصلاحي	٥١
المفتاح السادس: الإيمان بأنَّ الإسلام لا يمكن اجتثاثه من أساسه، وأنَّ العاقبة للمتقين، والاستبشار بالمبشرات النبوية المتعلقة بالإسلام في آخر الزمان	٥٢
المفتاح السابع: ظهور بذور معالم تجديدية (جزئية، شمولية) في مجالات مختلفة في السياق الإسلامي	٥٦
المفتاح الثامن: النظر إلىٰ مكامن القوة للضعفاء من مصلحي هذا الزمن	٥٧
المفتاح التاسع: إمكان تغير موازين القوىٰ	٦٤
القسم الثالث: بوصلة الإصلاح	٦٩
المبحث الأول: قلق الوجهة الإصلاحية	٧١
معالم كاشفة لصواب الوجهة وصحة الطريق	٧٣
المَعْلَم الأول: العلم الصحيح المثمر	٧٣
المَعْلَم الثاني: أنْ يكون الطريق أو الاتَّجاه موافقا للمُحكمات، مراعيا للأوليات، في الشرع والواقع	٨٠
المَعْلَم الثالث: التصديق العملي للشعارات	٨١
المَعْلَم الرابع: الموافقة السنن الإلهية	٨١
المَعْلَم الخامس: البركة والتوفيق	٨٣
المبحث الثاني: ثغور الإصلاح	٨٦
العنصر الأول: خارطة الثغور	٨٦
طرق متنوعة لتحديد ملامح خارطة الثغور	٨٧
العنصر الثاني: ثمرات تصور خارطة الثغور	٨٩

الموضوع	الصفحة

المبحث الثالث: تنوع مجالات الإصلاح وتفاوت مراتبه ٩٢
صور اختلال التصور تجاه الثمرة الإصلاحية ٩٢
المآلات الفاسدة للخلل في تصور ثمرة العمل الإصلاحي ٩٤
المآلات الحسنة لضبط التصور تجاه النتائج والثمرات ٩٦
المبحث الرابع: بيان درجات الإصلاح ٩٩
الدائرة الأولىٰ: الإصلاح المتعلق بالحق وحملته ٩٩
أولًا: مجالات الإصلاح المتعلقة بالحق في ذاته ٩٩
ثانيًا: مجالات الإصلاح المتعلقة بحَمَلة الحق ٩٩
الدائرة الثانية: الإصلاح المتعلق بمقاومة الباطل ومشكلاته ١٠٢
الدرجة الأولىٰ: تخفيف الفساد ١٠٢
الدرجة الثانية: حل المشكلات ١٠٥
المبحث الخامس: اختيار المشروع الإصلاحي ١٠٧
العوامل الموضوعية المساعدة علىٰ اختيار المشروع الإصلاحي ١٠٧
أولًا: أولويات المشاريع في دائرة الحق وتثبيته ١٠٨
ثانيًا: أولويات المشاريع بناء علىٰ معايير خطورة المشكلات ومستوىٰ الثغر ١٠٩
العوامل الذاتية المعينة علىٰ اختيار المشروع الإصلاحي ١١١
المبحث السادس: واجب الوقت: (صناعة المصلحين) ١١٦
المطلب الأول: الأدلة من الوحي والواقع علىٰ مركزية (صناعة المصلحين) في السنن الإلهية ١١٨
المطلب الثاني: المصلحون والنهضة بالدين: إحياءً وتجديدًا وتطبيقًا ١٢٤
المطلب الثالث: مركزة المركزيات وأثرها في الإحياء والتجديد لحقائق الدين ١٢٨
أولًا: الآثار الحسنة المترتبة علىٰ ضبط المركزيات ١٣١
ثانيًا: آثار الخلل في ضبط المركزيات ١٣٣
قضايا تتطلب الإحياء والعناية والتجديد علىٰ ضوء مركزة المركزيات ١٣٥
القسم الرابع: حَمَلة الإصلاح ١٤١
المبحث الأول: معالم منهجية في بناء المصلحين ١٤٣
المَعْلم الأول: مركزية هدي الأنبياء في طريق المصلحين ١٤٤
المَعْلم الثاني: أهمية بناء ثقافة معيارية للمصلحين ١٤٦

الموضوع	الصفحة

المَعْلم الثالث: التربية علىٰ أهمية استمرار ثغر صناعة المصلحين ١٤٧
المَعْلم الرابع: أهمية تنوع روافد البناء والمزج بين البناء المعرفي والبناء العملي ١٤٨
المَعْلم الخامس: عدم الاستعجال بتصدير الطلاب قبل التمكن ١٤٨
المَعْلم السادس: البناء في ساحة العمل والمدافعة أنفع من البناء في ساحة الرخاء والترف والدعة ١٤٩
المَعْلم السابع: أهمية التنوع والتكامل في مجالات البناء الإصلاحية ١٤٩
المبحث الثاني: **بيان صفات المصلحين** ١٥١
أولًا: مصادر معرفة صفات المصلحين ١٥١
ثانيًا: تفصيل القول في صفات المصلحين ١٥٢
الصفة الأولىٰ: العبودية لله تعالىٰ ١٥٤
الصفة الثانية: التسليم لمرجعية الوحي والانطلاق منها والاستمساك بها ١٥٧
الصفة الثالثة: اليقين ١٦٠
الصفة الرابعة: الصبر ١٦٣
الصفة الخامسة: التزكية وحياة القلب ١٦٧
الصفة السادسة: العلم ١٧١
الصفة السابعة: العمل ١٧٥
الصفة الثامنة: القوة ١٧٧
الصفة التاسعة: الوعي ١٨١
الصفة العاشرة: الحكمة ١٨٧
الصفة الحادية عشرة: الدربة والتجربة والخبرة ١٩٠
الصفة الثانية عشرة: المسؤولية ١٩٣
الصفة الثالثة عشرة: العزة ١٩٥
الصفة الرابعة عشرة: الرحمة بالمؤمنين واللين معهم والرفق بهم ١٩٧
الصفة الخامسة عشرة: العدل ١٩٩
الصفة السادسة عشرة: الربانية ٢٠٢
الصفة السابعة عشرة: الصدق ٢٠٥

الموضوع	الصفحة

القسم الخامس: عوائق الإصلاح ٢١١

المبحث الأول: أهمية توقع التحديات التي يواجهها المصلح ٢١٣

المبحث الثاني: تفصيل القول في بعض التحديات التي تواجه المصلح ٢١٦

أولًا: التحديات الخارجية ٢١٦

ثانيا: التحديات الداخلية ٢١٧

اليأس والإحباط ٢١٨

انحراف البوصلة ٢١٨

التنازع والتفرقة ٢٢٠

صعوبات الحياة ٢٣٠

فتن الشهوات ٢٣٢

موجات الشبهات ٢٣٤

خاتمة ٢٣٩

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وعلىٰ آله وأصحابه سادات المسلمين، أما بعد:

فإن من أعظم واجبات الوقت: بناء المصلحين، وصناعة الحَمَلة الذين يتحملون أعباء القيام بالدين وتبليغه، ويعملون علىٰ إحياء حقائقه وإعلاء كلمته، ويكونون محلًّا للعون الإلهي والمدد الرباني؛ إذ إنّ سنة الله ﷻ قد جَرَتْ بأن الدين لا يقوم إلا بالحَمَلة الذين يعيشون لأجله ويبذلون غاية جهدهم في التمكين له، فاللهُ ﷻ لم يُنزِل القرآن علىٰ جبل، وإنما أنزله علىٰ بشر يأخذه بقوة، فيستمسك به ويمشي به في الناس، مبلِّغًا وهاديا؛ فكان النبيُّ هو الساعي في الأرض لتمكين كلمة الله تعالىٰ، ثم عمل علىٰ صناعة الحَمَلة الذين يعينونه علىٰ أعباء الرسالة وتكاليفها، ويقومون بالأمر من بعده، وكان هؤلاء الحَمَلة من جملة تأييد الله لدينه ولنبيه، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وهذه سنة الله تعالىٰ في كل الأزمان، فقد جعل -سبحانه وبحمده- المَخْرَج للمستضعفين من طغيان فرعون وجبروته في صناعة موسىٰ عليه السلام وتهيئته وتربيته حتىٰ يحمل رسالته ويعمل بها، ومن ثم في سعي موسىٰ عليه السلام لتربية المؤمنين الذين اتبعوه، فقصّ الله علينا من نبأ تربيته إياه ورعايته له ما قصّ، حتىٰ قال عنه ﷻ: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية: (والصنع: مستعار

للتربية والتنمية، تشبيها لذلك بصنع شيء مصنوع)[1] ثم قصّ الله علينا من نبأ عناية موسىٰ بالمؤمنين معه، فقال: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ﴾ وقال: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ وهكذا كان الحال مع زكريا عليه السلام حين خشي علىٰ الدين من بعده ألا يقوم به مواليه وعصبته وأقرباؤه، كما قال ابن سعدي رحمه الله: في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾ قال: (أي: وإني خفت من يتولىٰ علىٰ بني إسرائيل من بعد موتي، ألّا يقوموا بدينك حق القيام، ولا يدعوا عبادك إليك، وظاهر هذا أنه لم ير فيهم أحدا فيه لياقة للإمامة في الدين)[2] فطلب من الله سبحانه وليّا يرثه ويقوم بالدين من بعده، فزكريا عليه السلام يعلم سنة الله في حفظ دينه أنها إنما تكون بالحَمَلة الذين يقومون بأعباء الدين ويرثون النبوة والإمامة الدينية، والمستندات الدالة علىٰ هذا المعنىٰ كثيرة في كتاب الله، **فالنهضة بالدين لا تكون إلا بصناعة حملته** كما سيأتي تفصيل ذلك في الكتاب بإذن الله تعالىٰ.

وقد اعتنيت في السنوات الماضية بهذا الباب -أعني باب صناعة المصلحين وصفات حَمَلة الدين وبيان المنهج الإصلاحي الشرعي-، عبر شقّين: نظري وعملي، فأما النظريُّ فاعتنيت فيه بمرجعية الوحي: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فوجدتُ فيهما من السعة لهذه المعاني مالم أكن أظن وجوده قبل ذلك، فتناولتُ بيان شيء من منهج الأنبياء الإصلاحي والتعبدي عبر سلسلة مرئية مطولة بعنوان: (أنوار الأنبياء) كما تتبعتُ كثيرا من مواضع تربية الله لأصحاب نبيه محمد ﷺ في القرآن عبر سلسلة مطولة كذلك بعنوان: (معالجة القرآن لنفوس المصلحين)، وقد

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٧/ ١٤٢)

(٢) تفسير السعدي (٥٦٤) طبعة ابن الجوزي

تجاوز مجموع السلسلتين ستين محاضرة بفضل الله وتوفيقه، ولا تزال المحاضرات مستمرة، ثم انتقلت إلىٰ مدرسة النبي ﷺ فشرعتُ أتتبع هديه الإصلاحي ضمن سلسلة (السيرة النبوية للمصلحين)؛ وجمعْتُ من السنة متنًا في مهمات ما ينبغي علىٰ المصلح مراعاته في بنائه وتعبده وسَيْرِه وسلوكه، وعنونته بـ: (المنهاج من ميراث النبوة)، وسأشرع قريبًا في شرحه شرحًا مطوّلًا بإذن الله تعالىٰ.

ثم انتظمْتُ كثيرًا من أصول هذه المعاني والمواد في هذا الكتاب، والذي قدمتُ مادته مرارًا تحت عنوان: (كيف نكون أملًا؟) ثم استحسنتُ العنوان الحالي: (بوصلة المصلح) فقدمتُه بعد ذلك في مادة مرئية مسجلة علىٰ موقع يوتيوب في ثلاث عشرة محاضرة، ثم عُدتُ لمراجعة هذا الكتاب وتحريره، فخرج علىٰ هذه الصورة التي أسأل الله أن يبارك فيها، وينفع بها، ويتقبلها مني بفضله ورحمته إنه هو السميع العليم. مع التنبيه إلىٰ أن الكتاب يُعدّ كالأصل والمادة المرئية شارحة لبعض مضامينه، فهو الأشمل من حيث المحاور ومحتوياتها، والأضبط من حيث الترتيب والتقسيم، وأمَّا الدروس المرئية ففيها من الشرح والتفصيل في بعض الموضوعات ما لا يوجد مثله في الكتاب، فكلتا المادتين تكملان الأخرىٰ، ومن اكتفىٰ بإحداهما فلن ينقصه شيء من صميم المادة غير أنَّ المستحسن الجمع بينهما لتمام الفائدة.

وقد روعي في تقديم هذه المادة النظر بعينين في جميع موضوعاتها: عين تنظر إلىٰ الواقع الإسلامي الداخلي (للنقد التصحيحي)، وعين تنظر إلىٰ الوحي (للبناء التأسيسي والاستمداد المعياري)، فالمادة ليست بنائية فقط، وإنما تجمع بين التأسيس والبناء من جهة، وبين التصحيح والترميم من جهةٍ أخرىٰ، وهذا كله فيه استصحاب لما ينبغي أن تكون عليه الحالة الإصلاحية القادمة، والتي يقدم الكتاب كثيرًا من التصورات المنهجية المتعلقة بها. وقد قسمتُ مادة هذا الكتاب إلىٰ خمسة أقسام، وهي: **القسم الأول:** فضل الإصلاح. **القسم الثاني:** جدوىٰ

الإصلاح. **القسم الثالث**: بوصلة الإصلاح. **القسم الرابع**: حَمَلة الإصلاح. **القسم الخامس**: عوائق الإصلاح.

وفي نهاية الكتاب أرفقتُ برنامجًا بِنائيًا للمصلحين، تحت عنوان: (التمكين المنهجي للنُّخَب الإصلاحية) ليكمل بعض الجوانب التي يصعب الإحاطة بها في هذا الكتاب. هذا، وأسأل الله ﷻ التوفيق والسداد والرشاد، وأن يبارك في هذا العمل وينفع به، وأن يجعله مورد خير للمصلحين.

✍ أحمد بن يوسف السيِّد

١٢/ ١٠/ ١٤٤٣هـ

٢٠٢٢/٥/١٣

مدخل إلى أسئلة المرحلة

إن لكلّ مرحلة زمنية أسئلتها الكبرىٰ الموضِّحة لأهم مشكلاتها، والكاشفة عن أبرز تحدياتها، والموجِّهة إلىٰ الأولويات التي توجَّه إليها الطاقات، وتُبذل فيها الأوقات، وتُصرف إليها الجهود، وتستنفد فيها الأعمار. ومع أن من شأن هذه الأسئلة الكبرىٰ أن تكون معلومة ظاهرة لكثرة الشواهد الدالة عليها، إلا أن المصلحين والعاملين يتفاوتون في إدراكهم لها تفاوتا كبيرا، ومِن ثَمّ يتفاوت عملهم وسعيهم في الجواب عنها؛ فمنهم من يكون علىٰ وعي تام بها؛ فيوجه إليها جهوده وعمله ومشاريعه وخلاصة همّه، ومنهم من يكون غير مدرك لمركزية هذه الأسئلة ولا لأهميتها، بل قد يستنقص من شأنها وشأن العاملين في الجواب عنها، فيشتت جهده في حلّ مشكلات ليست هي أولىٰ ما ينبغي العمل عليه، ولا أجدر ما يُطلَب الاهتمام به؛ **والذي ينبغي لكل مصلح ألا ينشغل بغير الأسئلة الكبرىٰ عنها، مع جواز انشغاله بغير الأسئلة الكبرىٰ معها**، أي أنه -وإن انشغل ببرامج ومشاريع غير متعلقة بالأسئلة الكبرىٰ- فإنه لا ينبغي له أن يكون منصرفا تمام الانصراف عن الاهتمام بالأسئلة والمشكلات الكبرىٰ -ولو بطريقة غير مباشرة-، بل يجمع بين الأمرين إن أمكن الجمع، وإلا فليقدم الأَولىٰ عند التزاحم.

والمستند الشرعي في تقديم الاهتمام بهذه الأسئلة ومشكلاتها هو ما تجده في رسالات الأنبياء من انشغال كل نبيٍّ في دعوته بالمشكلات المركزية المنتشرة

في قومه، فهذا لوط عليه السلام يعتني بعلاج مشكلة الفاحشة، وذاك هود عليه السلام يحارب مظاهر الاستعلاء المادي في قومه، وشعيب عليه السلام كان يدعو قومه إلىٰ القسط في الميزان وعدم إنقاصه، ولم يشتغل شعيب عليه السلام بمحاربة الفاحشة ولا لوط عليه السلام بمحاربة التطفيف في المميزان -لا لكونهما ليستا مشاكلًا بل لأنهما لم يكونا من المشكلات المنتشرة في أزمانهم، بالإضافة إلىٰ اهتمامهم جميعا بالمشكلة المركزية المتكررة في جميع الأقوام وهي مشكلة الشرك بالله سبحانه، وهذا معلم منهجي أساسي في طريق الإصلاح، وهو: (ألاَّ يكون الانشغال في القضايا الصغرىٰ -ولو كانت صالحة- مُفضِيًا إلىٰ ضياع القضايا الكبرىٰ) وهو ما يدخل تحت عنوان (فقه الأولويات) و(فقه الدعوة) بشكل عام.

هذا وإن من أعظم صور التوفيق والهداية أن يُهدىٰ المصلح إلىٰ فهم مشكلات واقعه وإدراك مراتب خطورتها، ثم يُهدىٰ إلىٰ موافقة الحق في طريقة علاجه لها، وإلىٰ تقديم الأهم علىٰ ما دونه في أولوية الاشتغال بالإصلاح، فيستحق بذلك وصف (الحكمة) التي هي: (فعل ما ينبغي، علىٰ الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي) كما ذكر أهل العلم، فيدخل في هذا التعريف دخولا أوليًا: فقه الأولويات وتقديم المصالح الأجدر بالعناية علىٰ ما دونها، وهذا ما ينطبق علىٰ موضوع الأسئلة الكبرىٰ والعناية بها علىٰ وفق هدي الأنبياء وسبيل المرسلين عليهم صلاة الله وسلامه أجمعين.

وإذا أردنا أن نعود بالذاكرة إلىٰ التاريخ القريب لنرىٰ أمثلة تعبر عن هذا المعنىٰ -الذي هو صياغة أهم تحديات المرحلة في أسئلة تعبر عنها- فإن من أبرز الأمثلة علىٰ ذلك: ما فعله «شكيب أرسلان» -وهو أحد المصلحين في النصف الأول من القرن العشرين- من صياغة سؤال معبر عن مشكلة مرحلته، وهو سؤال: (لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم؟)، وهو في أصله سؤال مطول ورد إليه من إندونيسيا عن طريق مجلة المنار ثم صدر علىٰ شكل كتاب عام ١٩٣٠م. وكان هذا السؤال معبّرًا بدقة عن هموم المفكرين في مرحلة طويلة تجاوزت

النصف قرن، ولذلك اكتسب أهمية بالغة أكثر من الجواب نفسه، بل إن «مستويات العودة إلىٰ الكتاب والاقتباس منه، وتداول نصوصه، هي أقل بكثير مقارنة بالعودة إلىٰ عنوانه، والتوقف عند سؤاله، وبشكل لا يكاد يُقارن، ومن هذه الجهة يتفوق عنوان الكتاب وسؤاله علىٰ الكتاب نفسه نصا وموضوعًا»(١)، ومما يجدر التنبيه إليه أن تلك المرحلة كان فيها مشكلات أخرىٰ عميقة تتطلب الاهتمام، وأسئلة أخرىٰ ربما لم يهتد إليها بعض العاملين، أو ربما عرفوها ولكن لم يهتدوا إلىٰ حسن الجواب لها، فلا ينبغي أن نحصر إشكالية تلك المرحلة في سؤال التقدم والتأخر فقط.

وإذا كان سؤال التقدم معبرا عن إحدىٰ المشكلات الكبرىٰ في مرحلة الثلث الأخير من القرن التاسع عشر والثلث الأول من القرن العشرين، فإننا نعيش اليوم مرحلة مختلفة لها أسئلتها ومشكلاتها وثغورها وعناوينها الخاصة بها، فمن المهم تسليط الضوء عليها وإبرازها حتىٰ تُوجّه إليها الطاقات، وتكون محل استحضار ومراعاة علىٰ الدوام، وهذا من أهم وظائف المصلحين وأدوارهم.

وإذا أردنا أن نعبر بسؤال واحد يلخص المشكلات الكبرىٰ التي ينبغي أن ينشغل بها المصلحون في مرحلتنا هذه فإننا سنجد صعوبة بالغة في ذلك؛ لأن هذه المرحلة استثنائية انتقالية، جاءت بعد هبوط حادّ في مكتسبات كثير من المشاريع الإسلامية مما أدىٰ إلىٰ فقدان الصفوف تماسكها، فظهرت حالة من الإحباط واليأس؛ تولّدت عنها أسئلة مصيرية متعلقة بجدوىٰ العمل للإسلام، بل وتجاوزت ذلك إلىٰ السؤال عن صحة الإسلام نفسه عند بعض من اشتد بهم اليأس والإحباط، كما أن هناك أسئلة متعلقة بصحة المنهج ومعالم الطريق الصحيح من بين الطرق الكثيرة والاتجاهات الإسلامية المختلفة، بالإضافة إلىٰ أسئلة واجب الوقت وأولويات العمل، وأفضل الطرق للإصلاح، وأهم المشاريع والثغور، وما إلىٰ ذلك من أنواع الأسئلة.

---

(١) عصر النهضة، زكي الميلاد (٩٢)

ولذلك، فإذا أردنا أن نلخص أبرز الأسئلة والتحديات الداخلية التي يواجهها العاملون في مختلف السياقات الإسلامية، وخاصة في مرحلة ما بعد الربيع العربي وآثاره، فإننا سنجد عددًا كبيرا مما ينبغي الاهتمام به وتقديمه من المشكلات والأسئلة والتحديات، ولذلك فإن من الأفضل -علىٰ سبيل التقريب- صناعة دوائر وحِزم تُضَمّ فيها الأسئلة المتشابهة إلىٰ بعضها ثم تعنون بعنوان جامع يضمها، وبناء علىٰ ذلك فسأقسم هذه الأسئلة إلىٰ ثلاث دوائر علىٰ النحو التالي:

الدائرة الأولىٰ: دائرة اليأس والإحباط والاضطراب أمام التحديات الهائلة المتجددة، وأهم الأسئلة المعبرة عن هذه الدائرة هي: (سؤال الجدوىٰ من العمل للإسلام) و(سؤال صلاحية مرجعية الوحي للتحديات المعاصرة) و(سؤال الهوية الإسلامية أمام الهويات الأخرىٰ) و(سؤال الثبات) و(سؤال اليقين والشك تجاه الثوابت والمسلّمات الشرعية) وما إلىٰ ذلك.

الدائرة الثانية: دائرة الحيرة في اختيار الوجهة الإسلامية وفي الاستقامة المنهجية الإصلاحية، والتي يمكن أن يُعبر عنها بـ (سؤال الوجهة) أو (البوصلة) وتشمل أسئلة مركزية متعددة، من نحو: (ما الوسيلة الصحيحة للعمل للإسلام في هذه المرحلة: الدعوية أم التربوية أم الشرعية أم النهضوية التنويرية أم السياسية أم القتالية . . .؟) و(كيف أعرف من هم علىٰ الحق من المنتسبين لحقول العمل للإسلام؟) و(سؤال الصلة والقطيعة بالتراث الإسلامي في سياق النهضة والتجديد) ونحو ذلك من الأسئلة التي هي بطبيعة الحال تأتي بعد سؤال الجدوىٰ.

الدائرة الثالثة: دائرة الخطة والمنهجية والأولويات والتحديات والعمل، والتي يمكن أن يعبر عنها بأكثر من جملة، منها: (واجب الوقت) و(اختيار الثغر) و(احتياجات المصلح)، وتشمل أسئلة مركزية متعددة، من نحو: (كيف نعرف واجب الوقت من بين خارطة الثغور؟) و(ما المشروع الإصلاحي الأنفع «لي»؟) و(ما متطلبات المرحلة من حيث البناء والتكوين للوصول إلىٰ حُسن العمل

والتأثير؟) و(كيف أتجاوز التحديات المحيطة والمعيقة عن العمل والفاعلية الإصلاحية؟) و(كيف نكون أملًا؟).

وقد حرصت علىٰ تناول هذه الأسئلة المركزية وما يتصل بها عبر هذا الكتاب بالنقاش والتحليل والمعالجة بما يسر الله وأعان، ولكن ليس بالطريقة المباشرة التي أتناول فيها كل سؤال علىٰ حدة، وإنما بالتأصيل والبناء الذي يأتي علىٰ كثير من هذه الأسئلة وخاصة في الدائرتين الأولىٰ والثالثة، ومما أعان علىٰ ذلك -بفضل الله وتوفيقه- أنني قدمتُ مضامين الكتاب في لقاءات شبابية كثيرة، ودورات مطولة -غير منشورة سابقًا-، فاستفدتُ كثيرًا من مشاركة الحضور، وتفاعلهم، والأسئلة التي تطرح، وفي كل مرة أقدم المادة أو بعض مضامينها أزيد في أصلها، وأعدّل وأُصْلِح، وأعيد الترتيب، حتىٰ استوت علىٰ صورة كنت أحسبها صورة التمام، فعرضت المادة علىٰ مجموعة من ذوي العلم والرأي والتجربة، فأبدوا ملاحظاتهم وآراءهم، فاستفدتُ منها كذلك وعدتُ إلىٰ أصل المادة بالتحسين والتعديل، حتىٰ خرجت بهذه الصورة التي -مع كونها لا تزال قابلة للتعديل- إلا أنني أرجو أن تكون نافعة طيبة يستفيد منها المخاطبون بهذا الكتاب؛ سائلًا الله تعالىٰ التوفيق، والتسديد والعون والبركة.

القسم الأول

فضل الإصلاح

فضل الإصلاح

الجوانب الكاشفة عن فضل الإصلاح ومكانته:

ورد الإصلاح بلفظه ومعناه صريحًا في القرآن، فقال ﷻ علىٰ لسان شعيب ﷺ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾، غير أن فضله الوارد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا ينحصر فيما جاء بلفظ (الإصلاح) صريحًا، وإنما يدخل في ذلك كل ما كان متَّفقًا مع حقيقة الإصلاح ومقاصده وإن لم يرد بلفظه؛ فيدخل في فضل الإصلاح كل ما ورد في فضل الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الدين وإظهاره، ومحاربة الفساد، وما إلىٰ ذلك، وهذا ما سأراعيه في بيان الجوانب الكاشفة عن فضل الإصلاح، وهي جوانب عدة، من أهمها:

الجانب الأول
أنه سبيل الأنبياء والمرسلين

إنّ من أعظم الجوانب الكاشفة عن فضل الإصلاح ومكانته، أنه سبيل الأنبياء والمرسلين الذين هم خُلاصة الخلق وأشرف البشر، كما قال سبحانه عن الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ وقال عن نبيّه ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فالاشتغال بما اشتغلوا به أشرف ما يمكن لبشر أن يشتغل به علىٰ الإطلاق، وهو خيرٌ من كل المسالك والوظائف والأعمال الدنيوية التي يفتخر بها الناس مهما علا شأنها وافتخر أهلها، وهذا الإصلاح هو مِن أظهر معالم الصراط المستقيم الذي أُمرنا باتباعه وبالدعاء بالهداية إليه في سورة الفاتحة، إذ إنه موصوف بأنه صراط الذين أنعم الله عليهم، وهم الأنبياء ومن تبعهم، كما قال سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

وهذا المعنىٰ في غاية الشرف لمن يفقهه من المصلحين، وهو من أعظم البواعث لتصحيح النية وتوجيه المسير، كما أنه مانع من الانهزام النفسي ومن اليأس والإحباط عند تخلف النتائج والآثار؛ لأنَّ من يستحضر هذا المعنىٰ يؤمن

أنَّ شرف هذا الطريق نابع من ذاته لا من أمور خارجة عنه، فهو طريق المرسلين، كما أن في قصصهم وأحوالهم وابتلاءاتهم وصبرهم سبب عظيم من أسباب الثبات، كما قال سبحانه: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾. ومن المهم لمن يسلك طريق الإصلاح -مستحضرًا كونَه سبيل السائرين فيه قبله من الأنبياء والمرسلين- أن يتفقه في طريق الأنبياء ومنهجهم، لأن الفضل في هذا الطريق فرعٌ عن حُسن اتباعهم فيه، فلا يكفي شرف الانتساب العام إلىٰ الدعوة إلىٰ الله والإصلاح، بل لا بد من العناية البالغة بالتفقه في معالم هدي الأنبياء وسبيلهم في الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ وإصلاح الخلق.

وسأذكر هنا -تتميمًا للفائدة- **بعض المعالم الشموليّة لسبيل الأنبياء في الإصلاح** لخصتُها في أحد عشر معلمًا، علىٰ النحو التالي:

١- أن من معالم سبيلهم أنهم يسيرون فيه علىٰ بصيرة وبيّنة، وبرهان وحجة، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ وكما قال سبحانه علىٰ لسان نوحٍ وصالحٍ وشعيب عليهم السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ وهذا يحتّم علىٰ من يريد اتباع سبيلهم أن يعتني بالعلم والدليل.

٢- ومن معالم سبيلهم: التّجرد الإصلاحي، وعدم استغلال الدّعوة لتكون جسرًا للمكاسب الشّخصية، ومما يدل علىٰ ذلك قول الأنبياء المتكرر في سورة الشعراء: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإذا زعم السالك طريق الإصلاح أنه متبع لطريق المرسلين ثم تجد بوصلته متجهة إلىٰ شخصه ومنافعه ومكاسبه فهو غير حائز شرف الانتساب إليهم، بل هو مدّعٍ لم يُقم من البينات العملية ما يُصدق دعواه، والله المستعان.

٣- ومن معالم سبيلهم: العناية بالقضية الكبرىٰ التي خُلق الخلق لأجلها، وهي تحقيق العبودية لله تعالىٰ، وتخليص القلوب والجوارح من الشرك، كما قال

سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.

٤- ومن معالم سبيلهم: الانشغال بمعالجة أهمّ المنكرات والمشكلات المنتشرة في أزمنتهم، والتي تختلف من زمان لآخر، فالله سبحانه ذكر لنا عناية لوط عليه السلام بعلاج مشكلة الفاحشة، كما ذكر لنا عناية شعيب عليه السلام بمعالجة مشكلة التطفيف في المكيال والميزان، فالمتبع لسبيل الأنبياء ينبغي عليه أن يعتني بأهم مشكلات عصره.

٥- ومن معالم سبيلهم: الحرص علىٰ النّاس والرّغبة الشّديدة في هدايتهم وإظهار الشفقة عليهم، كما قال سبحانه علىٰ لسان الأنبياء: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وأمثالها من الآيات، وكقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات الكثيرة في هذا المعنىٰ.

٦- ومن معالم سبيلهم: العناية بالبرهان في عرض الحق، وإيضاح الرّسالة بأفضل طرق البيان، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ وقال: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وقال: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ إلىٰ غير ذلك؛ فعلىٰ المصلح أن يحرص علىٰ تنمية هذا الجانب عنده، وأن يتعلم كيف يُبينُ عن الحق بالحجة والبرهان كيلا يُؤتىٰ الحقّ من قِبَله.

٧- ومن معالم سبيلهم: عدم الخشية من الناس في سياق تبليغ الرسالة والقيام بالحق، كما قال سبحانه عنهم: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

٨- ومن معالم سبيلهم: التوكل علىٰ الله تعالىٰ والاستعانة به في تحمل أعباء الرسالة وما يترتب عليها، كما جاء في قوله سبحانه علىٰ لسان الأنبياء صلوات الله عليهم: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ﴾.

٩- ومن معالم سبيلهم: الصّبر وتحمّل الأذىٰ الناجم عن أقوامهم من السب والتكذيب والضرب وما إلىٰ ذلك، كما قال سبحانه تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ وقال سبحانه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

١٠- ومن معالم سبيلهم: عنايتهم بالمؤمنين الذي اتبعوهم، وتربيتهم إياهم، وتصبيرهم وتثبيتهم، والسير بهم في العمل للدين؛ إذ إنّ من هدي الأنبياء أنهم يجمعون بين أمرين: تبليغ الرسالة للمخالفين، وبناء المؤمنين وتربيتهم علىٰ الحقّ، ولذلك فإن من تمام الاقتداء بهدي الأنبياء في الإصلاح: الجمع بين هذين الأمرين، ومن الأدلة علىٰ عناية الأنبياء بتربية المؤمنين وتعليمهم وتزكيتهم قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وقوله سبحانه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ﴾. ولذلك فإن الله ﷻ يذكر أتباع الأنبياء في سياق الامتداح في مواضع من كتابه، وسأذكر منها ثلاث آيات، أولها قوله سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا

ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وثانيها قوله سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾ وثالثها قوله سبحانه: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾.

١١- ومن معالم سبيلهم: دوام التزوّد الإيمانيّ والتّعبديّ، وذلك أنّ الله سبحانه كما قصّ علينا من أنباء الرسل مع أقوامهم في تبليغ الرسالة والقيام بالحق والصبر على أذاهم، فقد قصَّ علينا كذلك أنباء تألههم وتعبدهم له سبحانه، كما قال جلّ وعلا: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ ووصفهم بقوله: ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾.

الجانب الثاني
موافقة الصلاح الكوني بالإصلاح الشرعي

سخَّر الله سبحانه الكائنات السماوية والأرضية -من الكواكب والنجوم والجبال والشجر والدواب- فجعلها مُسيّرةً قانتةً له، ولم يجعلها محلًّا للتكليف الاختياري بالشرائع، وأما الإنسان فهو -وإن كان يشمله نوعٌ من التسخير الكوني كذلك- إلا أن الله جعله محلاً للتكليف الاختياري، ففي الإنسان عبوديتان: عبودية غير اختيارية (وذلك أنه تحت سلطان الله وقدره فهو الذي أوجده وهو الذي يقبض روحه وهو الذي يقدر عليه الأقدار) وعبودية اختيارية (وهي الالتزام بالتكليف الشرعي)، فلا يوجد إنسان قادر علىٰ مخالفة العبودية غير الاختيارية، بينما تكثر المخالفة في العبودية الاختيارية بمخالفة الشريعة التي أنزلها الله، والجمع بين هاتين العبوديتين هو غاية ما خُلق الإنسان لأجله، إذْ إنّ (المقصد الشرعي من وضع الشريعة: إخراج المكلّف عن داعية هواه حتىٰ يكون عبدًا لله اختيارًا كما هو عبد الله اضطرارًا) كما قال الشاطبي رحمه الله تعالىٰ[1]. وإذا كان الحال كذلك فإن من أعظم فضائل المصلحين أنهم يسعون لتحقيق هذه العبودية الاختيارية في الخلق، فيدعون العصاة والكفرة والفاسقين الخارجين عن

(١) الشاطبي، الموافقات (٣/٣٩٣) ت: الحسين آيت سعيد

العبودية الاختيارية ليعودوا إليها، وهذا من أشرف المعاني وأجلّها، إذ إنّ في هذه العبودية الاختيارية موافقة للقنوت الكوني العام الذي سُخّرَت له الكائنات. والتمرُّدُ عنها إنما هو شذوذ عن عبودية الكائنات كلها، ولذلك فقد ثبت عن النبي ﷺ أنّ العبد الخارج عن هذه العبودية -وهو الفاجر- إذا مات فإنه: (يستريح منه البلاد والعباد والشجر والدواب)[1] وقال سبحانه عن قوم فرعون: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ قال ابن كثير رحمه الله: (أي: لم تكن لهم أعمال صالحة تصعد في أبواب السماء فتبكي علىٰ فقدهم، ولا لهم في الأرض بقاع عبدوا الله فيها فقدتهم؛ فلهذا استحقوا ألا ينظروا ولا يؤخروا لكفرهم وإجرامهم، وعتوّهم وعنادهم)[2]. وبعكس ذلك فقد رُوي عن النبي ﷺ أن من يشتغل بتعليم الناس الخير فإنه تستغفر له الكائنات -غير المكلفة-؛ فعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: (ذُكر لرسول الله ﷺ رجلان: أحدهما عابد، والآخر عالم، فقال رسول الله ﷺ: «فضل العالم علىٰ العابد كفضلي علىٰ أدناكم». ثم قال ﷺ: «إن الله، وملائكته، وأهل السماوات، والأرضين، حتىٰ النملة في جحرها، وحتىٰ الحوت؛ ليصلون علىٰ معلم الناس الخير»)[3]. وهذا معنىٰ في غاية الشرف والفضل لأهل الإصلاح، خاصة وأن سعيهم في ذلك إنما هو بـ (كلمات الله الشرعية) الموافقة لـ (كلماته الكونية) -والله سبحانه كما أنه ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ وهذا بكلماته الكونيّة، فقد أتم كلماته الشرعية كذلك، كما في قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ فهو الذي أحسن الخلق والأمر-. وكلمات الله الكونية لا يجاوزها بر ولا فاجر، بينما كلمات الله الشرعية قد يجاوزها الفاجر، كما قال ابن القيم رحمه الله[4]، فالساعون لتبليغ كلمات الله الشرعية

---

(١) البخاري (٦٥١٢) ومسلم (٩٥٠)

(٢) تفسير ابن كثير (٢٢٩/٤) ط: الرسالة.

(٣) الترمذي (٢٦٨٥) وقال: حديث حسن صحيح غريب

(٤) قال: (وأما الكلمات الكونية فكقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وقوله ﷺ: «أعوذ بكلمات الله =

واستصلاح الخلق بها يقومون بأعظم القسط، ولذلك وصفهم بأنهم أحسن الناس قولا فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فهم يدعون إلىٰ موافقة حالة القنوت العامة في الكون المسخّر كما قال سبحانه: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ وبعكس ذلك فإن مخالفة هذا القنوت هي أعظم الظلم كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. فإذا استحضر المصلحون هذا المعنىٰ أدركوا شرف الغاية التي يعملون لأجلها، ولم يرضوا بها بدلا، وعقدوا لأجلها الصفقة مع خالقهم سبحانه، فباعوا نفوسهم لله، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ ولم يلتفتوا للمصاعب والشدائد وأذىٰ الأعداء.

= التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما خلق» فهذه كلماته الكونية التي يخلق بها ويكوّن، ولو كانت الكلمات الدينية هي التي يأمر بها وينهىٰ لكانت مما يجاوزهن الفجار والكفار، وأما الدينية فكقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ والمراد به القرآن، وقوله ﷺ في النساء: «واستحللتم فروجهن بكلمة الله» أي بإباحته ودينه وقوله: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، وقد اجتمع النوعان في قوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ فكُتبه: كلماته التي يأمر بها وينهىٰ ويحل ويحرم، وكلماتُه: التي يخلق بها ويكون) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل - الباب التاسع والعشرون

الجانب الثالث
أن الإصلاح من مركزيات الشريعة

إنّ من يتتبع النصوص الشرعية الواردة في الحث علىٰ الدعوة إلىٰ الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم في النصوص المحذرة من السكوت عن الباطل، والمبينة خطورة الجمود أمام الفساد والمنكرات بالسكوت أو الإعراض عن الإصلاح، فإنه سيُدرك أن الإصلاح معنىٰ مركزي في الشريعة، وأنه من شعائرها العظمىٰ، وأنه سمة بارزة لهذه الأمة كما قال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾. وإذا كان كذلك؛ فإن من الفقه أن يُدرك المرء فضل العبادة والعمل بناء علىٰ مركزيته وأهميته وأولويته في الشريعة، بلْهَ ما ورد فيه مفصّلًا.

ومما يبين مركزية الإصلاح في الشريعة علىٰ ضوء ما ذُكر، عدة أمور، منها:

- أن الله سبحانه بيّن أن من أسباب نجاة المؤمنين من العذاب الذي ينزله بالمفسدين: سعيهم للإصلاح وإنكار المنكر، كما قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ وقال سبحانه في ذات المعنىٰ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ

أُتۡرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجۡرِمِينَ ۝١١٦ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾. ومما يدل على هذا المعنى من السنة حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: (يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ﴾ وتضعونها على غير مواضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب)[١].

- ومنها أنّ النبي ﷺ بيّن أن الإصلاح صمام أمان للمجتمع بأكمله، وأن أثره ليس على المصلحين وحدهم، كما ثبت في البخاري من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: (مثل القائم على حدود الله، والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم. فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا)[٢]، وهذا حديث عظيم يدل على مركزية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في حماية المجتمع من الغرق.

- ومنها أن الله ذم أمة من الأمم بتركه، وجعل هذا الترك من المعالم التي توصف بها الأمم في أفعالها وتصرفاتها، كما قال سبحانه عن بني إسرائيل: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨) والترمذي (٣٠٥٧) وقال: هذا حديث حسن صحيح. وأحمد (١)

(٢) صحيح البخاري (٢٦٨٦)

الجانب الرابع
ما ورد في الإصلاح من ثواب خاص وفضل معين

إنّ مما يكشف عن فضل الإصلاح ومكانته ما ورد فيه من الفضائل الخاصة والأجور المعينة -غير ما سبق ذكره من جوانب الفضل للإصلاح-، ومن ذلك:

- أنّه من مكفرات للذنوب والسيئات، كما ثبت في صحيح البخاري من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: (بينا نحن جلوس عند عمر؛ إذ قال: أيكم يحفظ قول النبي صلى الله عليه وسلم في الفتنة؟ قال: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[١].

- أنّه من جملة الصدقات التي يثاب عليها الإنسان، كما ثبت في صحيح مسلم[٢] من حديث أبي ذر رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (وأمْرٌ بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة).

- أنّه سبب الفلاح، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

- أنّه سبب لأجور عظيمة متصلة جارية للإنسان بعد موته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من دعا إلىٰ هدىٰ كان له من الأجر مثل

(١) صحيح البخاري (٧٠٩٦)

(٢) (٧٢٠)

أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا. ومن دعا إلىٰ ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا» أخرجه مسلم[١].

- أنّ هداية الناس بسبب الدعوة والإصلاح أثمن من كنوز الدنيا وأموالها، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال لعلي رضي الله عنه: (فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من أن يكون لك حمر النعم)[٢].

(١) (٢٦٧٤)

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٠١) ومسلم (٢٤٠٦)

فضل الإصلاح

الجوانب الكاشفة عن قيمة الإصلاح وفضل الإصلاح في الشريعة

أن الإصلاح سبيل الأنبياء والمرسلين

معالم سبيل الأنبياء والمرسلين

١- من معالم سبيلهم أنهم يسيرون فيه على بصيرة وبيّنة، وبرهان وحجة.
٢- التّجرد الإصلاحي، وعدم استغلال الدّعوة لتكون جسرًا للمكاسب الشّخصية.
٣- العناية بالقضية الكبرى التي خُلق الخلق لأجلها، وهي تحقيق العبودية لله تعالى.
٤- الانشغال بمعالجة أهم المنكرات والمشكلات المنتشرة في أزمنتهم.
٥- الحرص على النّاس والرّغبة الشّديدة في هدايتهم وإظهار الشفقة عليهم.
٦- العناية بالبرهان في عرض الحق، وإيضاح الرّسالة بأفضل طرق البيان.
٧- عدم الخشية من الناس في سياق تبليغ الرسالة والقيام بالحق.
٨- التوكل على الله تعالى والاستعانة به في تحمل أعباء الرسالة وما يترتب عليها.
٩- الصّبر وتحمّل الأذى الناجم عن أقوامهم من السب والتكذيب والضرب وما إلى ذلك.
١٠- عنايتهم بالمؤمنين الذي اتبعوهم، وتربيتهم إياهم، وتصبيرهم وتثبيتهم، والسير بهم في العمل للدين.
١١- دوام التزوّد الإيماني والتعبدي.

موافقة الصلاح الكوني بالإصلاح الشرعي

أن الإصلاح من مركزيات الشريعة

ما ورد في الإصلاح من ثواب خاص وفضل معين

١- أنّه من مكفرات الذّنوب والسيئات.
٢- أنّه من جملة الصدقات التي يثاب عليها الإنسان.
٣- أنّه سبب الفلاح.
٤- أنّه سبب لأجور عظيمة متصلة جارية للإنسان بعد موته.
٥- أنّ هداية النّاس بسبب الدعوة والإصلاح أثمن من كنوز الدنيا وأموالها.

القسم الثاني

جدوى الإصلاح

المبحث الأول:
مشكلة اليأس والإحباط وفقدان الأمل تجاه الإسلام: مستوياتها ومظاهرها وأسبابها

يعيش كثير من الشباب -المهتمين بدينهم- حالةً من الفتور العميق، والإحباط المركّب، والخيبة الثقيلة؛ وذلك لأسباب كثيرة، وعوامل مختلفة متنوعة، لا يحسن بالمصلحين أن يجهلوها أو يغفلوا عنها، فضلا عن أن يصابوا هم بدورهم بشيء من أثرها من يأس وفتور، بل الذي ينبغي عليهم أن تكون هذه الحالة دافعةً لهم لمزيد من البذل والعطاء، وإعادة الروح والهمة للمنكسرة قلوبهم، وبث الحياة في صدور من فقدوها ممن تربوا في حلق القرآن وأروقة الأعمال الدعوية والخيرية الصالحة، وسأتناول في هذا المبحث والمباحث التي تليه بعض القضايا الكاشفة عن المشكلة وأسبابها وعلاجها بإذن الله تعالىٰ، وذلك عبر العناوين التالية:

١- مستويات اليأس والإحباط الموجودة في الواقع.

٢- مظاهر اليأس والإحباط الموجودة في الواقع.

٣- أسباب اليأس والإحباط الموجودة في الواقع.

أولًا: مستويات اليأس والإحباط الموجودة في الواقع:

تتفاوت مستويات اليأس وتتنوع صوره وتختلف درجاته، ويمكن لنا أن نرتبها من الصورة الأخف يأسًا إلىٰ الأشد علىٰ النحو التالي:

المستوىٰ الأول: اليأس من إمكان الإصلاح المُجدي، والقناعة بأنَّ صور الإصلاح الممكنة إنما هي في الفروع غير المؤثرة، والتي لا تتماس مع المشكلات الكبرىٰ في هذه المرحلة. وهذا المستوىٰ لا يصحبه قعود عن العمل، بل قد يكون صاحبه عاملًا، ولكن بلا روح وثّابة، ولا عزيمة وقّادة، وبلا أمل عظيم يحدوه، وقد يعمل من باب إبراء الذمة فقط، فيجاهد نفسه ليقدم شيئا يخرج به نفسه من دائرة العزلة والانكفاء.

المستوىٰ الثاني: اليأس من جدوىٰ الإصلاح في هذه المرحلة مطلقًا، ولو في بعض الأبواب والفروع، والقعود عن العمل، وانتظار المدد الإلهي مع عدم تطلب أسباب هذا المدد. وهذا المستوىٰ لا يصحبه انتكاس أو انحراف منهجي بقدر ما هو قعود وإحباط وفتور -وربما يصحبه انشغال أو تشاغل بالشأن الثقافي والمعرفي الذاتي-، مع القناعة الداخلية المجملة بأن الدين منصور في المستقبل.

المستوىٰ الثالث: اليأس من جدوىٰ اعتبار الإسلام مكونًا أساسيا في الإصلاح، وعزله عن أن يكون له أثر في الإصلاح والنهضة، والتعلق بالمنتجات الإنسانية الخالصة، والتجارب النهضوية البشرية، دون احتفاء حقيقي بالوحي وما جاء فيه من إرشاد وهداية للمسلم في مثل هذه الأزمات. وهذا المستوىٰ قد يبقىٰ أصحابه علىٰ انتسابهم العام للعمل الإسلامي، ولكنه انتساب أجوف، وقد تبقىٰ عندهم بعض صور الحفاوة بالمظاهر الإسلامية الشكلية، والحقيقة أنهم إنما يرون الجدوىٰ في الحل العلماني، والاقتداء بالسياقات الغربية.

المستوىٰ الرابع: اليأس التام المطلق من روح الله، وإساءة الظن به -سبحانه- وبدينه، وسقوط أدنىٰ معاني العزة بهذا الدين والانتماء إليه. وهذا المستوىٰ وإن كان بفضل الله تعالىٰ غير منتشر انتشارا واسعًا، إلا أنه موجود،

وقد يؤثر تأثيرا خفيًا وينخر في بناء الإيمان حتىٰ يسقط أصحابه أمام أي موجة تشكيكية تافهة، والتي قد توصل بعضهم إلىٰ الإلحاد أحيانًا.

ثانيًا: مظاهر اليأس والإحباط الموجودة في الواقع:

تتنوع المظاهر التي يمكن الكشف بها عن تأثير اليأس والإحباط علىٰ أصحابها، وقد تختلف إلىٰ حدّ أن تبدو متناقضة أحيانًا، ويجدر التنبيه إلىٰ أن وجود مظهر من هذه المظاهر لا يكون بالضرورة لازمًا لليأس، وإنما قد يكون ناشئًا من سبب آخر، والبصير يدرك الفرق بين الملتبسات. والمظاهر المذكورة هنا ليست علىٰ سبيل الاستقصاء التام، وإنما هو جمع لأهمها، وذلك علىٰ النحو التالي:

١- الانكفاء عن كل مجالات الإصلاح -بمختلف مستوياته- والاكتفاء بالإطار الثقافي الذاتي.

٢- الانكفاء عن مجالات الإصلاح المجدية، والاكتفاء بصور جزئية من الإصلاح الهامشي الرغيد الذي يمكن في الواقع تحقيق ما هو أعلىٰ منه.

٣- التقليل من قيمة الجهود التي يبذلها المصلحون في الوقت الحالي، وعدم اعتقاد أي جدوىٰ نفع في أي سياق إسلامي.

٤- النظرة المتشنجة تجاه التجارب الإسلامية السابقة برموزها ومختلف سياقاتها، وعدم الاعتدال في النقد، وإغفال أدنىٰ قدر من الإنصاف والنظر للمحاسن -وهذا كغيره قد يكون له أسباب أخرىٰ لكن من المهم التنبه إلىٰ أنه قد يكون مظهرًا معبرا عن حالة اليأس-.

٥- التركيز المبالغ فيه علىٰ الوسائل والأدوات والمهارات، مع الإغفال للمبادئ والثوابت والمرتكزات.

٦- دوام التقلب بين المناهج والاتجاهات وعدم الثبات علىٰ منهجية واحدة مثمرة.

٧- الغلو في الدين، وسلوك سبل الحلول العاجلة الصدامية غير المحسوبة، والتي كثيرا ما تكون ذات مفاسد بالغة وظاهرة.

٨- تبني اتجاهات فكرية مخالفة لثوابت الشريعة، تتصل بالتوجهات الحداثية والعلمانية أو «الليبروإسلامية» وما شابهها.

٩- السقوط القيمي والأخلاقي، وعدم الاستعداد لأي قدر من التضحية والثبات، والجنوح إلىٰ القاع.

ثالثًا: أسباب اليأس والإحباط الموجودة في الواقع:

تنقسم العوامل المؤثرة في انتشار اليأس والإحباط في أوساط العاملين إلىٰ نوعين من العوامل:

أولًا: عوامل داخلية:

والمقصود بها: الأسباب التي نشأت عن الواقع الداخلي للواقع الإسلامي وتجاربه وممارساته، أو عن الواقع الداخلي للمصلح في نفسه، ومنها:

- التفسير الخاطئ لمعاني (النصر والهزيمة، والفوز والخسارة، والنجاح والفشل) وذلك بأن تُربط معاني النصر والفوز والنجاح بتحقيق المكتسبات الملموسة، وتربط معاني الخسارة الفشل بعكسها، وعدم اعتبار الثبات علىٰ حقائق الإسلام فوزًا بحد ذاته ولو لم تحقق معه مكتسبات ملموسة -إذا كان ذلك مع اتخاذ الأسباب-.

- ومنها: استعجال الثمرة والمبالغة في التبشير بها، دون النظر إلىٰ السنن الإلهية ومعطيات الواقع، وقلة المعرفة بالتجارب الإصلاحية القديمة والحديثة.

- ومنها: كثرة الخلافات بين العاملين، وشدة التفرق بينهم، والتحزب المذموم الذي يُبذل فيه الولاء للجماعة والحزب فوق بذله لرابطة الإسلام العامة، فهذا أحدث حالة من الإحباط من جدوىٰ العمل، خاصة في بعض الأقطار التي كثر فيها التنازع بين الفصائل العاملة لتحريرها من قبضة الظلم والطغيان.

- ومنها: نقص الوعي بالواقع المتعلق بالأعداء وقوتهم وسبل كيدهم ومكرهم، وعدم توقع ما يمكن أن يفعلوه في محاربة الواقع الإسلامي، وتفاجؤ الكثير من أهل الصلاح والاستقامة ويأسهم بعد وقوع ذلك، بينما لو كان هنالك وعي مسبق بكيد الأعداء ومدىٰ البطش والإجرام الذي يمكن أن يصلوا إليه لما حصلت مثل هذه الصدمات.

- ومنها: ضعف البناء الإيماني التزكوي، وذلك أن التزكية الحقيقية -في كثير من السياقات التربوية- كانت علىٰ الأطراف، لا في الأصل والصميم والمركز، وكذلك كان البناء الإيماني البرهاني المتعلق بـ: (أصول الإسلام وثوابته) ضعيفًا، فصارت معاني الإسلام الكبرىٰ -عند كثير من الشباب- مكشوفة بلا حصون، ومع انعدام الشعور المسبق بالخطر قبل وقوعه -لكون الساحة خالية من المهددات-؛ جاءت الأزمات فأحدثت هزّات عنيفة في الكيان الداخلي لكثير من الناس؛ مما أدىٰ إلىٰ تأثر إيمان كثيرين منهم، بينما لو كانت أصول الإسلام محصّنة محميّة، لكان الضرر أقل بكثير من الذي حصل حين كانت مكشوفة.

- ومنها: ضعف البناء الشرعي المحكم، وعدم إتمام مراحله، بل التوقف قبل التمكّن وقبل أن يصبح المرء رقما صعبا، واستعجال إغراق الشباب في الأعمال الدعوية والإصلاحية قبل الاستواء وتمام البناء، وهذا له تأثير في طبيعة ردات الفعل أمام الأزمات.

- ومنها: طبيعة المواقف المُخيِّبة من بعض الرموز الإسلامية والقدوات الشرعية، والتي تتمثل في التخاذل الشديد والانسحاب التام في الأزمات، أو في مطاوعة الموجة الضاغطة عبر التبرؤ من المواقف -الصحيحة- السابقة، وتبنّي خطاب يتماشىٰ مع الجو السياسي العام دون تقديم المستندات الشرعية لهذا التغير والتحول.

ثانيًا: عوامل ومؤثرات خارجية:

وهي الأسباب التي جاءت من خارج الصف الإسلامي، وأدت إلىٰ نشوء حالة من اليأس والإحباط بسبب العجز أمام هذه التحديات الخارجية الصعبة، ومن أبرزها:

- التوحش الشمولي في محاربة الإسلام والعاملين له في هذه المرحلة، وذلك علىٰ مختلف المستويات وبتنوع الوسائل والأساليب، حتىٰ إن كثيرا من العاملين والمهتمين الذين بقوا في الساحة ولم يلحقهم الأذىٰ المباشر باتوا يتساءلون عما يمكن عمله للسلامة والبقاء بعيدا عن هذا التسلط الشمولي.

- ومنها: التتابع والتصاعد والتسارع في الأزمات والنكبات في رقعة وجود المسلمين الواسعة علىٰ الخارطة، في الشرق والغرب، بحيث لا تكاد تنام في ليلة إلا وتصحو في صباحها علىٰ خبر تبثه وسائل الإعلام، متعلق بأزمة في الهند أو في الصين أو في سوريا وفلسطين أو في فرنسا، وغيرها من المناطق.

- ومنها: الكم الهائل من موجات الإفساد والتفاهة واللهو المنتشرة في الواقع، المؤدي إلىٰ شعور المصلح بالعجز أمام هذا القدر الكبير من الانحراف، بالإضافة إلىٰ التعارض والتناقض بين ما يؤمله المصلح وبين الواقع المحيط به، فالأمل في السقف والواقع في أصل البنيان.

- ومنها الانتشار الهائل للشبهات والأفكار المخالفة لأصول الإسلام وقواعده الكبرىٰ، وانتشار الجرأة علىٰ الطعن والتشكيك والاستهزاء بالثوابت وبث الإشكالات حولها.

- وغير ذلك من الأسباب والعوامل الخارجية الأخرىٰ.

المبحث الثاني:
كيفية التعامل مع مشكلة اليأس والإحباط
في أوساط العاملين والمهتمين

إنَّ حالة الانكسار التي أصابت كثيرًا من العاملين، وأدت إلىٰ انتشار اليأس والإحباط -وإن كانت مشكلة ينبغي السعي إلىٰ حلها- إلا أنها ليست شرا محضًا لا خير فيه، بل إننا إذا تأملنا في كثير من جوانبها سنجد أنها تحمل خيرًا كثيرا، بل هي -علىٰ الحقيقة- من أهم الفرص الصالحة، ومن أفضل المحطات التجديدية النافعة، إنْ أحسنَّا التعامل معها، وذلك لأمور متعددة، منها:

- أنَّ حالة الانكسار هذه فيها فرصة لمراجعة الأخطاء السابقة للعاملين، ومن ثم نقدها وتصحيحها؛ فالإنسان في حالة الصعود وتحقيق الأرباح والمكتسبات لا يُبصر أخطاءه ولا يتقبل النقد بسهولة، بينما يُصغي ويتواضع حال الهبوط والخسارة، ونحن اليوم نعيش مرحلة الهبوط هذه؛ فنحن أكثر قابلية للتصحيح إن أردنا.

- وكذلك، فإن حالة الانكسار فرصة للقرب بين العاملين، وإذابة الحواجز ومد أواصر التعاون، وذلك أن من أسباب اليأس والإحباط: (التوحش في محاربة الإسلام ونشر الفساد وشدة الظلم) وهذا التوحش كما أنه قد يولد اليأس فهو كذلك قد يوحد الصفوف، ويقرب بين المظلومين المستهدفين بهذا التوحش.

- ومنها: أن هذه المشكلات الكثيرة المولدة لليأس، ينبغي أن تُبعد العاملين عن الحلول السطحية التي كانوا يتبنونها في المراحل السابقة، وتدفعهم إلىٰ تقديم حلول عميقة الأثر، وإلىٰ صناعة معايير جديدة أكثر صلاحًا، وهي فرصة لبناء أجيال جديدة علىٰ نمط معياري استثنائي، يجمع بين خير ما سبق وزيادة ما لحق.

- ومنها كذلك: أن هذه الأزمات فرصة لاستخراج عزائم ذوي الهمم الصادقة، الذين يُقبلون وقت إدبار الآخرين، ويعملون حال الفتور، ويضحّون براحتهم وأوقاتهم وأعمارهم حال استئثار غيرهم بالدعة والإرفاه والنعيم، وهؤلاء هم الذين ينزل عليهم التوفيق والعون والمدد، إنْ هم أحسنوا واتبعوا، وهذه الأزمات من جملة الابتلاءات التي يميز فيها بين الخبيث والطيب، وبين الصادق والكاذب، والثابت والمتذبذب.

- ثم هي فرصة حقيقية لصدق الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ والإنابة إليه، والانكسار بين يديه، واستمداد العون منه، وهذا من أعظم الخير والبركة.

مفاتيح التعامل مع مشكلة اليأس والإحباط:

إن مشكلة اليأس والإحباط المنتشرة في كثير من الأوساط الإسلامية تتطلب علاجا متنوع الأشكال، متعدد الجهات، مختلف الموارد، وذلك لما سبق بيانه من أن هذه المشكلة متفاوتة الأسباب، متباينة المظاهر، متنوعة المستويات، عميقة التأثير علىٰ أصحابها؛ فلا يمكن أن يكون العلاج فيها مقتصرًا علىٰ التوجيهات والتقريرات النظرية وحسب -مهما كانت صحيحة- بل لا بد فيها من معالجة عملية.

المفتاح الأول: النظر إلىٰ جوانب الخير الكامنة في هذه المشكلة: وهو ما سبق بيانه في العنوان السابق، فهي ليست شرًّا محضا، ولا سوءًا خالصا، بل هي فرصة للعمل والثبات والعطاء والتجديد والمعالجة العميقة، فإذا أشعنا هذه النظرة التفاؤلية نكون قد أخذنا بسبب وثيق ومقدمة مهمة في التعامل مع هذه المشكلة.

المفتاح الثاني: بناء التصور الصحيح تجاه السنن الإلهية: من المعلوم أن السنن الإلهية متنوعة المتعلقات، فمنها ما هو متعلق بتدبير الكون وتسيير حركته، ومنها ما هو متعلق بالرزق والرعاية والنعمة، ومنها ما هو متعلق بالمجتمعات وسياقاتها الحضارية، ومنها ما هو متعلق بالدين وحَمَلته والتمكين لهم، وغير ذلك. ومن المهم لأي مشتغل بالسياق الإصلاحي أن يكون علىٰ وعي عميق بالسنن الإلهية بمختلف أنواعها، وخاصة تلك السنن المتعلقة بالنصر والتمكين، وبالهزيمة والفشل، وبإهلاك الظالمين، ونحو ذلك؛ وهذا له أثر كبير في الوقاية من اليأس والإحباط عند وقوع الأزمات، وله أثر كبير في انتشال المؤمن من أوهام سوء الظن بالله تعالىٰ، وعلىٰ الجهة الأخرىٰ فإن من فوائد معرفة السنن الإلهية ألا يستعجل المسلم الثمرة، ولا يعلق الآمال بالأوهام أو التوقعات غير المستندة علىٰ البراهين أو الأدلة، **وسأشير هنا إلىٰ ثلاث سنن** إشارة مختصرة ببيان بعض أدلتها لتكون عنوانا لغيرها من بقية السنن:

(١) سنة المدافعة بين الحق والباطل والمداولة: وهي السنة الإلهية القاضية باستمرار الصراع بين الحق والباطل، ودفع الباطل بالحق، ومداولة الأيام بين الناس، وهذا كله يقتضي وجود الآلام والمصاعب والعقبات والابتلاءات الشديدة التي يحصل بها التمحيص، وهذه بعض النصوص القرآنية الدالة علىٰ هذه السنة الإلهية: قال الله ﷻ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾. وقال جَلّ شأنه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ وقد علّق البقاعي تعليقا جميلا علىٰ هذه الآية فقال: (فتارة ينصر قويهم علىٰ ضعيفهم كما هو مقتضىٰ القياس، وتارة ينصر ضعيفهم -كما فعل في قصة طالوت- علىٰ قويهم، حتىٰ لا يزال ما أقامَ بينهم من سبب الحفظ بهيبة بعضهم لبعض قائمًا. ﴿لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ بأكل القوي الضعيف حتىٰ لا يبقىٰ أحد ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ تعالىٰ بعظمته وجلاله وعزته وكماله يكف بعض الناس ببعض، ويولي بعض الظالمين بعضا، وقد يؤيد الدين بالرجل الفاجر، علىٰ نظامٍ دبّره، وقانون أحكمه في الأزل؛ يكون سببا لكف القوي عن الضعيف، إبقاءً

لهذا الوجود على هذا النظام إلى الحد الذي حده)[١]. وقال ﷻ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ قال ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: (أي: لولا أنه يدفع عن قوم بقوم، ويكشف شر أناس عن غيرهم، بما يخلقه ويقدره من الأسباب، لفسدت الأرض، وأهلك القوي الضعيف)[٢]. فمِن هذه الآيات وأمثالها نعلم أنه لا يمكن في سنة الله أن يبقى الباطل إلى الأبد عاليا قويا، وأن الله يدفعه بالحق، فينصر أهل الحق ليدفعوا الباطل، وهذا يعني أهمية أن يشتغل أهل الحق ببناء أنفسهم على هذا الحق الذي ينصره الله تعالى، لأن من سنة الله كذلك: أن ينصر -سبحانه- من نصره، كما قال: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ وقال سبحانه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ﴾ وقال ﷻ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ وقال سبحانه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وقال سبحانه: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ﴾ وقال جلّ شأنه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ وفي الأحاديث والآثار نجد إثباتًا لهذا المعنى، ومن ذلك ما جاء في قول ورقة بن نوفل للنبي ﷺ: (لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا عودي)[٣] وكذلك قول هرقل لأبي سفيان بن حرب عن حالهم مع النبي ﷺ: (وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة)[٤]. وإذا كانت المدافعة بين الحق والباطل سنة ماضية، فإن هذا يترتب عليه شدةٌ وابتلاءات تلحق المؤمنين في سياق قيامهم بالحق وانتصارهم له، وهذا من جملة ما يبتلي الله به عباده المؤمنين حتى يُصدقوا بأفعالهم ما ادَّعوه بألسنتهم من الإيمان؛ ولذلك فإن من السنن الإلهية المتصلة بهذا السياق:

---

(١) تفسير البقاعي (١/ ٤٨١) ط: دار الكتب العلمية.

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٣) ط: الرسالة.

(٣) صحيح البخاري (٣) صحيح مسلم (١٦٠)

(٤) أخرجه البخاري (٧)

(٢) سنة الابتلاء والتمحيص للمؤمنين: وقد كثر التأكيد عليها في الوحي، ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ وقوله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وإذا تأمل المرء هاتين الآيتين يجد أنهما رافعتان للتوهم الذي يمكن أن ينشأ في عقول بعض المؤمنين، وظنهم أنهم بمجرد دخولهم في الإيمان قد ضمنوا الجنة دون امتحان وابتلاء يستخرج معدن الصدق فيهم، ولذلك نجد أن الله سبحانه يؤكد هذا المعنىٰ بالقسم عليه في الوحي؛ فقال سبحانه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وقال ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾. وتتبع هذا المعنىٰ في كتاب الله يطول، وهو ظاهر في كونه سنة مستمرة ماضية، أتت علىٰ السابقين، وأدركت اللاحقين، وهي سنة عظيمة متصلة بما قبلها من سنة التدافع، وتتعلق بها سنة أخرىٰ مهمة جدًا في السياق الإصلاحي، ألا وهي:

(٣) سنة التمييز بين الحق والباطل والطيب والخبيث: وذلك أن الله سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾، قال ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: (ما كان الله ليدع المؤمنين ﴿عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ من التباس المؤمن منكم بالمنافق، فلا يُعرف هذا من هذا ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾، يعنىٰ بذلك: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ﴾ وهو المنافق المستسرُّ للكفر، ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾: وهو المؤمن المخلص الصادق الإيمان. بالمحن والاختبار، كما ميَّز بينهم يوم أحد عند لقاء العدوّ عند خروجهم إليهم)[1]. وقال الطاهر بن عاشور رحمه الله: (وكان المنافقون يكتمون نفاقهم لما رأوا أمر المؤمنين في إقبال، ورأوا انتصارهم يوم بدر، فأراد الله أن يفضحهم ويظهر

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٦٢)

نفاقهم، بأن أصاب المؤمنين بقرح الهزيمة؛ حتىٰ أظهر المنافقون فرحهم بنصرة المشركين، وسجل الله عليهم نفاقهم باديا للعيان كما قال:

جزىٰ الله المصائب كل خير عرفت بها عدوي من صديقي)[1]

والحديثُ عن السُّنن الإلهيّة المتعلِّقة بالسياقات الإصلاحية يطول، وفيها سُنَنٌ أخرىٰ غير ما ذكرتُ، كسُنَّةِ الإبلاغ وإقامة الحجة، وسُنة الإمهال والإملاء للظالمين، وأخذهم وإهلاكهم، وغير ذلك، وهذا من أهم الأحاديث التي ينبغي علىٰ المصلحين العناية بها، والتأمل فيها، والالتفاف حولها، وهو من أعظم الأسباب الطاردة لليأس والقنوط والإحباط بإذن الله تعالىٰ.

المفتاح الثالث: إيجاد النماذج العملية المتجاوزة لإشكال اليأس والإحباط، وذلك أن الواقعين في مشكلة اليأس هم أقل الناس انجذابًا للشعارات والادعاءات النظرية التي تبشر بالمستقبل وتبث التفاؤل، وإنما الذي يعنيهم أن يروا علىٰ أرض الواقع ما يثبت لهم صدق الادعاءات، ويبشر بنهايات صالحة شريفة، ولذلك ينبغي ألا ينحصر عمل المصلحين في المعالجة المباشرة لمشكلة اليأس والإحباط عند من وقع فيها، وإنما بالعمل -كذلك- علىٰ البناء المتين في الأجيال الصاعدة التي لم تُصَب بالمشكلة بعدُ أو لم تتضرر منها تضررا كبيرًا، وهذا العمل والاهتمام بالأجيال الجديدة وبنائها علىٰ معايير استثنائية ورؤية آثار هذا البناء يؤدي إلىٰ إحياء الهمة وتجديدها في الأجيال السابقة، وذلك حين يرون مدًّا جديدا مفعما بالأمل، ونباتًا صالحا قويًا يتدفق حياة وهمة، وقلوبًا مؤمنة صادقة تحمل رسالة الإيمان من جديد؛ فهذا من شأنه أن يكون علاجًا ودواء لكثير من مواطن اليأس والإحباط.

المفتاح الرابع: العمل علىٰ تعزيز اليقين، وتثبيت أسس الإيمان، وتقوية أصول الإسلام الكبرىٰ في النفوس؛ وذلك أنَّ باب تعزيز اليقين لا تنحصر فائدته في معالجة الشبهات أو الوقاية منها، بل تمتدُّ ثمراته لتشملَ تقوية الجذر الروحي

---

(١) التحرير والتنوير (٤/ ١٧٧)

الإيماني العميق في القلوب، والذي من شأنه أن يمد صاحبه بالثبات أمام الأزمات، والهمة أمام العقبات، والعزيمة تجاه التحديات والمثبطات؛ وهل كان ثبات السحرة أمام التهديد الفرعوني المخيف إلا من قوة اليقين الذي أنشأه الله في قلوبهم بعد أن رأوا الآية عيانًا؟ وهل ثبت من ثبت من الصادقين إلا من استحضارهم للدار الآخرة ومشاهدتهم بقلوبهم نظر الرب إليهم؟ ألم يكن السببُ الباعثُ لثبات الثلة القليلة من جيش طالوت أمام جيش جالوت العرمرم إلا يقينهم بلقاء الله؟ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾، فهذا وأمثاله دالٌّ علىٰ أهمية اليقين في تثبيت أصحابه عند الشدائد والأزمات، وفي توليد العزائم عند المصاعب والنكبات.

المفتاح الخامس: بناء التصور الصحيح تجاه معاني «النجاح والفشل» في العمل الإصلاحي، وذلك أن سوء التصور المتعلق بالنجاح والإنجاز والثمرة قد يؤدي إلىٰ اليأس والإحباط حين لا يتحقق ما يؤمله العاملون من الثمرات، وقد جاء الوحي بتصحيح عجيب في هذا المعنىٰ، وأسسَ النبي ﷺ أصحابه علىٰ هذا التصحيح، فكان معيار النجاح والفشل لديهم واضحًا، فلم تكن الأزمات تُشكِّل بوابةً لليأس والإحباط بالنسبة إليهم، بل بعكس ذلك؛ كانوا يرون في المحن مِنحًا، وفي الشدائد فرصًا لزيادة الإيمان والتسليم، كما قال ﷻ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ فما الذي عناه الصحابة بقولهم ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾؟ قال أئمة التفسير: يعنون بهذا الوعد قوله تعالىٰ في سورة البقرة ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ أي: «هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب؛ ولهذا قال: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ﴾»[1]. ومن هذا يُعلَم أنّ التأسيس القرآني السابق

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٧٣٥)

هو الذي جعلهم ينظرون إلىٰ أزمة الأحزاب علىٰ أنها سبب لزيادة الإيمان وصدق الوعد والثبات، وهذا يدل علىٰ أهمية البناء الإيماني والتكوين المنهجي السابق للأزمات، حتىٰ إذا جاءت فإن المؤمن بيقينه يستدعي ما تعلمه سابقا لينزّله حينها، بعون الله وتوفيقه. ومن الأحاديث النبوية العجيبة في هذا السياق، ما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من غازية أو سرية تغزو فتغنم وتَسْلَم، إلا كانوا قد تعجلوا ثلثي أجورهم، وما من غازية أو سرية تخفق وتصاب إلا تم أجورهم)(١) فهذا الحديث يقلب معيار التقييم من الصورة الظاهرة للنجاح -التي هي النصر والغنيمة والسلامة- فيجعل لها من الأجر أقل ما للسرية الأخرىٰ التي فشلت في ظاهر الأمر فأخفقت وأصيبت في سبيل الله، ورجعت بالجراح والدماء دون غنيمة أو متاع.

المفتاح السادس: الإيمان بأنَّ الإسلام لا يمكن اجتثاثه من أساسه، وأنَّ العاقبة للمتقين، والاستبشار بالمبشرات النبوية المتعلقة بالإسلام في آخر الزمان.

المتأمل في الأحاديث النبوية الصحيحة يجد البشرىٰ الثابتة فيها بأن أصل الإسلام لا يمكن اجتثاثه ولو اجتمعت قوىٰ الأرض علىٰ ذلك، كما أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن ثوبان رضي الله تعالىٰ عنه أن النبي ﷺ قال: (إنَّ ربِّي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يُردّ، وإني أعطيتك لأمتك ألاَّ أهلكهم بسنة عامة، وألاَّ أسلط عليهم عدوًّا من سوىٰ أنفسهم فيستبيح بيضتهم -ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها-، حتىٰ يكون بعضهم يهلك بعضا، ويسبي بعضهم بعضا)(٢). وقد صدّق التاريخ هذه الأحاديث، وذلك أنه قد مر علىٰ الإسلام وأهله من الأزمات والنكبات الناتجة عن تسلط الأعداء ما لا يتخيل الإنسان معه صمود الإسلام ولا بقاءه، ولكنه يبقىٰ في كل مرة، بل ويعود أحيانا أشد قوة وأكثر صفاء، وهذا مما يمكن أن يعالج به شيء من إشكال اليأس

---

(١) صحيح مسلم (١٩٠٥)

(٢) صحيح مسلم (٢٨٨٩)

والإحباط، لأنه قد سبق في بيان مستويات اليأس والإحباط، أنّ منها: (اليأس التام المطلق من روح الله، وإساءة الظن به -سبحانه- وبدينه، وسقوط أدنىٰ معاني العزة بهذا الدين) ويدخل فيه: اليأس من صلاح حال الإسلام والمسلمين ولو في المستقبل، وهذا يُظهر أهمية اليقين ببقاء الإسلام وأهله، ومن أهم سبل تعزيز هذا اليقين الاستناد إلىٰ النصوص النبوية في هذا المجال. وهذا الموقف من المبشرات يختلف عن المواقف الخاطئة التي يتعامل بها البعض مع هذه النصوص، ولا بد من التعريج علىٰ شيء منها لأن لها تماسًّا مع قضية بوصلة الإصلاح؛ فمن هذه المواقف: موقف المبالغة في الاعتماد علىٰ نصوص المبشرات المتعلقة بآخر الزمان، وذلك عبر التسرع في تنزيل موضوعات هذه النصوص علىٰ الواقع تنزيلًا جازمًا دون منهجية علمية منضبطة، وهذا له مفاسد وسلبيات كثيرة، منها:

- ضمور الحس النقدي تجاه ثبوت هذه النصوص وفهمها، واعتبار القبول للمعنىٰ الذي يكمل صورة المشهد بغض النظر عن مدىٰ صحته.

- ضمور في إرادة العمل الجاد لإصلاح الواقع؛ اتكالًا علىٰ الصورة المتوهمة من المفاجآت الغيبية في تغير هذا الواقع.

- الولاء والمحبة والقبول لمن يتبنىٰ هذه الأقوال ولو كان عنده من الخلل العلمي والمنهجي ما عنده.

- التنزيل علىٰ واقع غير صحيح، ومن ثم العمل علىٰ ضوء هذا التنزيل الخاطئ، كما في حالات ادعاء المهدوية الكثيرة علىٰ مر التاريخ.

وعلىٰ النقيض من ذلك فإن من المواقف الخاطئة -كذلك-: موقف من يرىٰ أن استدعاء هذه النصوص إنما هو هروب من الواقع، وتعلق بالأحلام، وتخلٍّ عن المسؤولية، بل وتجاوزَ بعضهم إلىٰ مهاجمة النصوص في أصلها بإنكار ثبوتها واعتبارها من دسائس الأفكار النصرانية أو اليهودية في الإسلام، وهذا كله إما

بسبب ردة فعل معاكسة للغلو فيها، وإما بسبب الإمعان في الخطاب المدني الدنيوي الذي تضمر عنده الغيبيات، وتتضخم فيه الماديات.

والحق كامن بين هذين الطرفين، فنصوص المبشرات بتمكين الإسلام في آخر الزمان حق -في الجملة- لا ريب فيها، ومما ثبت منها: الإخبار بنزول عيسىٰ عليه السلام، وخروج المهدي، والانتصار علىٰ اليهود، وغير ذلك. واستدعاء هذه النصوص والاستبشار بها منهجٌ صالح إذا كان غير باعث علىٰ الاتكال وترك العمل وبذل الأسباب، وقد كان هذا المنهج معمولا به في القرون الأولىٰ، غير أن هذا الاستدعاء ينبغي ألا يتجاوز حده، ولا أن يتخلىٰ عن الضوابط المنهجية المتعلقة به، ومن الكتب المؤلفة في هذه الضوابط: كتاب للشيخ عبد الله العجيري، بعنوان (معالم ومنارات في تنزيل أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة علىٰ الوقائع والحوادث)، وكذلك فإن من ثمرات الاستدعاء الصحيح لهذه النصوص: الاطمئنان علىٰ شأن الإسلام من جهة العاقبة، وأنه لن يموت، ولن ينتهي، ولن يُستأصل، وهي ثمرة شريفة صالحة تغسل الحزن، وتزيل اليأس.

وسأذكر هنا من باب تتميم الفائدة، بعض النصوص المتعلقة بهذا المعنىٰ:

- ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ حتَّىٰ لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ، حتَّىٰ تَكُونَ السَّجْدَةُ الوَاحِدَةُ خَيْرًا مِنَ الدُّنْيَا وَما فِيهَا. ثُمَّ يقولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَاقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾»[1].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّىٰ يُقاتِلَ المُسلِمُونَ اليَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ المسْلِمُونَ حتَّىٰ يَخْتَبِئَ اليَهُودِيُّ مِن وراءِ الحَجَرِ والشَّجَرِ، فيَقولُ الحَجَرُ أوِ الشَّجَرُ: يا مُسْلِمُ يا عَبْدَ اللهِ هذا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعالَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٨) ومسلم (١٥٥)

فاقْتُلْهُ، إلَّا الغَرْقَدَ، فإنَّه مِن شَجَرِ اليَهُودِ»[1]. وهذا الحديث فيه عَلَم من أعلام النبوة تحققت أوائله وبوادره؛ وذلك أنَّ اجتماع اليهود اليوم في فلسطين، بعد شتاتهم وتفرقهم وضعف قوتهم علىٰ مرِّ التاريخ إنما هو مقدمة لهذا القتال -والله أعلم-، وذلك أنه لا يتصور قتالٌ كالمذكور في النص النبوي الشريف مالم تكن هناك قوة واجتماع، وهذا لم يتحقق بعد إجلاء اليهود زمن عمر ﵁ إلا في هذا العصر.

- وعن علي ﵁ عن النبي ﷺ قال: «لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدَّهْرِ إلَّا يَوْمٌ لَبَعَثَ اللهُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَيْتَي يَمْلَؤُهَا عَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ جَوْرًا»[2]. وعن عبد الله بن مسعود ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا حَتَّىٰ يَمْلِكَ العَرَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي»[3] ومن أصح ما ورد في الباب حديث أبي سعيد رضي الله تعالىٰ عنه، عن النبي ﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتىٰ تمتلئ الأرض ظلمًا وعدوانًا) قال: (ثم يخرج رجل من عترتي، أو من أهل بيتي، مَن يملؤها قسطًا وعدلًا كما ملئت ظلما وعدوانًا)[4] وعن أبي سعيد ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «مِنْ خُلَفَائِكُمْ خَلِيفَةٌ يَحْثُو المالَ حَثْيًا، لا يَعُدُّهُ عَدَدًا»[5]. وهذا النص لم يتحقق بعدُ علىٰ خليفة من الخلفاء السابقين، وحَمَله العلماء علىٰ المهدي لوجود نصوص أخرىٰ مصرحة بذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٩٢٦) ومسلم (٢٩٢٢)

(٢) أخرجه أبو داوود (٤٢٨٣) وهو من طريق فطر بن خليفة عن القاسم بن أبي بزة عن أبي الطفيل عن علي، وإسناده لا بأس به.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٢٣٠) وكثير من أصحاب السنن والمسانيد من طُرُق عن عاصم عن زر عن عبد الله، وصححه الترمذي وغيره، وفي بعض طرقه زيادات في الألفاظ جُلّها غير محفوظ، والله أعلم، والعُمدة علىٰ ما اتفق عليه السفيانان عن عاصم.

(٤) أخرجه أحمد (١١٣١٣)

(٥) أخرجه مسلم (٢٩١٤)

- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تَزالُ طائِفَةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلُونَ علَىٰ الحَقِّ ظاهِرِينَ إلىٰ يوم القِيامَةِ». قال: «فَيَنْزِلُ عِيسَىٰ ابنُ مَرْيَمَ ﷺ فيَقولُ أمِيرُهُمْ: تَعالَ صَلِّ لَنا، فيَقولُ: لا، إنَّ بَعْضَكُمْ علَىٰ بَعْضٍ أُمَراءُ تَكْرِمَةَ اللهِ هذِه الأُمَّةَ»(١).

- وعن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ» وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ، يَقُولُ: «قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ»(٢).

المفتاح السابع: ظهور بذور معالم تجديدية (جزئية، شمولية) في مجالات مختلفة في السياق الإسلامي:

ينبغي ألّا يعميَنا انهماكُنا في متابعة إشكالات الواقع عن إبصار حالة التصحيح والتجديد والأمل التي بدت بوادرها في مجالات متنوعة وسياقات مختلفة في بعض صور الواقع الإسلامي؛ نتيجةً للمراجعات النقدية الصحيحة للتجارب السابقة من جهة، ولتنامي الإشكالات الحادة الموجّهة لأصل الإسلام وثوابته من جهة أخرىٰ، وهذه الحالة التصحيحية هي معقد الأمل، ومربط الفرس، ولا أعني بها تلك التي اتجهت إلىٰ الحداثة والعلمانية، واتخذت مراجعة أصول الإسلام سبيلًا، والتشكيكَ في التراث الإسلامي طريقًا، وإنما تلك التي رجعت إلىٰ مرجعية الوحي، وتحلقت حول كتاب الله استهداء به وتفقهًا وتبصرًا، واعتنت بسيرة النبي ﷺ وسنته، وأخذت أحسن ما في تراث علماء المسلمين وميراثهم، مع اهتمامهم بالواقع، ووعيهم التام به وبمستجداته، وبصيرتهم بسبيل

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٦)

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٩٥٧)

المجرمين وطرائقهم في محاربة الإسلام ووسائلهم في إضعافه، وإدراكهم للمؤثرات الفكرية الكبرىٰ المكوّنة للواقع، وهذا مفتاح مهم في التعامل مع مشكلة اليأس والإحباط، وهو ولله الحمد واقعي يجده من يوفقه الله لحسن قراءة الواقع.

المفتاح الثامن: النظر إلىٰ مكامن القوة للضعفاء من مصلحي هذا الزمن.

- باعتبار اعتقاد المصلح وإيمانه
- باعتبار قوة المضامين
- باعتبار المرحلة الزمنية

إذا كان المصلحون اليوم ضعفاء في موازين القوىٰ المادية، فإنهم يمتلكون من جوانب القوة المعنوية ما لا ينبغي أن يستهينوا بها، ولا أن يعدوها أمرًا ثانويًا جانبيّ التأثير علىٰ الواقع، أو أنها لا يمكن أن تؤدي إلىٰ نتائج حقيقية علىٰ أرض الواقع ولو في المستقبل، بل هي أمور عميقة التأثير عظيمة المعنىٰ كبيرة القيمة، وسأذكر هنا بعض هذه الجوانب بحسب اعتباراتها:

أولًا: باعتبار اعتقاد المصلح وإيمانه:

١- الإيمان التَّام بأن المصلح -المتبع لهدي الأنبياء، والسائر علىٰ سبيل النبي ﷺ في الدعوة إلىٰ الله- يسير في طريق لا خسارة فيه بحال من الأحوال، فمهما كانت النتائج التي يصل إليها، ولو انتهت بقتله أو نفيه، فأجره علىٰ الله ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾، والاعتقاد بهذا المعنىٰ والإيمان به يجعل المصلح عصيًّا علىٰ الانكسار مهما كانت الظروف والتحديات الخارجية المحيطة به.

٢- الإيمان بأن الذي يتولىٰ هذا الدين إنما هو الله ﷻ، وأنّ المطلوب من المصلح أن يجتهد لتحقيق موافقة مراد الله في دينه لينال ولاية الله تعالىٰ بذلك، ثم الإيمان بأن ما سوىٰ ذلك من خطوات ومراحل وتخطيط إنما هي أسباب أُمرنا

بتحقيقها وإتقانها وإجرائها علىٰ خير الوجوه، وأن نتائجها علىٰ الله وحده. وهذه العقيدة مصدر آخر لقوة المصلح في باطنه وداخله، ومن جميل ما قاله فريد الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ في هذا المعنىٰ: (ولاية الله باب الخروج الأوحد بالعمل الإسلامي من أزمته، وباب الوصول به إلىٰ غايته، وما زاده العدول عن هذه الوجهة إلا خبالا. إن العمل الإسلامي الذي لا يتولاه الله لا يصل الغاية أبدا؛ فإذا تولىٰ الله عبدا أو قوما؛ بما حققوا من تجرد لله وإخلاص له وحده دون سواه، كفاهم كل شيء. ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ تلك قاعدة كلية استقرائية تجري مجرىٰ القوانين الراسخة في الكتاب والسنة، ويكفيك منها قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ وَلِـۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾. ومن هنا قرر سبحانه أن سرَّ وراثة الأرض قَدَرٌ ثابت لا يتغير، فجعله في «عباده الصالحين» خاصة! وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَـٰذَا لَبَلَـٰغًا لِّقَوْمٍ عَـٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾)(١).

ثانيًا: باعتبار قوة المضامين:

ينْبغي أنْ ينطلق المصلح في دعوته من اليقين بأن الإسلام الذي يدعو إليه ويستمد منه هو الحق المطلق الذي يستند إلىٰ أعلىٰ البراهين والبيّنات، وأن هذا الحق هو أشرف ما ينبغي أن يعيش به الإنسان ويدعو إليه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وأنّ الصلاح في الأرض إنما يكون بهذا الحق الذي تفسد بنقيضه كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) الفطرية: ٤٥

وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ وأنَّ ما يناقض هذا الحق من الباطل فهو أمر في غاية السوء والفساد، وأنه لا يستند إلىٰ البرهان والدليل الصحيح وإنمّا إلىٰ الظّنون والتخرصات والأوهام: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، فإذا استطاع المصلح أن يُبرز هذا الحق ويبينه، ويُعري الباطل ويبين هشاشته، ويقيم الحجة علىٰ ذلك؛ فهذا من أهم صور النصر التي ينبغي أن يأخذها المصلح بعين الاعتبار، حتىٰ ولو بقي الباطل مستعليا بقوته المادية بعد ذلك، وهذا لا يلغي -بطبيعة الحال- أهمية التمكين والانتصار المادي، ولكنه يبين أهمية الانتصار المعنوي كذلك. ومن يتأمل في كتاب الله يجد شواهد كثيرة لهذا المعنىٰ تبيّن قوة الحق في ذاته ولو كان صاحبه وحيدًا أو ضعيفًا، فمن ذلك ما جاء في قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وهذا الحوار عجيب في تصوير ضعف الباطل في ذاته، وفي بيان انتصار الحق بقوته في ذاته، فإبراهيم عليه السلام انتصر -حقيقةً- علىٰ قومه حين نُكسوا علىٰ رؤوسهم، حيث ظهر الحق وعلا، وانكشف الباطل بضعفه وهشاشته، ثم مهما كانت النتائج المادية بعد ذلك فهي لا تؤثر علىٰ هذه الحقيقة. ومن أمثلته كذلك: الحوار الذي جرىٰ بين موسىٰ عليه السلام وفرعون، وفيه ظهر عجز فرعون وإفلاسه واستناده إلىٰ منطق التهديد في مقابل الحجة: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ

حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ وهـــــذا انتصار للحق ازداد وضوحًا بعد ذلك حين أُلقي السحرة ساجدين؛ فلا يضير الحق بعد هذا الانتصار أن يموت أهله أو أن يكثر أتباع الباطل، وهذه نقطة قوة عظيمة إن تأملها المصلح استند إلىٰ ركن شديد. ومن الأمثلة علىٰ هذا المعنىٰ كذلك: قصة الغلام والساحر والملك حين قال له الغلام: (إنك لست بقاتلي حتىٰ تفعل ما آمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني علىٰ جذع، ثم خذ سهما من كنانتي، ثم ضع السهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع الناس في صعيد واحد، وصلبه علىٰ جذع، ثم أخذ سهما من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله رب الغلام. ثم رماه فوقع السهم في صدغه، فوضع يده في صدغه، في موضع السهم، فمات، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام. فأتي الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر، قد والله نزل بك حذرك، قد آمن الناس. فأمر بالأخدود في أفواه السكك فخدت، وأضرم النيران، وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها، أو قيل له: اقتحم. ففعلوا حتىٰ جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمه اصبري، فإنك علىٰ الحق)[1] ومع أن أهل الحق في هذه القصة ماتوا عن بكرة أبيهم حرقًا بالنّار إلا أنهم فازوا فوزًا عظيما، كما ذكر الله في قصتهم في سورة البروج ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ وانتصر الحق هنا من حيث هو في ذاته، وانتصر أهله من جهة ثباتهم عليه، وخلّد الله ذكرهم في كتابه في سورة البروج.

فالحق الذي أنزله الله ورضيه فيه قوة في ذاته، فإذا أُوصل إلىٰ الفطر السليمة مِن حمَلَته الصالحين تلقته القلوب بالقبول، والباطل الذي يكرهه الله

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٣٠٠٥)

ويسخطه فيه هشاشة في ذاته، فإذا أبصرته القلوب السليمة كما هو دون زُخرِفه ودون تهديدات أهله وإغراءاتهم نفرت منه القلوب وكرهَتْه. وبناء علىٰ ذلك؛ فإذا رأيت الباطل والشر يروج في زمن ما، والحقَّ يضمر وينزوي؛ فإن ذلك ليس لضعف الحق في ذاته، ولا لقوة الباطل في ذاته، وإنما بسبب أمور خارجة عنهما، ومن أهمها ما يلي:

١- عمل أهل الباطل في تشويه الحق وحَمَلته؛ فلا تراه النفوس -بسبب ذلك- علىٰ حقيقته في ذاته وإنما كما صوّره أعداؤه، ولا ترىٰ حقيقةَ المصلحين ولا صالح أحوالهم وإنما تبصر الصورة التي رسمها الباطل وإعلامه وكهنته وشوهوا بها الحق وأهله، ومن سنة أهل الباطل: الطعن في الحق عبر إسقاط حَمَلته، كما قال فرعون في شأن موسىٰ عليه السلام: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ وقال عنه: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡ﴾ وقال عنه: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ وهذا ديدن كل المجرمين في كل زمن إلىٰ اليوم، كما قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾

٢- فساد الفِطَر والقلوب التي تتلقىٰ الحق، وكثرة الحُجُب المتراكمة عليها من أفكار خاطئة وثقافات فاسدة ومعايير باطلة وأهواء مستولية، فلا تلين إلا إلىٰ ما يناسب انتكاسها، كما ثبت في صحيح مسلم[1] عن حذيفة مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ واصفًا القلب الذي أُشرِب الفتن: (كالكُوز مجخّيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرًا) وقوله مجخيا: أي مائلًا.

٣- فساد حَمَلة الحق وذلك بمخالفتهم لمقتضىٰ الحق الذي يحملونه؛ فيكون حالهم فتنة للناس، بأن يدعوا إلىٰ شيء ثم يكونوا أول المخالفين له، وهذا من أعظم الظلم للحق، كما قال ابن تيمية عن حَمَلة العلم ومبلغي الدين: (وكذلك كذبهم في العلم من أعظم الظلم، وكذلك إظهارهم للمعاصي والبدع

---

(١) (٢٣١)

التي تمنع الثقة بأقوالهم، وتصرف القلوب عن اتباعهم، وتقتضي متابعة الناس لهم فيها = هي من أعظم الظلم، ويستحقون من الذم والعقوبة عليها ما لا يستحقه من أظهر الكذب والمعاصي والبدع من غيرهم؛ لأن إظهار غير العالم -وإن كان فيه نوع ضرر- فليس هو مثل العالم في الضرر الذي يمنع ظهور الحق ويوجب ظهور الباطل)[1].

٤- سطوة أهل الباطل وجبروتهم علىٰ الناس بإكراههم علىٰ الباطل علىٰ ضوء قانون فرعون: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ ولكن هذه السطوة لا تجعل الباطل حقا في أعين الناس إلا إذا فسدوا وفسقوا، كما قال ﷻ في شأن فرعون: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾.

ولكي يحقق المصلحون هذا المعنىٰ (قوة المضامين) فلا بد لهم من مراعاة هذه الأمور:

أولًا: أن تكون المضامين التي ينطلقون منها ويدعون إليها معبرة عن أساس الحق وأصله ومركزياته، وكاشفة عن صُلبه وجوهره لا عن فروعه وأطرافه فقط، فينبغي أن تكون العناية بأساس العبودية لله تعالىٰ والاستسلام له والتوكل عليه، والاستمساك بمرجعية الوحي.

ثانيًا: مدىٰ قدرة المصلحين علىٰ البيان عن هذا الحق، والكشف عن حُجته، وحُسن تبليغه، ومدىٰ قدرتهم علىٰ الدفاع عنه ودحض اعتراضات الباطل وأهله.

ثالثًا: مدىٰ عناية المصلحين بالكشف عن سبيل المجرمين، وضعف باطلهم، وإفلاسه، وفساد مآلاته.

قال فريد الأنصاري رحمه الله: (إن قضية الأمة اليوم في هذه المرحلة التاريخية ليست في البرامج التفصيلية بالدرجة الأولىٰ -التي هي فقه مرحلة التمكين للإسلام

(١) الفتاوىٰ، المجلد ٢٨

والمسلمين المبشر به في القرآن وفي سنة سيد المرسلين-، هذه قضية الأجيال اللاحقة، وهي من حيث طبيعتها العلمية ليست ذات خطر عظيم. القضية اليوم هي أن يكون الناس مسلمين حق مسلمين لله رب العالمين، كيف وهذه الأيديولوجيات اللادينية ما تزال تنازع الدين وأهله مشروعية التوجه والوجود في كثير من بلاد العرب والمسلمين)[1].

ثالثا: باعتبار المرحلة الزمنية:

إن هذه المرحلة الزمنية التي نعيشها في هذا العقد الأخير وإن بدت في غاية السوء والإشكال والشر، إلا أن فيها جوانب لقوة الحق ينبغي استثمارها من جهة المصلحين، ومن ذلك:

١- ازدياد صور الباطل والفساد إلىٰ حدّ المصادمة الوقحة لأساس الفطرة، وهذا كما أنه جانب شر إلا أنه جانب قوة من جهة أن الله تعالىٰ يخلق النور في أوقات اشتداد الظلام.

٢- كثرة الظلم وشدة درجته واتساع مساحة هيمنته، وهذا سبب لتعجيل العقوبة علىٰ الظالمين، وسبب لتعطش الناس إلىٰ العدل وانتظارهم له، وهو ما سيحققه الله تعالىٰ لهذه الأمة في الأفق القريب -بلا أدنىٰ شك ولا ريب-.

٣- وجود حالة اليأس والإحباط في كثير من السياقات الإسلامية بسبب الانكسار والإخفاق، وهذا يؤدي إلىٰ مراجعة الأخطاء، والقرب بين العاملين، وتعميق الحلول، وصناعة آفاق جديدة.

٤- تخلي كثير من أهل العلم وأصحاب القدرة عن دورهم وواجبهم، مما يُبشر بحالة استبدال يأتي الله فيها بقوم ينصر بهم دينه.

٥- ظهور بوادر وعي شبابي بواقع الأمة ومشكلاتها، مصحوب باهتمام بالدين وقضاياه.

---

(١) [الفطرية: ٤٠-٤١] بتصرف

٦- التنوع الكبير في الشرائح المهتمة بالعلم والدين والعمل من حيث: (التخصصات - الجغرافيا - الأعمار - التوجهات)

المفتاح التاسع والأخير من مفاتيح التعامل مع مشكلة اليأس): إمكان تغير موازين القوىٰ:

إن من أكبر المؤثرات السلبية التي تجعل حالة اليأس مستحكمة: مقدار الهيمنة الشمولية من القوىٰ الكبرىٰ في العالم، وقد يغفل الإنسان وهو ينظر إلىٰ هذا الواقع عن أن هذه القوىٰ إنما هي ضمن نطاق السياقات الحضارية البشرية المتسمة بالحركة الدائمة والتقلب المستمر المحكوم بالسنن الإلهية، وأن الله سبحانه هو مالك الكون المدبر له والمهيمن عليه، وأنّ النقص في حملة الحق هو الإشكال الأكبر في هذه المعادلة، وأما الموازين الكبرىٰ للقوىٰ فهي وإن كانت مؤثرا كبيرا علىٰ الواقع علىٰ ضوء قانون الأسباب المعروف، إلا أنها ليست صورة دائمة لا يمكن تغير ملامحها كما يسيء البعض الظن بربهم بظنهم أن خارطة الموازين خارطة قاهرة يستحيل تبدلها أو تغيرها[١].

ملامح المرحلة القريبة القادمة من حيث اليأس والأمل:

إن الحديث عن أهمية التفاؤل وضرورة اليقين بحسن عاقبة الإسلام والمسلمين لا يعني أن ما هو قادم في القريب سيكون أفضل حالًا مما مضىٰ، بل قد يكون أشد سوءًا علىٰ كثير من الأصعدة، فالواقع فيه مقدّماتٌ سيئة لم تكتمل نتائجها بعد، بل لم تظهر إلا بعض أطرافها؛ وهذا يعني أننا ننتظر موجة من النتائج والآثار السلبية الكبيرة القادمة، فنحن نعيش اليوم حالة من التوحش

---

(١) وها نحن اليوم نعيش بعض الأحداث التي قد تؤول إلىٰ شيء من التغيرات علىٰ المستويات الكبرىٰ مثل الحرب الروسية الأوكرانية وتداعياتها، وقد لا تؤول إلىٰ تغييرات كبرىٰ أيضا وتكون حربا غير مؤثرة علىٰ السياقات الدولية الكبرىٰ، ولكن الفكرة التي أريد إيصالها أن القوىٰ العظمىٰ عاشت أزمة حقيقية نتيجة هذه الحرب، وامتدت الظنون والتحليلات من جميع الأطراف إلىٰ آفاق سلبية واسعة، وخرجت تصريحات مهددة بحرب نووية تقضي علىٰ الأخضر واليابس، وهذا كله في غضون مدة يسيرة من بداية الأزمة.

غير المسبوق في محاربة المظاهر الإسلامية -حتىٰ تلك الصور الرمزية للإسلام وقضاياه والتي لم يسبق لها أن حورِبَت قبل ذلك حتىٰ في فترة القومية العربية واليساريين في منتصف القرن العشرين، كقضية فلسطين-، وهو توحش مصحوب بنشر واسع لأفكار الشذوذ والفاحشة والنسوية، وإذابة الكُتل المفاهيمية العقدية التي تميز الإسلام عن غيره بحيث يكون هو واليهودية والنصرانية دينًا إبراهيميا واحدًا يغيب فيه معنىٰ (الفرقان)، مع حالة واسعة من صناعة التفاهة ونشر المعايير الزائفة، إلىٰ غير ذلك من المقدمات المنتشرة في الواقع والتي لم تكتمل نتائجها بعدُ كآثار الحروب التي اشتعلت في السنوات الماضية في المنطقة العربية.

وهذا كله لا ينبغي أن يقودنا إلىٰ اليأس، وإنما للاستعداد والتهيؤ النفسي والمادي من جهة الأخذ بالأسباب، وهذا يضبط قضية التفاؤل بحيث لا تكون خيالية بعيدة عن الواقع؛ إذ إن التفاؤل الحق هو الذي يستصحب المشكلات ولا يهرب منها، وأما التفاؤل المثالي فهو الذي يسير في عالم متخيل، غير متصل بالواقع ومشكلاته.

ومع كل ما يبدو للناظر إلىٰ ظاهر هذه المرحلة من يأس وقنوط وإحباط وانسداد أفق، وأنه لا أمل فيها، ولا ضياء يلوح في سمائها، وأنها مرحلة إلقاء أدوات الحرث والبذر فرارًا من الحريق الهائل الذي يلتهم الأرض ويهلك الحرث والنسل، إلا أن حقيقة الحال هو أننا نعيش مرحلة هي من أثمن المراحل من حيث فرص البناء والاستعداد والتهيؤ لمستقبل مشرق لهذا الدين العظيم، ويمكن للناظر ذي البصيرة أن يرىٰ في ثناياها تباشير الصباح وبذور الفرج والأمل.

وهذه المرحلة مرحلة حرجة إلىٰ أبعد مدىٰ، يمكن لها أن تدخلنا في رحلة تيه طويلة أخرىٰ، وتسقطنا في بئر مظلمة لا قاع لها، كما يمكن لها أن تكون محطة انتقال تأسيسية لمستقبل أكثر صلاحا واستقامة وأعلىٰ شأنا من الماضي القريب، طالما روعيت الشروط المستمدة من معالم الوحي، ومن أنوار المدرسة النبوية، مع وعي بالواقع، ومراعاة للسنن، واتخاذ للأسباب.

ومع أن المؤمن ينطلق من عقيدة راسخة بأنه ليس مسؤولا عن تحقيق النتائج -إذا أدىٰ ما عليه بإحسان وإتقان-، وأنّه مطالب بالبذل والاستقامة والثبات ولو كان مقتضىٰ ذلك أن يفنىٰ وهو ثابت علىٰ الدين، كما كان حال أصحاب الأخدود، وأنَّ من الأنبياء من يأتي يوم القيامة وليس معه إلا القليل من الأتباع؛ إلا أن هناك -مع ذلك- ما يدعو للتفاؤل والاستبشار بتحقيق ثمرة العمل الإصلاحي، وذلك عبر معطيات متعددة ومتنوعة، يهدي الله إليها من أنار بصيرته، وثبت قلبه.

وفي الجملة فإننا -والله أعلم- مقبلون علىٰ مرحلة جديدة من المدافعة يكون الحق فيها أكثر وضوحًا وتميزا، وحملتُه أكثر ربانية، ويكون الباطل فيها أكثر شرًّا وعنادا وإسرافًا.

جدوى الإصلاح

مشكلة اليأس والإحباط وفقدان الأمل تجاه الإسلام

مستويات اليأس والإحباط الموجودة في الواقع

١- اليأس من إمكان الإصلاح المُجدي، والقناعة بأنَّ صور الإصلاح الممكنة إنما هي في الفروع غير المؤثرة، وهي التي لا تتماس مع المشكلات الكبرى في هذه المرحلة.
٢- اليأس من جدوى الإصلاح (مطلقاً) في هذه المرحلة، ولو في بعض الأبواب والفروع، والقعود عن العمل، وانتظار المدد الإلهي مع عدم تطلب أسباب هذا المدد.
٣- اليأس من جدوى اعتبار الإسلام مكوناً أساسيا في الإصلاح، وعزله عن أن يكون له أثر في الإصلاح والنهضة، والتعلق بالمنتجات الإنسانية الخالصة، والتجارب النهضوية البشرية، دون احتفاء حقيقي بالوحي وما جاء فيه من إرشاد وهداية للمسلم في مثل هذه الأزمات.
٤- اليأس التام المطلق من روح الله، وإساءة الظن به -سبحانه- وبدينه، وسقوط أدنى معاني العزة بهذا الدين والانتماء إليه.

مظاهر اليأس والإحباط

١- الانكفاء عن مجالات الإصلاح -بكل مستوياته- والاكتفاء بالإطار الثقافي.
٢- الانكفاء عن مجالات الإصلاح المجدية، والاكتفاء بصور جزئية من الإصلاح الهامشي الرغيد الذي يمكن في الواقع تحقيق ما هو أعلى منه.
٣- التقليل من قيمة الجهود التي يبذلها المصلحون في الوقت الحالي، وعدم اعتقاد أي جدوى نفع في أي سياق إسلامي.
٤- النظرة المتشنجة تجاه التجارب الإسلامية السابقة برموزها ومختلف سياقاتها، وعدم الاعتدال في النقد، وإغفال أدنى قدر من الإنصاف والنظر للمحاسن.
٥- التركيز المبالغ فيه على الوسائل والأدوات والمهارات، مع الإغفال للمبادئ والثوابت والمرتكزات.
٦- دوام التقلب بين المناهج والاتجاهات وعدم الثبات على منهجية واحدة مثمرة.
٧- الغلو في الدين.
٨- تبني اتجاهات فكرية مخالفة لثوابت الشريعة، تتصل بالتوجهات الحداثية والعلمانية أو "الليبرواسلامية" وما شابهها.
٩- السقوط القيمي والأخلاقي وعدم الاستعداد لأي قدر من التضحية والثبات، والجنوح إلى القاع.

أسباب اليأس والإحباط

عوامل داخلية

١- التفسير الخاطئ لمعاني (النصر والهزيمة، والفوز والخسارة، والنجاح والفشل) وذلك بأن تُربط معاني النصر والفوز والنجاح بتحقيق المكتسبات الملموسة، وتربط معاني الخسارة والفشل بعكسها، وعدم اعتبار الثبات على حقائق الإسلام فوزاً بحد ذاته.
٢- استعجال الثمرة والمبالغة في التبشير بها دون النظر إلى السنن الإلهية ومعطيات الواقع.
٣- كثرة الخلافات بين العاملين، وشدة التفرق بينهم، والتحزب المذموم الذي يُبذل فيه الولاء للجماعة والحزب فوق بذله لرابطة الإسلام العامة.
٤- نقص الوعي بالواقع المتعلق بالأعداء وقوتهم وسبل كيدهم ومكرهم، وعدم توقع ما يمكن أن يفعلوه في محاربة الواقع الإسلامي.
٥- ضعف البناء الإيماني التزكوي، وكذلك ضعف البناء الإيماني البرهاني المتعلق بـ: (أصول الإسلام وثوابته).
٦- ضعف البناء الشرعي المحكم، وعدم إتمام مراحله، بل التوقف قبل التمكّن وقبل أن يصبح المرء رقماً صعباً، واستعجال إغراق الشباب في الأعمال الدعوية والإصلاحية قبل الاستواء وتمام البناء.
٧- طبيعة المواقف المُخيّبة من بعض الرموز الإسلامية والقدوات الشرعية، والتي تتمثل في التخاذل الشديد والانسحاب التام في الأزمات، أو في مطاوعة الموجة الضاغطة عبر التبرؤ من المواقف الصحيحة السابقة، وتبني خطاب يتماشى مع الجو العام دون تقديم المستندات الشرعية لهذا التغير والتحول.

عوامل خارجية

١- التوحش الشمولي في محاربة الإسلام والعاملين له في هذه المرحلة، وذلك على مختلف المستويات وبتنوع الوسائل والأساليب.
٢- التتابع والتصاعد والتسارع في الأزمات والنكبات في رقعة وجود المسلمين الواسعة على الخارطة.
٣- الكم الهائل من موجات الإفساد والتفاهة واللهو المنتشرة في الواقع، المؤدي إلى شعور المصلح بالعجز أمام هذا القدر الكبير من الانحراف، بالإضافة إلى التعارض والتناقض بين ما يؤمله المصلح وبين الواقع المحيط به.
٤- الانتشار الهائل للشبهات والأفكار المخالفة لأصول الإسلام وقواعده الكبرى، وانتشار الجرأة على الطعن والتشكيك والاستهزاء بالثوابت وبث الإشكالات حولها.

كيفية التعامل مع مشكلة اليأس والإحباط في أوساط العاملين والمهتمين

مفاتيح التعامل مع مشكلة اليأس والإحباط

النظر إلى جوانب الخير الكامنة في المشكلة

١- فرصة لمراجعة الأخطاء السابقة للعاملين، ومن ثم نقدها وتصحيحها.
٢- فرصة للقرب بين العاملين، وإذابة الحواجز ومد أواصر التعاون بينهم.
٣- الابتعاد عن الحلول السطحية وتقديم حلول عميقة الأثر.
٤- فرصة لاستخراج عزائم ذوي الهمم الصادقة وتمحيص المؤمنين والتمييز بين الخبيث والطيب.
٥- فرصة حقيقية لصدق الرجوع إلى الله تعالى والإنابة إليه.

بناء التصور الصحيح تجاه السنن الإلهية

١- سنة المدافعة بين الحق والباطل والمداولة.
٢- سنة الابتلاء والتمحيص للمؤمنين.
٣- سنة التمييز بين الحق والباطل والطيب والخبيث.
٤- سنة الإبلاغ وإقامة الحجة.
٥- سنة الإمهال والإملاء.
٦- سنة إهلاك الظالمين.

إيجاد النماذج العملية المتجاوزة لإشكال اليأس والإحباط

العمل على تعزيز اليقين، وتثبيت أسس الإيمان، وتقوية أصول الإسلام الكبرى في النفوس

بناء التصور الصحيح تجاه معاني "النجاح والفشل" في العمل الإصلاحي

الإيمان بأنَّ الإسلام لا يمكن اجتثاثه من أساسه، وأنَّ العاقبة للمتقين، والاستبشار بالمبشرات النبوية المتعلقة بالإسلام في آخر الزمان

ظهور بذور معالم تجديدية (جزئية، شمولية) في مجالات مختلفة في السياق الإسلامي

النظر إلى مكامن القوة للضعفاء من مصلحي هذا الزمن

باعتبار اعتقاد المصلح:
١- الإيمان التام بأن المصلح المتبع لهدي الأنبياء يسير في طريق لا خسارة فيه بحال من الأحوال مهما كانت النتائج.
٢- الإيمان واليقين التام بأن الذي يتولى هذا الدين هو الله، وأنَّ المطلوب من المصلح أن يجتهد لتحقيق موافقة مراد الله في دينه لينال ولاية الله تعالى بذلك، ثم الإيمان بأن ما سوى ذلك من خطوات ومراحل وتخطيط إنما هي أسباب أمرنا بتحقيقها وإتقانها وإجرائها على خير الوجوه، وأن نتائجها على الله وحده.

باعتبار قوة المضامين:
١- أن تكون المضامين التي ينطلق منها المصلح ويدعو إليها معبرة عن أساس الحق وأصله ومركزياته، وكاشفة عن صُلبه وجوهره لا عن فروعه وأطرافه فقط.
٢- مدى قدرة المصلحين على البيان عن هذا الحق، والكشف عن حُجته، وحُسن تبليغه، ومدى قدرتهم على الدفاع عنه ودحض اعتراضات الباطل وأهله.
٣- مدى عناية المصلحين بالكشف عن سبيل المجرمين، وضعف باطلهم، وإفلاسه، وفساد مآلاته.

باعتبار المرحلة الزمنية:
١- ازدياد صور الباطل والفساد إلى حدّ المصادمة الوقحة لأساس الفطرة.
٢- كثرة الظلم وشدة درجته واتساع مساحة هيمنته.
٣- وجود حالة اليأس والإحباط في كثير من السياقات الإسلامية.
٤- تخلي كثير من أهل العلم وأصحاب القدرة عن دورهم وواجبهم، مما يُبشر بحالة استبدال.
٥- ظهور بوادر وعي شبابي بواقع الأمة ومشكلاتها، مصحوب باهتمام بالدين وقضاياه.
٦- التنوع الكبير في الشرائح المهتمة بالعلم والدين والعمل.

إمكان تغير موازين القوى

القسم الثاني

بوصلة الإصلاح

المبحث الأول
قلق الوجهة الإصلاحية

من جُملة التساؤلات التي تشغل كثيرا من الشباب المهتمين بشأن الإسلام اليوم: سؤال الوجهة وصحة الطريق: (أي الطرق أصح؟ وأي اتجاه من اتجاهات المصلحين أقرب للصواب؟ وكيف أثق أني علىٰ طريق ومنهج يرضي الله تعالىٰ؟ وما مجال الإصلاح الأنفع اليوم؛ هل هو الدعوي أم الفكري أم التربوي أم السياسي أم غير ذلك من الخيارات؟) ونحو ذلك من الأسئلة التي تنتمي إلىٰ الدائرة الثانية من التساؤلات التي سبق بيانها في مقدمة الكتاب.

ومما لا شك فيه أن تعدد الاتجاهات وتنوع الوسائل والمجالات الإصلاحية لا يدل علىٰ خطئها بالضرورة، بل إن من الاحتياجات الماسة اليوم أن تتنوع وسائل الإصلاح ومجالاته؛ لأن مساحة الثغور واسعة لا يمكن استيفاؤها بمجال واحد فقط، ثم إن النوازل والمشكلات تختلف من مكان لآخر، ومن بيئة لأخرىٰ، فتنوُّع الوسائل وتعدد المجالات بحسب البيئات يُعد أمرا مهما كذلك، ثم إن من القضايا المتعلقة بالوجهة ما يحتمل اختلاف وجهات النظر ولو كانت خلاف الأولىٰ، وهذا كلُّه يجعل التعامل مع هذه الأسئلة علىٰ قدر من الهدوء وسعة النظر والإعذار في بعض المساحات، غير أن هناك مساحاتٍ أخرىٰ فيها اختلافات جذرية يصعب الجمع فيها بين العاملين، كما يصعب تصويبهم جميعًا،

بل يكون فيها قدر من الخطأ والإشكال يتطلب البحث عن الصواب، كما أن هناك درجة أشد إشكالا، وهي أن تكون بعض الاتجاهات التي تتبنىٰ شعارات إسلامية هي من أهم أسباب المشكلات الحالية، وطريقها موغل في الباطل، وهذا يتطلب تنبها وبحثا أكثر عمقا.

وفي الحقيقة فإن التمييز بين الصواب والخطأ في مثل هذه السياقات لا يمكن حصره في وسائل معرفية مجردة، وإنما لا بد فيه -مع هذه الوسائل- من تطلُّب الهداية الإلهية التي تورث الإنسان البصيرة فيما ينظر فيه ويتعامل معه من هذه السياقات، فلا بد من التأكيد علىٰ مركزية الاستهداء بالله تعالىٰ للوصول إلىٰ مثل هذه الحقائق، ويستحضر المرء هنا الدعاء النبوي الشريف، وهو ما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه قال لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: بأي شيء كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك؛ إنك تهدي من تشاء إلىٰ صراط مستقيم»(١).

وتطلُّب الهداية لا ينحصر في الدعاء، بل له وسائل كثيرة، منها الإنابة، والاعتصام، والخشية، والمجاهدة، والصدق، واقتفاء أثر النبيين، وغير ذلك، ولي فيها بحث مطبوع بعنوان: (مفاتيح البصيرة عند النوازل والفتن)، وهذا كله من جهة المعاني الإيمانية التعبدية، وأما من الجهة المعرفية فإن هناك معالم منهجية تعين الناظر علىٰ تمييز الصواب من الخطأ في مثل هذه الاختلافات، كما أنها تعينه في نفسه ليضع خطواته في الموضع المطمئن وهو يسير في طريق الإصلاح، وعنونتُها بـ **(معالم كاشفة لصواب الوجهة وصحة الطريق)**.

---

(١) صحيح مسلم (٧٧٠)

معالم كاشفة لصواب الوجهة وصحة الطريق

بناء علىٰ ما تقدم ذكره من الإشكال في سؤال الوجهة، حول معرفة الصواب في كثير من الاختلافات في الأوساط الإسلامية، فهذا بيان تلك المعالم علىٰ سبيل الإجمال أولًا، ثم علىٰ سبيل التفصيل:

المعالم إجمالًا:

١- العلم الصحيح المثمر.

٢- أنْ يكون الطريق أو الاتَّجاه موافقا للمُحكمات، مراعيا للأوليات، في الشرع والواقع.

٣- التصديق العملي للشعارات.

٤- موافقة السنن الإلهية.

٥- البركة والتوفيق.

المعالم تفصيلًا:

المَعْلم الأوَّل: أن يكون الاتجاه أو السياق قائما علىٰ العلم الصحيح المثمر[١]:

إن من أهم ما ينبغي النظر إليه في سياق البحث عن الاتجاهات الصحيحة في البناء والإصلاح: ملاحظة مدىٰ موافقة هذا الاتجاه لمقتضيات العلم الصحيح

(١) وهذا المعلم كثير التفاصيل، متشعب الفقرات، وهو يتطلب استحضار كُلياته أثناء القراءة كيلا ينقطع القارئ عن السياق العام

المثمر؛ إذ إن العلم هو الأساس الذي يقوم عليه العمل، وهو مُرجِّح بين الطرق المختلفة، وقد قال إبراهيم الخليل لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا﴾.

والعلم الذي يمكن به الترجيح لا يقصد به قياس المعلومات النظرية ومقدار كثرتها، كما لا يقصد به كل ما يحمل اسم (العلم)؛ بل لا بد أن يكون هذا العلم صحيحا في ذاته، ثم يكون مثمرًا في حملته، فإذا اجتمعت الرتبة العليا من الصحة مع الدرجة العليا من الإثمار؛ فهذا من أعظم المرجحات لصحة الطريق الذي يسير عليه الإنسان أو يحكم عليه.

مؤشرات العلم الصحيح المثمر:

إنَّ هذا العلم الصَّحيح المثمر ليس أمرًا غامضًا لا يمكن الاستدلال عليه، بل هو جليٌّ واضح تدل عليه أركانُه وتقودُ إليه أنواره، وسأذكر له مؤشرات تقرب الدلالة إليه، وهي علىٰ سبيل الإجمال:

- الاستناد إلىٰ مرجعية الوحي.
- الانضباط الاستدلالي.
- موافقة الإجماع وهدي الصحابة.
- مراعاة المقاصد.
- الشمولية.
- اقتضاء العمل.
- الاتصال بالواقع.

وهذه المؤشرات المجملة تتعلق بها تفصيلات كثيرة سأحاول شرحها بشكل مختصر ثم أعود إلىٰ بقية المعالم بإذن الله تعالىٰ، راجيًا ألا يحول هذا التفصيل بين القارئ وبين استحضار خارطة المعالم.

المؤشر الأول: أن يكون هذا العلم مستندًا إلىٰ مرجعية الوحي (الكتاب والسنة)[(١)]:

وذلك بالاعتراف بحجيتهما، وتعظيمُهما، واعتبار كفايتهما في الهداية، والاستمداد منهما في المعالم المنهجية المتعلقة بالعمل للإسلام، مع السير -بطبيعة الحال- علىٰ سنن الفقهاء والأئمة العلماء في تفسيرهما والتفقه فيهما، واتباع هديهم في ذلك.

ومع أن عامة الاتجاهات الإسلامية في الواقع تتفق علىٰ مبدأ (الاستمداد من مرجعية الوحي) في القواعد الكبرىٰ، وفي السياق الإصلاحي، إلا أن المفارقات تحصل علىٰ أرض الواقع، وهذا يدعو إلىٰ تحرير صور الاستمداد الصحيح والاهتمام بالناحية التطبيقية العملية، والمحاكمة إليها لا إلىٰ مجرد الادعاءات.

وقبل أن أذكر بعض الضوابط في هذا الاستمداد، أود التنبيه إلىٰ أننا نمرُّ بمرحلة عجيبة، برزت فيها اتجاهات تزعم أنها إسلامية ولكنها لا تنتمي إلىٰ مرجعية الوحي التامة -لا من جهة التطبيق فحسب- بل من جهة الادّعاء الظاهري كذلك، وذلك بالتشكيك في حجية السنة أو أخبار آحادها، أو بعزل القرآن والسنة عن المرجعية في باب السياسة والاقتصاد والنهضة الحضارية، أو باعتبار السياق الغربي هو الأنموذج الحضاري النهضوي الذي ينبغي اتخاذه مثلًا، مع الابتعاد عن النموذج النبوي في النهضة والإصلاح، والاكتفاء بقضايا عامة من السنة النبوية تُتَّخذُ حجةً لتعطيل كثير من باقيه، نحو حديث: (أنتم أعلم بأمور

(١) سواء أقلنا إن السنة وحي، أو إنها بيان للوحي، فالقران لا يمكن العمل به إلا ببيانه وهو السنة، والتحقيق أن من السنة ما هو وحي، ومنها ما هو اجتهاد نبوي أقره الله تعالىٰ عليه، فآل الأمر إلىٰ أنها من عند الله تعالىٰ.

دنياكم)[1] واتخاذه حاكما علىٰ مساحة كبيرة من السنة النبوية، وكل هذه الأمثلة كافية في اعتبار خطأ هذه الاتجاهات.

وأما الاتجاهات أو السياقات التي تُعلن استمدادها من الكتاب والسنة علىٰ وجه الشمولية والتمام، وتقوم بشيء منه حقيقةً، فالإشكال -عند من لم يوفق للصواب منها- راجعٌ إلىٰ نوعين: معرفي، وتطبيقي، وكلاهما فيه طرفان من الإشكال كذلك: طرف ينزع إلىٰ الغلو في هذا الاستمداد وآخر ينزع إلىٰ الجفاء، والصواب كامن بينهما.

ومن أهم ما يبين صحة الاستمداد من مرجعية الوحي: أن تُعطىٰ القضايا ثقلها ومركزيتها بقدر ثقلها ومركزيتها في خطاب الوحي، فالذي يضخم ما لم يضخمه الوحي أو يهمش ما عظمه الوحي؛ فهو يستمد استمدادا خاطئًا، وأما من يراعي المحكمات والأولويات والمركزيات -دينًا ودعوة- فهو يستمد استمدادًا صحيحًا من هذه الجهة، وهذا يقودنا إلىٰ أهمية معرفة الأولويات والمركزيات في الشريعة والسير علىٰ ضوئها من حيث التقديم والاهتمام، كما أن الاتساق مع الشريعة وعدم مناقضة محكماتها يدل علىٰ صحة الاستمداد، إذ إن الشريعة سائرة علىٰ نظام متسق لا تناقض فيه، وإذا حصل شيء من الإشكال فإن متشابهها -حينئذ- يُرَد إلىٰ محكمها، وهذه طريقة الراسخين.

نعود إلىٰ مؤشرات العلم الصحيح المثمر:

المؤشر الثاني: موافقة الإجماع ومراعاة مواطن الاتفاق بين أهل السنة؛ فهذه الأمة مُفضَّلة علىٰ الأمم، وجُعلت شاهدة عليها، ووصفت بأنها تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر، وهذا يقتضي صحة مواقفها الجماعية، ثم إن أولىٰ المراحل من عمرها لتحقق الاتفاق والعلمِ به: مرحلة الصحابة، ثم ما تبعها من مراحل القرون الأولىٰ المُفضّلة علىٰ لسانَ النبي ﷺ، ومن المهم الإشارة إلىٰ أن

(١) صحيح مسلم (٢٣٦٣) راجع كتاب ينبوع الغواية الفكرية في مناقشة الاستدلال الخاطئ بهذا الحديث، ص: (٥٨٠)

ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم لا ينحصر في أفراد مقولات فقهية أو عقدية، وإنّما في سمت عام، وهدي شمولي، ومنهج كلي، في العقيدة والسلوك، وفي العبادة والعمل للدين والقيام به، فمن زعم بعد ذلك أن الأمة تفتقر في فهم دينها إلىٰ ثقافة أخرىٰ معارضة لما كان عليه أولئك المفضلون فهو واهم.

المؤشر الثالث: الجمع بين تفاصيل الشريعة ومقاصدها، لا الاكتفاء بإحداها دون الأخرىٰ، فمقاصد الشريعة في الحقيقة لم تُبن إلا علىٰ نصوصها التفصيلية، كما أن النصوص التفصيلية تحقق مقاصد كلية وغائية، ومن المهم الجمع بينهما، ومراعاتهما.

وعند النظر في الواقع فإننا نجد من يتمسك بأفراد النصوص ويَغفَل عن مقاصدها وكلياتها وغائياتها، كما نجد بعكس ذلك من يزعم تمسكه بمقاصد الشريعة وهو مفرط مبتعد عن حدودها ونصوصها التفصيلية، والحق في الجمع بينهما.

ومما يدخل في هذا المؤشر أيضًا: الجمع بين نصوص العلماء ومقاصد كلامهم، وعدم النظر التجزيئي لأفراد النصوص المنقولة عن أهل العلم دون فقه بمجموع ما ورد في مذاهبهم وتصرفاتهم.

ومما يدخل في هذا المؤشر أيضًا: الجمع بين مفردات العلوم الشرعية ومقاصدها الكلية، فمراعاة ذلك كله من أهم صور العلم الصحيح المثمر، ومن الأمثلة علىٰ ذلك: باب الأسماء والصفات، وفيه أمران ينبغي مراعاتهما، الأول: إثبات الأسماء والصفات لله تعالىٰ علىٰ وجه التفصيل والتعيين تعظيما وتنزيها، علىٰ ضوء ما ثبت في الوحي. والثاني: بيان الغاية من هذا الإثبات والتنزيه، وهي:

١- العلم بالله تعالىٰ والتعرف عليه وما يتبع ذلك من محبته وتعظيمه.

٢- التعبد له سبحانه بناء علىٰ هذا العلم به، بالدعاء والذكر والثناء وأعمال القلب وغير ذلك.

فمن المهم الجمع بين هذين الأمرين في تناول هذا الباب كي يكون العلم المتعلق بها صحيحًا مثمرًا، أما الانشغال التام بنقاش المخالفين في إثبات الصفات من المعطلة، والغفلة عن معنىٰ العلم بالله والتعبد له بمقتضىٰ الأسماء والصفات فهذه صورة من صور الخلل، مع أن نقاش المخالفين -وإن كان صحيحا في أساسه بل ومهمًا- إلا أنه إنما هو وسيلة لتحقيق الغايات والمقاصد من هذا الباب، فلا ينبغي الغفلة عن هذا المعنىٰ في سياق الرد علىٰ المخالفين.

مثال آخر: وهو في فقه الاقتداء بالأنبياء والأئمة والعلماء، وإدراك المعاني الكلية والغائية التي يصدق عليها حقيقة الاقتداء بهم، ومن أمثلته: الاقتداء بنبي الله شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ في معالجته لإشكالية التطفيف في المكيال، هل يكون بعلاج عين المشكلة التي عالجها؟ أم يكون بعلاج المشكلات الكبرىٰ المنتشرة في الواقع؟ لا شك أن الثاني هو الأقرب لمعنىٰ الاقتداء به عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإن كان لا يلغي الاقتداء بالصورة الخاصة في إنكار التطفيف في الميزان بطبيعة الحال.

وهكذا في سياق التأسّي بالنبي ﷺ في الإجراءات التي اتخذها هجرته وجهاده؛ فليس مطلوبا أن تستعمل نفس الأدوات ولا نفس الأساليب التكتيكية التي استعملها، وإنما حقيقة الاقتداء به هنا تكون باتخاذ الأسباب المناسبة للمرحلة والأكثر تحقيقًا للمعنىٰ.

وكذلك الاقتداء بالعلماء والأئمة الذين ردوا علىٰ الطوائف المخالفة في العقيدة، لا يكون بالرد علىٰ نفس هذه الطوائف بأعيانها -بالضرورة-، وإنما بالرد علىٰ الطوائف الأشد تأثيرًا وانتشارًا ومخالفةً للوحي في زمن المُقتدي بهم، لأن انشغال أولئك العلماء بتلك الطوائف في أزمنتهم كان له تعلق بمدىٰ تأثيرهم في تلك الأزمنة، ولذلك كانوا يلاحظون استحسان الرد من عدمه بقدر انتشار تلك الشبهات وتأثيرها، كما قال عثمان بن سعيد الدارمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَكِنْ خِفْتُ أَلَّا يَسَعَ أَحَدًا عِنْدَهُ شَيْءٌ مِنَ الْبَيَانِ يَكُونُ بِبَلَدٍ يُنْشَرُ فِيهِ هَذَا الْكَلَام؛ ثُمَّ لَا يَنْقُضُهُ عَلَىٰ نَاشِرِهِ؛ ذَبًّا عَنِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، وَمُحَامَاةً عَنْ أَهْلِ الْغَفْلَةِ مِنَ ضُعَفَاءِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ

وَالصبيان»[1] فإذا كان في زماننا اتجاهات أشد مخالفة للوحي وأكثر انتشارًا وتأثيرًا علىٰ المسلمين من الطوائف التي رد عليها أولئك الأئمة؛ فإن حقيقة الاقتداء بهم تكون بمواجهة هذه الاتجاهات الجديدة (كالعلمانية والإلحاد) لا بمواجهة عين ما واجهه أولئك -مع عدم إلغاء أهمية الرد علىٰ تلك الطوائف بقدر مخالفتها للوحي-.

المؤشر الرابع: الانضباط والمنهجية والاطراد وعدم التناقض، وذلك أن من شأن العلم الصحيح ألا يكون متناقضًا، ولا مضطربًا، وذلك بأن تكون مصادر التلقي فيه واضحة، ومسالك الفهم فيه مرتكزة علىٰ أصول الفهم الصحيح كموافقة اللغة، والسياق، والمحكمات، وفهم الصحابة، ونحو ذلك، وتكون تفاصيله متسقة مع أصوله، ولذلك فإن من يتحدث بالعلم ثم تجده متناقضًا مضطربا، تارة يستدل بالسنة وتارة يشكك فيها، وتارة يعظم أئمة المسلمين وتارة يحط من قدرهم، أو تجده يعظم من السنة ويبجل السلف الصالح، ثم تجده في نفس الوقت معظما لمن يحارب المشاريع الإسلامية من ذوي المناصب السياسية، فهذا كله دليل علىٰ الخلو من العلم الصحيح المثمر.

المؤشر الخامس: الإثمار في صلاح النفس وإصلاح الغير، وذلك بأن يكون العلم الذي بُني عليه الطريق مثمرًا للعمل والإيمان وحسن الخلق، ومُعينًا حامله -كذلك- علىٰ التفاعل مع الواقع لا أنْ يَكونَ حاجزًا بينه وبينه، فإذا تحقق هذا في حملة العلم في سياق من السياقات الإسلامية فهو من المؤشرات علىٰ صحة المنطلقات والقواعد المعرفية؛ لأن العلم إنما يُراد للعمل، ولا يعني ذلك أن يكون هذا الأثر في كل من ينتسب إلىٰ هذا الاتجاه، فإن المرء قد يتعلم العلم الصحيح ثم لا يلتزم به، ولكني أتحدث عن السمة العامة في المنتسبين إلىٰ هذا الاتجاه من حيث تأثير العلم عليهم، فإن كان الكثير منهم أو أكثرهم علىٰ خلاف ما ينبغي من الثمرة والإثمار فإن هذا قد يدل علىٰ خلل في الأصل، وذلك كمثل

(١) نقض الدارمي علىٰ المريسي (٢/ ٩٠١)

الاتجاهات التي يتبنّىٰ جُل المنتسبين إليها الطعن في العاملين للإسلام وتصنيفهم وتبديعهم، أو بعكس ذلك إذا كان جُل المنتمين إلىٰ هذا السياق ممن تخبو جذوة العمل للإسلام في قلبه بعد أن كانت متقدة لتستحيل إلىٰ وجهة النجاح الدنيوي والإبداع الدنيوي والتفوق الدنيوي فقط، مع تخفف من التعبد والتزكية وإصلاح القلب.

المعلم الثاني من المعالم الكاشفة لصواب الوجهة وصحة الطريق: أنْ يكون الطريق أو الاتِّجاه موافقا للمُحكمات، مراعيا للأولويات، في الشرع والواقع:

إن من أهم ما يميز الطريق الصحيح أن يكون منطلقًا من مركزيات الدين ومحكماته، ومطبقًا لها علىٰ أولويات الواقع وتحدياته، وذلك بأن (تجعل لكل حقيقة من حقائق الدين ما جعله الله لها من الحجم والقدر في الصورة الكلية للإسلام دينًا ودعوة) كما قال فريد الأنصاري رَحِمَهُ اللَّهُ[1]، ويراعىٰ فيها أولويات الثغور ومقتضيات التحديات الكبرىٰ في الواقع.

ويمكن للمرء أن ينقد أيّ اتّجاه عبر النظر إلىٰ مركزياته في الدين والعلم، ثم إلىٰ مركزياته في التطبيق والعمل، فإذا كان الزمن مثل زماننا هذا -الذي تُحارب فيه أصول الإسلام لاجتثاثها من أساسها، ويُسعىٰ فيه بكل الوسائل إلىٰ تجهيل الأجيال وإلهائها ومحاربة فطرتها-؛ ثم تجد بعد ذلك من لا يبالي بكل هذه المخاطر، ولا يحرك تجاهها ساكنًا، وهو يزعم أنه يعمل للإسلام، ثم تكون قضاياه التي يهتم بها مما لا أهمية له في هذا الزمن ولا نفع فيه إلا قليلا، كأن ينشغل بإثارة مسائل خلافية قديمة لا أثر لها في الواقع كالاختلاف في حكم عالم بعينه هل هو علىٰ السنة أم علىٰ البدعة، ثم يملأ فضاء شبكات التواصل بالنقاش والردود حول هذه المسائل وتأخذ حيزًا واسعًا من مشروعه؛ فهذا كله من

(١) الفطرية، فريد الأنصاري (١١٢)

علامات الخلل في المركزيات والأولويات، وليس معنىٰ ذلك أنه لا ينبغي الاشتغال بالعلم المحض أو بالقضايا الدعوية الصغيرة، وإنما المراد أن يكون ذلك بالاتساق مع تحديات المرحلة الكبرىٰ، بأن تكون هذه المشاريع الفرعية متصلة بالسياق الكلي مثمرةً فيه.

المعلم الثالث: محاكمة الشعارات إلىٰ الواقع العملي للاتجاه المراد تقييمه:

قد سبق الحديث في مؤشرات العلم الصحيح المثمر عن أهمية وجود الأثر العملي علىٰ متعلميه، وأن هذا مما ينبغي النظر إليه في التقييم لجمهور من يتصل بالسياق لا إلىٰ كل فرد بعينه، ومما يتصل بذلك: أن يكون الاتجاه في سياقه العام موافقًا للشعارات التي يدعو إليها، فعلىٰ سبيل المثال: حين يكون من أهم شعارات مشروع ما: المحافظة علىٰ القيم الإسلامية، ثم إذا نظرت إلىٰ طبيعة المشروع وتفاصيله وطبيعة تنزله علىٰ الواقع تجد أنه لم يكتف بعدم موافقة الشعار عمليا، بل جمع إلىٰ ذلك نشره لما يعارض هذه القيم، وهذا تجده في مشاريع دنيوية تجارية مغلفة باسم الدين، تارة علىٰ شكل مدرسة خاصة، وتارة بصور أخرىٰ.

المعلم الرابع: فقه تنزيل الدين علىٰ الواقع وموافقة السنن ومراعاة الأسباب:

إذا تأملنا هدي الأنبياء والمرسلين في الدعوة والإصلاح سنجد أنهم سلكوا سبيل مراعاة السنن، واتخذوا الأسباب، وأدركوا معطيات الواقع، فصبروا علىٰ مقتضيات الدعوة والتربية وصناعة الحملة، ولم يستعجلوا المراحل، كما أنهم -في نفس الوقت- لم يتأخروا عن التضحية والإقدام حين يكون علىٰ بصيرة، وقد سبق الحديث عن السنن الإلهية في المدافعة بين الحق والباطل، وما يتعلق بها من معانٍ، وأنها من أهم ما ينبغي مراعاته في الإصلاح، ولذلك فإن الاتجاهات

التي تتبنىٰ العاطفة في تغيير الواقع دون اعتبار للسن الإلهية؛ وتظن أنها إذا ملكت شيئا من القوة والسلاح والرصيد الشبابي فإنها تستطيع مواجهة الدنيا بأسرها، وهذا كله من الخلل في فهم السنن الإلهية، وهذا مسلك غير سوي في الإصلاح.

والمتأمل في هدي النبي ﷺ في مكة، ثم في المدينة من جهة التدرج في المراحل ومراعاة الأحوال، وما صاحب ذلك من تأخر كثير من التشريعات إلىٰ حين مناسبة الحال؛ يظهر له كثير من الفقه في ذلك، كما قال ابن تيمية رحمه الله: «العالم قد يؤخر البيان والبلاغ لأشياء إلىٰ وقت التمكن، كما أخر الله سبحانه إنزال وبيان أحكام إلىٰ وقت تمكن رسول الله ﷺ من بيانها، فإذا حصل من يقوم بالدين من العلماء أو الأمراء أو مجموعهما؛ كان بيانه لما جاء به الرسول شيئًا فشيئًا، بمنزلة بيان الرسول لما بعث به شيئًا فشيئًا، ومعلوم أن الرسول لا يبلغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، ولم تأتِ الشريعة جملة، كما يقال: إذا أردت أن تطاع فأمر بما يستطاع.

فكذلك المجدد لدينه والمحيي لسنته لا يبلّغ إلا ما أمكن علمه والعمل به، كما أن الداخل في الإسلام لا يمكن حين دخوله أن يلقن جميع شرائعه ويؤمر بها كلها، وكذلك التائب من الذنوب والمتعلم والمسترشد لا يمكن في أول الأمر أن يؤمر بجميع الدين ويذكر له جميع العلم؛ فإنه لا يطيق ذلك، وإذا لم يطقه لم يكن واجبًا عليه في هذه الحال، وإذا لم يكن واجبًا لم يكن للعالم والأمير أن يوجبه جميعه ابتداءً، بل يعفو عن الأمر والنهي بما لا يمكن علمه وعمله إلىٰ وقت الإمكان، كما عفا الرسول عما عفا عنه إلىٰ وقت بيانه. ولا يكون ذلك من باب إقرار المحرمات وترك الأمر بالواجبات؛ لأن الوجوب والتحريم مشروط بإمكان العلم والعمل وقد فرضنا انتفاء هذا الشرط، فتدبر هذا الأصل فإنه نافع»[1].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٠/ ٦٠)

وقال رَحِمَهُ اللهُ كذلك: «كل ما جاء من التشبه بهم -أي اليهود- إنما كان في صدر الهجرة ثم نسخ؛ ذلك أن اليهود إذ ذاك كانوا لا يتميزون عن المسلمين لا في شعور، ولا في لباس، لا بعلامة ولا غيرها، ثم إنه ثبت بعد ذلك في الكتاب والسنة والإجماع ما شرعه الله من مخالفة الكافرين ومفارقتهم في الشعار والهدي. وسبب ذلك: أن المخالفة لهم لا تكون إلا مع ظهور الدين وعلوه كالجهاد، وإلزامهم بالجزية والصغار، فلما كان المسلمون في أول الأمر ضعفاء لم تشرع المخالفة لهم، فلما كمل الدين وظهر وعلا شرع بذلك.

ومثل ذلك اليوم: لو أن المسلم بدار حرب، أو دار كفر غير حرب؛ لم يكن مأمورًا بالمخالفة لهم في الهدي الظاهر، لما عليه في ذلك من الضرر، فأما في دار الإسلام والهجرة، التي أعز الله فيها دينه، وجعل على الكافرين بها الصغار والجزية، ففيها شرعت المخالفة»[1].

المعلم الخامس: وجود الأثر الغيبي من البركة والتيسير والفتح وصلاح النفس واطمئنان القلب:

إنَّ مما يمكن للمرء أن يستأنس به في تقييم المشاريع والسياقات، ويستعين به على ذلك -لا مستقلًا وحده وإنما مع المعالم المذكورة سابقا-: أن ينظر في أثر السياق الإسلامي أو الاتجاه الدعوي الذي يعمل فيه على قلبه ونفسه باعتبار التأثير المباشر، هل يجد البركة والخير والطمأنينة؟ هل ازداد عبودية لله؟ هل زادت بصيرته ووعيه؟ هل وجد فرقانا ونورًا ومعرفة وتمييزا للحق من الباطل؟ أم أنه وجد ضيق الصدر وانقباض القلب ووحشة الروح؟ وإذا كان ينظر من خارج هذا السياق أو المشروع فلينظر إلى مقدار البركة والنفع والخير في المشروع نفسه أو على أكثر من اتصل به، فإنّ للعلم الصحيح والعمل الصادق الموافق لمراد الله أثرًا قلبيا على صاحبه، كما أنَّ للانحراف ومخالفة الشرع أثرًا بعكس ذلك، كما

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٧١)

قال النبي ﷺ: (الإثم ما حاك في صدرك)[1]، وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (البرُّ ما سكنت إليه النفس، واطمأنّ إليه القلب، والإثم مالم تسكن إليه النفس، ولم يطمئنّ إليه القلب، وإن أفتاك المفتون)[2] قال ابن رجب: إسناده جيد، ثم ذكر رحمه الله أنه قد صحّ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (الإثم حوازُّ القلوب) وعن أبي الدرداء (الخير في طمأنينة، والشر في ريبة) ثم ذكر كلامًا بديعا قال فيه: (فهذا يدل علىٰ أن الحق والباطل لا يلتبس أمرهما علىٰ المؤمن البصير، بل يَعرف الحق بالنور الذي عليه، فيقبله قلبه، وينفر عن الباطل، فينكره ولا يعرفه)[3]، ثم فصّل رحمه الله تعالىٰ في بعض ضوابط ذلك حتىٰ لا تكون القضية خاضعة للهوىٰ.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٥٣)

(٢) مسند الإمام أحمد (١٧٧٤٢)

(٣) جامع العلوم والحكم (٥٧٣) تحقيق ماهر الفحل.

قلق الوجهة الإصلاحية

معالم كاشفة لصواب الوجهة وصحة الطريق

- أن يكون الاتجاه أو السياق قائما على العلم الصحيح المثمر

  مؤشراته:
  1. أن يكون هذا العلم مستنداً إلى مرجعية الوحي (الكتاب والسنة).
     - ١ - أن تُعطى القضايا ثقلها ومركزيتها بقدر ثقلها ومركزيتها في خطاب الوحي.
     - ٢ - الاتساق مع الشريعة وعدم مناقضة محكماتها.
  2. موافقة الإجماع ومراعاة مواطن الاتفاق بين أهل السنة.
  3. الجمع بين تفاصيل الشريعة ومقاصدها.
  4. الانضباط والمنهجية والاطراد وعدم التناقض.
  5. الإثمار في صلاح النفس وإصلاح الغير.

- أنْ يكون الطريق أو الاتّجاه موافقاً للمُحكمات، مراعياً للأولويات، في الشرع والواقع
- محاكمة الشعارات إلى الواقع العملي للاتجاه المراد تقييمه
- فقه تنزيل الدين على الواقع وموافقة السنن ومراعاة الأسباب
- وجود الأثر الغيبي من البركة والتيسير والفتح وصلاح النفس واطمئنان القلب

المبحث الثاني
ثغور الإصلاح

يتألف هذا المبحث من عنصرين، وهما:

١- خارطة الثغور.

٢- ثمرات تصور خارطة الثغور.

العنصر الأول: خارطة الثغور:

من أهم ما يحتاجه العاملون اليوم: إيجاد خارطة عامة للثغور التي يمكن العمل عليها؛ بحيث يسهل علىٰ من يريد إقامة مشروع ما أن يختار الوجهة الأكثر احتياجا؛ فيتجاوز بذلك كثير من العاملين إشكال التكدّس في مجالات محددة مع تركهم المجالات الأخرىٰ الأكثر أهمية والأقل إشغالا.

وهذه الخارطة لا يمكن رسمها بصورة شمولية إلا من جهة أناس ذوي خبرة ومعرفة وعمق اطلاع، وبعمل تعاوني تكاملي، غير أنه يمكن لمن هم دون ذلك أن يدركوا بعض معالم خارطة الثغور بأنفسهم، ويمكن لهم أن يحددوا أهم الملامح التي تعينهم علىٰ تصور تلك الخارطة، ومن ثم اختيار المشروع الأنسب.

- **طرق متنوعة لتحديد ملامح خارطة الثغور:**

١) تقسيم مساحات الثغور إلىٰ دائرتين: الأولىٰ: الثغور المتعلقة بالحق وحملته. والثانية: الثغور المتعلقة بالباطل ومشكلاته، فدائرة الحق في ذاته تشمل المحافظة علىٰ أسس الإسلام ومحكماته وأصوله وفروعه وعلومه وتاريخه وتراثه ورموزه، وحَمَلته، فتشمل تعليم العلم، وتحفيظ القرآن، وتخريج الدعاة، وصناعة المتخصصين في علوم الشريعة، وخدمة هذه العلوم بالتحقيق والتحرير وما إلىٰ ذلك، وأما دائرة الباطل ومشكلاته فتشمل الوعي بسبيل المجرمين وأدواتهم ومناهجهم ووسائلهم في نشر الباطل، وفي محاربة الحق وأهله، وما ترتب علىٰ ذلك من آثار فكرية وأخلاقية وسياسية ومنهجية، فثغور الدائرة الثانية متعلقة بمدافعة الباطل وأهله وآثارهم. وسيأتي التفصيل المتعلق بهاتين الدائرتين بصورة أوسع في المبحث التالي بإذن الله تعالىٰ.

والشاهد هنا أن من الثغور ما هو متعلق بالحق في ذاته، ومنها ما هو متعلق بالباطل ومشكلاته، وهدْي الأنبياء في الجمع بين هاتين الدائرتين وعدم الاكتفاء بإحداهما، وسيأتي بيان ذلك في اختيار الثغر الإصلاحي بإذن الله تعالىٰ.

٢) البدء بمشكلة من المشكلات الشائعة، ثم تتبع نظائرها من نفس الباب، ثم ردها -من جهة التصنيف الموضوعي لا من جهة الأسباب- إلىٰ عنوان كلي يكون هو عنوان الثغر الأكبر في هذا المجال، وتلك المشكلات ثغور صغرىٰ. مثال ذلك: مشكلة الإلحاد، إن تتبعت نظائرها فستخرج بمشكلة النسوية، والشذوذ الجنسي، وكذلك مشكلة التأثر بالعلمانية والليبرالية وما إليها، ويمكن أن تُعَنوَن هذه المشكلات بـ (التحديات الفكرية) ويكون هو الثغر الأكبر، وما تحته مما سمّيتُ ونظائره كلٌّ منها ثغر صغير.

ومن جهة أخرىٰ إذا نظرنا إلىٰ وسائل حل كل مشكلة من هذه الثغور الصغرىٰ فسنجد أن كل وسيلة من هذه الوسائل تتطلب مشاريع كثيرة، وأن كل

وسيلة منها يمكن أن تكون ثغرا أصغر من المشكلة نفسها، وبالتالي تصبح المشكلة ثغرا متوسطا بهذا الاعتبار، فصار عندنا ثلاث درجات:

الأولىٰ: الثغر الأكبر، (وهو التحديات الفكرية هنا)

الثانية: الثغر المتوسط، (وهو -هنا- مشكلة الإلحاد - مشكلة النسوية - مشكلة الشذوذ . . إلخ)

الثالثة: الثغر الأصغر، وهو المتعلق بوسائل حل كل مشكلة منها باعتبارها مشاريع، مثل تأليف الكتب الفكرية، وإنشاء المواقع الحوارية لرد الشبهات، وإنشاء البرامج التعليمية للوقاية من هذه الأفكار، وغير ذلك الكثير، فكل واحد من هذه الوسائل يعد ثغرا صغيرا يتطلب مشاريع كثيرة لسده، فكيف بالثغر المتوسط نفسه؟ بل كيف بالثغر الأكبر؟!

٣) البدء بجمع المشكلات الجزئية الشائعة في باب واحد أو في أبواب متفرقة، مثل مشكلة (التفاهة في الجيل الصاعد) ومشكلة (المواقع الإباحية) ومشكلة (ضعف دور المعلم في التربية)، فيُجمع منها لا يقل عن عشر مشكلات، ثم يُنظر في أسبابها، ثم تستخرج الأسباب المتكررة المشتركة بين هذه المشكلات الجزئية علىٰ اختلافها؛ فتصنّف علىٰ أنها ثغور كبرىٰ وذلك لأنها بوابة تتدفق منها أسباب تغذية لمساحة واسعة من المشكلات؛ فالوقوف عليها يقلل من نسبة هذا التدفق في مختلف الأبواب، وأما نتائجها -التي هي المشكلات الجزئية- فتعد من الثغور الصغرىٰ.

مثال: كثير من المشكلات الجزئية المتعلقة بالجيل الصاعد إن جمعتَها وحللت أسبابها؛ ستجد أن من الأسباب المتكررة المؤثرة في كثرتها: قلة المحاضن الشبابية التربوية الناجحة، وأن هذه المحاضن إن وجدت وكثرت وقام عليها الأكفاء فإن كثيرا من المشكلات الجزئية ستنتهي عند الشرائح الشبابية المتصلة بهذه المحاضن؛ وبالتالي فإن إنشاء المحاضن التربوية والقيام عليها ونشرها = يُعدّ من الثغور الكبرىٰ.

٤) النظر في مشكلة من المشكلات الكبيرة الشائعة، ومن ثم استخراج الحلول لهذه المشكلة بمختلف الوسائل، فينتج من ذلك أن تكون هذه الحلول هي الثغور الصغرىٰ التي تقام لأجلها مشاريع، ويكون الأمر الجامع لها هو الثغر الأكبر بالنسبة إليها. وهكذا تُكرر القضية مع بقية المشكلات لنخرج بثغور كبرىٰ كثيرة يدور في فلك كل منها ثغور صغرىٰ أكثر منها.

مثال: قضية اللاجئين المهجرين في بلد من بلاد المسلمين، إن نظرنا إلىٰ ما يمكن تقديمه من الحلول لمشكلاتهم فسيخرج لنا: الدعم المادي الجزئي المباشر (مثل تدفئة الشتاء)، ويخرج لنا كذلك: الكفالات المستمرة التي تمتد لسنوات لعوائل معينة، وكذلك: علاج المرضىٰ منهم، وكذلك تقديم الرعاية النفسية وإزالة آثار الحرب التي يمكن إزالتها، وكذلك القيام علىٰ الشأن التعليمي ومحاربة الجهل، إلىٰ غير ذلك من الحلول التي يمكن تطبيق عدة مشاريع في كل واحد منها، وبذلك تكون هي الثغور الصغرىٰ هنا، وتكون قضية اللاجئين هي الثغر الأكبر بهذا الاعتبار.

وهذه الطرق لفهم خارطة الثغور لو طبقناها علىٰ كثير من المشكلات لخرجنا بمساحة ثغور هائلة لا تكفي لها أعمار كثير من المصلحين، وهذا يزيد من قيمة الوقت والعمل.

العنصر الثاني: ثمرات تصور خارطة الثغور:

إن التصور الصحيح لخارطة الثغور يجعلنا نخرج بمبدأين من أهم المبادئ الإصلاحية التي يجب تبنيها في هذا الزمن، ألا وهما:

المبدأ الأول: سد الثغور (أو ملء الثغور): والمقصود به: توجيه المشاريع الدعوية والإصلاحية بحيث تتجاوز الاعتباط في وجهتها؛ فتكون متصلة بثغر من الثغور الشاغرة، فتربط بينها وبين هذا الثغر بسبب سواء أكان مباشرًا أم غير مباشر. وهذا المبدأ يستند إلىٰ (فقه الأولويات) في الشريعة، والذي تمتد مساحة

تطبيقاته لتشمل دوائر واسعة، من أهمها دوائر الإصلاح. كما أن مما يسند هذا المبدأ من مرجعية الوحي في ظل كثرة المشكلات المتصلة بجسد الأمة:

- حديث الجسد، وهو قول النبي ﷺ: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكىٰ منه عضو، تداعىٰ له سائر الجسد بالسهر والحمىٰ)[1]

- وحديث البنيان، وهو قول النبي ﷺ: (المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضا)[2]

- وحديث الأخوّة، وهو قول النبي ﷺ: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلمه)[3]

والمبدأ الثاني هو: (التكامل الإصلاحي)، والمقصود به: إيمان المصلح بعدم قدرته وحده علىٰ سد كل الثغور، وأنه محتاج أشد الاحتياج لمن يعمل في الثغور الأخرىٰ ولو كانت صغيرة جزئية؛ فينظر إلىٰ بقية العاملين علىٰ أنهم يسيرون في نفس الطريق، وإذا كان لديهم نقص أو خطأ فيُسدد بالنصيحة لا بالإسقاط والهدم، إلا من تكون مشاريعه قائمة علىٰ إسقاط مشاريع الآخرين وقطع طرقهم فهذا يصعب تقويمه بالنصيحة.

وبعد تقرير كل ما سبق، يأتي السؤال الأهم، ألا وهو:

كيف أختار الثغر الأنسب لي من بين خارطة الثغور الواسعة هذه؟ وأين أجعل مشاريعي؟ وفي أي مجال أبذل خلاصة وقتي وجهدي وفكري؟ هذا ما سيأتي بيانه في المبحثين التاليين: الثالث والرابع، والجواب المباشر سيكون في الرابع غير أن الثالث مدخل مهم له.

---

(١) صحيح البخاري (٦٠١١) ومسلم (٢٥٨٦).

(٢) صحيح البخاري (٤٨١) وصحيح مسلم (٢٥٨٥)

(٣) صحيح البخاري (٢٤٤٢) وصحيح مسلم (٢٥٨٠)

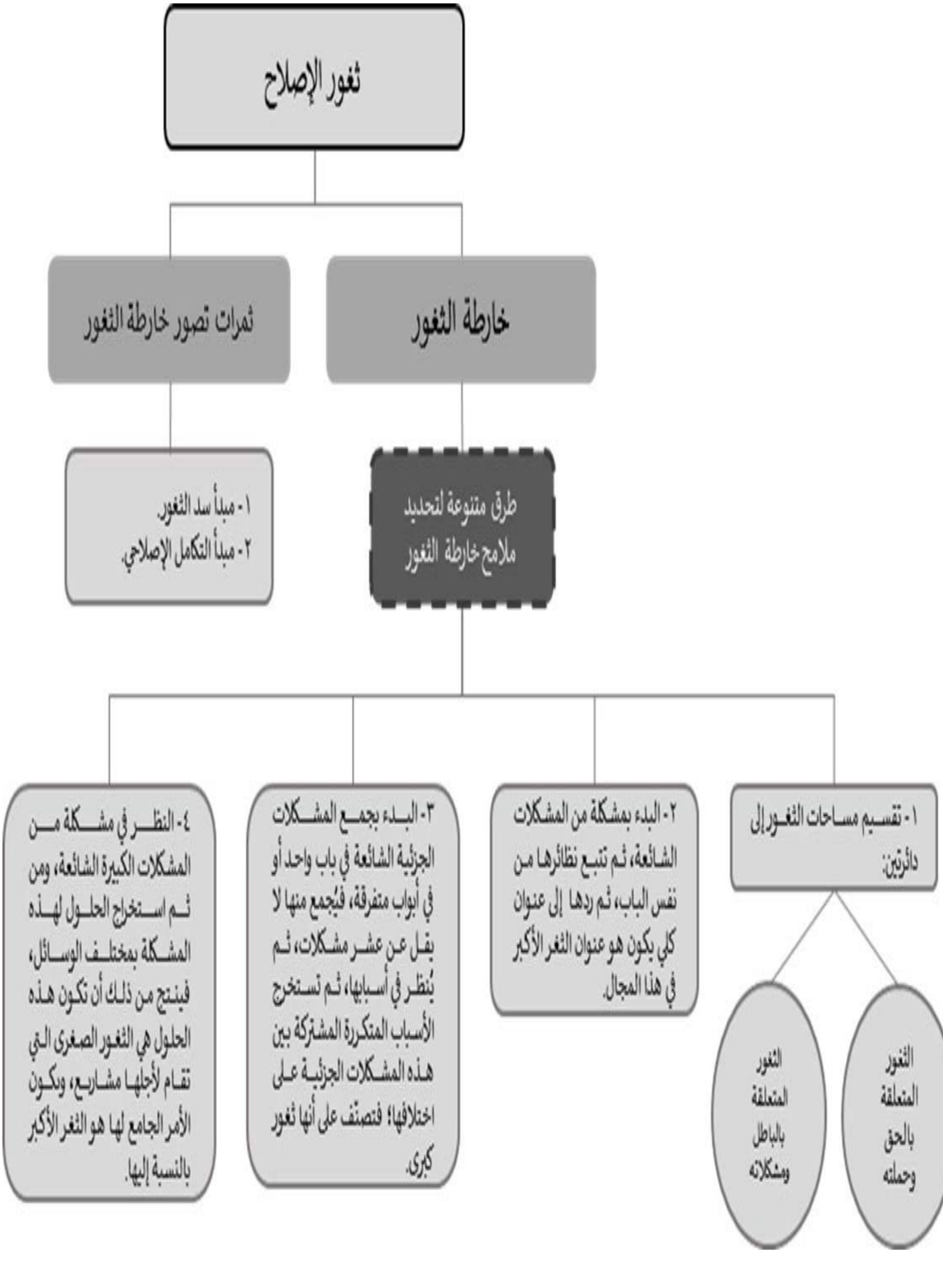
ثغور الإصلاح
خارطة الثغور
ثمرات تصور خارطة الثغور
طرق متنوعة لتحديد ملامح خارطة الثغور
١- مبدأ سد الثغور.
٢- مبدأ التكامل الإصلاحي.
١- تقسيم مساحات الثغور إلى دائرتين:
الثغور المتعلقة بالحق وحملته
الثغور المتعلقة بالباطل ومشكلاته
٢- البدء بمشكلة من المشكلات الشائعة، ثم تتبع نظائرها من نفس الباب، ثم ردها إلى عنوان كلي يكون هو عنوان الثغر الأكبر في هذا المجال.
٣- البدء بجمع المشكلات الجزئية الشائعة في باب واحد أو في أبواب متفرقة، فيُجمع منها لا يقل عن عشر مشكلات، ثم يُنظر في أسبابها، ثم تستخرج الأسباب المتكررة المشتركة بين هذه المشكلات الجزئية على اختلافها؛ فتصنّف على أنها ثغور كبرى.
٤- النظر في مشكلة من المشكلات الكبيرة الشائعة، ومن ثم استخراج الحلول لهذه المشكلة بمختلف الوسائل، فينتج من ذلك أن تكون هذه الحلول هي الثغور الصغرى التي تقام لأجلها مشاريع، ويكون الأمر الجامع لها هو الثغر الأكبر بالنسبة إليها.

المبحث الثالث
تنوع مجالات الإصلاح وتفاوت مراتبه

بناء علىٰ ما سبق تقريره في الحديث عن (خارطة الثغور) فإنّ من الخطأ اختزال الإصلاح في درجة واحدة أو ثغر واحد، فالمساحة واسعة عظيمة تتطلب اشتغالا تكامليا تتوزع فيه الجهود علىٰ الثغور، وإذا نظرنا إلىٰ الواقع الإسلامي سنجد أن من الإشكالات التي حصلت في بعض مساحاته: حصر آفاق الإصلاح في أفق واحد، وتضييق مساحات العمل في مساحة واحدة، ومن ثم تعليق كل الأمل علىٰ هذه المساحة الإصلاحية التي قد تكون صحيحة في ذاتها ولكنها ليست كافية، أو لا يمكن تحقيقها، وأحيانًا يكون الخلل في طبيعة الثمرة المرجوة من الإصلاح، وأحيانًا في طبيعة العلاقة بين العمل والثمرة، ومن ثم ينتج عن ذلك كله أنواعٌ من المشكلات بين العاملين والمصلحين، وبعكس ذلك؛ فإن ضبط التصور في هذا المجال يؤدي إلىٰ ثمرات حسنة كثيرة جدا، وهذا شيء من التفصيل لما سبق:

صور اختلال التصور تجاه الثمرة الإصلاحية:

١- حصر الثمرة في المكتسبات المحسوسة فقط، وعدم الاهتمام بالنجاح المعنوي المتمثل في بذل الأسباب والاجتهاد في تحقيقها وفي الثبات علىٰ الحق، وهذا الحصر فيه إشكال كبير، فقد تكون أعظم الثمرات في بعض المقامات:

كلمة حق في وجه سلطان جائر، ولو كان عاقبتها القتل أو السجن، كما فعل السحرة الذين آمنوا وتحدوا فرعون بإيمانهم، وقد يكون المطلوب من المصلحين في بعض الأزمان: الصبر والتقوىٰ كما قال موسىٰ عليه السلام لقومه ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾ وذلك حين قالوا له: ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾.

٢- ضيق الأفق تجاه تنوع مجالات الإصلاح وتعددها، والظن بأن ما يُصلح الأمة اليوم إنما هو مشروع واحد، أو مجال واحد، فالبعض يرىٰ أن الإصلاح إنما يكون عبر القتال فقط، والبعض الآخر يرىٰ أن الإصلاح إنما يكون عبر المشاركة السياسية وصناديق الاقتراع، وغيرهم يرىٰ أن الإصلاح إنما يكون بإصلاح العقيدة وتخليصها من البدع والشركيات، وهذا الحصر كله غير صحيح -بغض النظر عن الظروف والملابسات المتعلقة بكل وسيلة بعينها ومدىٰ مشروعيتها بناء علىٰ هذه الملابسات؛ فالقصد ليس تقييم هذه الوسائل وإنما بيان إشكال أساس فكرة الحصر-.

٣- حصر الثمرة في درجة محددة من النتائج العالية، وعدم الرضا بالثمرات الجزئية أو المرحلية -حال عدم إمكان تحقيق الدرجات العليا- وهذه صورة من صور الخلل، حيث ينبغي علىٰ المصلح أن يرضىٰ ببعض الخير الأدنىٰ حال تعذر ما هو أعلىٰ.

٤- تحجيم مستوىٰ النتائج، وخفض سقف الآمال، والقناعة بالدرجات الدنيا منها حال إمكان تحقيق ما هو أعلىٰ، وهذا الخلل بعكس الخلل المذكور في الصورة السابقة.

٥- عدم وضوح الرؤية تجاه ما ينبغي تحقيقه من العمل، وما ينبغي أن يُجتهد لتحصيله من الثمرات، والمطلوب من المصلح أن يتصور طبيعة الثمرة التي يسعىٰ لتحقيقها دون أن يحصر الأمل كله في هذه الثمرة، وإنما ليركز جهوده، ويُحسّن من عمله، ويتخذ الأسباب المناسبة لتحقيق هذه الثمرة.

٦- الانحراف في قبول الثمرات الخاطئة من أساسها، بناء علىٰ معيار خاطئ للنجاح والفشل في الإصلاح.

المآلات الفاسدة للخلل في تصور ثمرة العمل الإصلاحي:

١- اليأس والإحباط حين لا تتحقق النتائج والثمرات المرجوة، وترك العمل بسبب ذلك، والخلل هنا يكمن في تعليق العمل علىٰ النتيجة، وهذا خطأ؛ فإن من القواعد المهمة في العمل الإصلاحي: (**العمل شرط لتحقيق الثمرة، وتحقيق الثمرة ليس شرطًا للعمل**) أي أن المصلح لا يشترط ضمان تحقق النتيجة حتىٰ يعمل، بل ينظر إلىٰ العمل علىٰ أنه عبودية لله تعالىٰ، ويسعىٰ -في نفس الوقت- لتحقيق أفضل النتائج والثمرات دون اشتراط أو تعليق للعمل علىٰ ضمان تحقيق الثمرة، والشرط (لا يلزم من وجوده الوجود) وإنما (يلزم من عدمه العدم) كما يقول الأصوليون.

٢- تعطيل الطاقات، وذلك بأن تنصرف جهود العاملين إلىٰ نوع محدد من الثمرة دون غيره، وهذا يحدث نتيجة لاعتقاد انحصار الثمرات في شيء واحد، ومجال واحد، وهذا ينتج عنه مآل فاسد آخر، وهو التالي:

٣- ازدياد الهوة في الثغور الأخرىٰ غير المعمول عليها، وذلك حين يتكدس العاملون في ثغر واحد أو مجموعة محدودة من الثغور، فتزداد مساحة الثغور الأخرىٰ وتتعقد مشكلاتها، وقد ينتج عن هذا مآل فاسد ثالث، وهو:

٤- ازدراء العاملين في الثغور الأخرىٰ التي يحققون بها ثمرات مختلفة عن مستوىٰ الثمرة التي يراها من حصر الإصلاح في مجال واحد أو ثمرة واحدة.

٥- إحداث حالة من التنازع والتفرقة بين العاملين؛ لعدم تقبلهم أو تقديرهم لمجالات الإصلاح المخالفة لطريقتهم.

٦- التشتت، وهذا يحصل من ضبابية الرؤية المشار إليها في صور الخلل.

٧- التوقف عند تحقيق درجة الأمل المنشودة، وعدم الاستمرار في العمل والتطوير، وعدم الثبات علىٰ المبادئ، وذلك بسبب تعليق النفس بالثمرة، فإن تحققت توقف العمل والتحسين، ولذلك نجد أن بعض الانحرافات المنهجية والفكرية إنما تحصل عند تحقيق المكتسبات، وهذه السلبية في غاية الخطورة، وإذا نظرنا للوحي فيما هو متصل بهذه السلبية نجد أن موسىٰ عليه السلام قال لقومه الذين آمنوا ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فلم يجعل الاستخلاف في الأرض -علىٰ عظمته- هو الغاية ولا هو الوصول والبلوغ، وإنما هو مرحلة جديدة من الاختبار والامتحان: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، ولا شك أنّ التربية علىٰ هذا المعنىٰ يجعل المؤمنين في حالة استنفار دائم للتصحيح والالتزام وتحقيق العبودية لله في كل الأحوال: في البلاء والنعيم، وفي الشدة والرخاء، وفي الاستضعاف والتمكين. ومما يشهد لهذا المعنىٰ، ما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا فتحت عليكم فارس والروم، أي قوم أنتم؟!» قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله. قال رسول الله ﷺ: «أو غير ذلك!، تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين، فتجعلون بعضهم علىٰ رقاب بعض»[(١)]. وهذا الحديث عظيم في لفت الانتباه إلىٰ عدم الاغترار عند مرحلة تحقيق المكتسبات، وأي مكتسب أعلىٰ من الفتح لكنوز كسرىٰ وقيصر بالجهاد في سبيل الله ومع كبار أصحاب رسول الله ﷺ؟ومع ذلك يُحذرهم وينبههم المصطفىٰ إلىٰ الإشكال القلبي والتحدي الداخلي الذي يمكن أن يؤثر علىٰ نفوسهم في تلك المرحلة العظمىٰ من الإنجاز، فحين أخبروه أنهم سيكونون علىٰ ما يحب، قال: (أو غير ذلك: تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون).

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٦٢)

المآلات الحسنة لضبط التصور تجاه النتائج والثمرات:

١- استثمار الطاقات، وملء الساحة بالعاملين، وهذا من أهم ما ينتج عن توسيع الأفق تجاه تنوع مجالات الإصلاح، وتعدد الثغور، إذ ليس كل عامل يمكنه أن يسعىٰ لتحقيق الدرجات العالية من النتائج، وليس مطلوبا من جميع المصلحين أن يقدموا نفس المستوىٰ من العمل والجهد، ولا أن يسعوا إلىٰ تحقيق نفس النتائج والثمرات، ومما يدل علىٰ هذا المعنىٰ من السنة ما أخرجه أصحاب السنن عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضّر الله امرأ سمع منا حديثا فحفظه حتىٰ يبلغه؛ فرب حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه»(١) وعن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»(٢). وما يدل علىٰ ذلك كذلك: ما أخرجه مسلم في صحيحه عن جرير رضي الله عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة، مجتابي النمار، أو العباء متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأىٰ بهم من الفاقة، فدخل، ثم خرج فأمر بلالا، فأذن، وأقام، فصلىٰ، ثم خطب، فقال: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ إلىٰ آخر الآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾، والآية التي في الحشر ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ تصدق رجل من ديناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتىٰ قال: ولو بشق تمرة». قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتىٰ رأيت كومين من طعام، وثياب حتىٰ رأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة»(٣).

---

(١) سنن أبي داود (٣٦٦٠) سنن الترمذي (٢٦٥٦) سنن ابن ماجه (٢٣٠)

(٢) صحيح البخاري (٤٩٤٩) صحيح مسلم (٢٦٤٧)

(٣) صحيح مسلم (١٠١٧)

(هكذا تدفق حثّه ﷺ أصحابه علىٰ إعانة هؤلاء القوم إلىٰ أسماعهم مختومًا بـ (شق تمرة)، أما الدنانير والدراهم والثياب فقطعا سيستفيد منها هؤلاء الفقراء، وكذلك البر والشعير، ولكن نصف التمرة ما الذي سيُغنيه؟ هذه التمرة لا تُغني ولكنها تعني، إنها تعني حرارة الفؤاد وحياة الضمير وإحياء مبدأ المسؤولية تجاه حاجة المسلمين. لقد كان النبي ﷺ يعلم أن أصحابه متفاوتين من حيث القدرة علىٰ إعانة هؤلاء المحتاجين، ففتح لهم فرص البذل ولو بأدنىٰ ما يمكن، فيكون دور القادرين منهم تقديم ما يُغني ودور العاجزين منهم تقديم ما يعني)[١].

٢- الإخلاص، وذلك بسبب التطلع الدائم لمعنىٰ العبودية والعمل، وأن الثمرات لا تنفع العامل دون إخلاص.

٣- التوكل والاعتصام ودوام التعلق بالله تعالىٰ؛ لأن المصلح يؤمن إيمانا تاما أن النتائج منه وحده سبحانه، فيستمد العون منه لتحقيقها.

٤- ملء الثغور، وذلك أنَّ خارطة المشكلات واسعة متشابكة، ولا بد من تنوع درجات الإصلاح بين المصلحين حتىٰ يمكنهم تغطية أكبر رقعة من مساحة الثغور.

٥- التكيف مع الظروف وعدم الانهزام والانكفاء حال عدم تحقيق النتائج.

٦- اختصار الأوقات، وتوفير الموارد والجهود، وذلك أن تحديد الثمرة والتركيز في العمل عليها.

وبناء علىٰ كل ما سبق، فسأذكر الآن درجات الثمرات، ومراتب الإصلاح، وهي من أهم ما يعين المصلح علىٰ فهم خارطة العمل، ويسهل له ضبط بوصلته، وبناء مشاريعه، والاستقرار في طريقه -بإذن الله تعالىٰ-.

---

(١) من مقال لي بعنوان: (تعني . . ولو كانت لا تُغني)

تنوع مجالات الإصلاح وتفاوت مراتبه

صور اختلال التصور تجاه الثمرة الإصلاحية

١- حصر الثمرة في المكتسبات المحسوسة فقط، وعدم الاهتمام بالنجاح المعنوي المتمثل في بذل الأسباب والاجتهاد في تحقيقها وفي الثبات على الحق.
٢- ضيق الأفق تجاه تنوع مجالات الإصلاح وتعددها، والظن بأن ما يُصلح الأمة اليوم إنما هو مشروع واحد، أو مجال واحد.
٣- حصر الثمرة في درجة محددة من النتائج العالية، وعدم الرضى بالثمرات الجزئية أو المرحلية.
٤- تحجيم مستوى النتائج، وخفض سقف الآمال، والقناعة بالدرجات الدنيا منها حال إمكان تحقيق ما هو أعلى.
٥- عدم وضوح الرؤية تجاه ما ينبغي تحقيقه من العمل، وما ينبغي أن يُجتهد لتحصيله من الثمرات.
٦- الانحراف في قبول الثمرات الخاطئة من أساسها، بناء على معيار خاطئ للنجاح والفشل في الإصلاح.

المآلات الفاسدة للخلل في تصور ثمرة العمل الإصلاحي

١- اليأس والإحباط حين لا تتحقق النتائج المرجوة.
٢- تعطيل الطاقات.
٣- ازدياد الهوة في الثغور الأخرى غير المعمول عليها.
٤- التشتت.
٥- ازدراء العاملين في الثغور الأخرى.
٦- إحداث حالة من التنازع والتفرقة بين العاملين.
٧- التوقف عند تحقيق درجة الأمل المنشودة.

المآلات الحسنة لضبط التصور تجاه النتائج والثمرات

١- استثمار الطاقات، وملء الساحة بالعاملين.
٢- الإخلاص.
٣- التوكل والاعتصام ودوام التعلق بالله تعالى.
٤- ملء الثغور.
٥- التكيف مع الظروف وعدم الانهزام والانكفاء حال عدم تحقيق النتائج.
٦- اختصار الأوقات، وتوفير الموارد والجهود.

المبحث الرابع
بيان درجات الإصلاح ومراتبه

سأسير في بيان درجات الإصلاح ومراتبه علىٰ تقسيم الثغور إلىٰ دائرتين:

الأولىٰ: الثغور المتعلقة بالحق وحملته.

والثانية: الثغور المتعلقة بالباطل ومشكلاته.

وفي كل منهما درجات في الإصلاح ينبغي مراعاتها:

الدائرة الأولىٰ: الإصلاح المتعلق بالحق وحملته، وهذا فيه قسمان:

الأول: مجالات متعلقة بالحق في ذاته.

والثاني: مجالات متعلقة بحملته.

فأما الأول: فإن المشاريع التي يمكن إقامتها في خدمة الحق في ذاته تتنوع إلىٰ مجالات وتتفاوت إلىٰ درجات، ومنها:

١- حفظ مصادر الدين (الكتاب والسنة) ونقلُهما، ويدخل في ذلك العناية بتحفيظ القرآن وتحفيظ السنة، وخدمة علومهما.

٢- حفظُ مصادر العلم والفقه في الدين ونقلُها وخدمتها، ومن ذلك خدمة الكتب الشرعية المعتبرة، والمحافظة علىٰ مكانة أئمة المسلمين وحملة الدين، والعناية باللغة العربية.

٣- المحافظة علىٰ علوم الشريعة وتدريسها وإبقاء سنة تداول العلم.

٤- التفقه في الدين، والاستنباط من مصادره وأصوله، وتنزيل الأحكام علىٰ الواقع.

٥- تثبيت أصول الإسلام الكبرىٰ في النفوس والعناية بها تبليغا واستدلالًا وتثبيتًا.

٦- استخراج الأصول المثبتة للحق المضادة للشبهات والإشكالات المنتشرة في الواقع.

٧- تنقية الحق مما يشوبه في كل زمن من شوائب تكدر صفوه، وهذا قدر مهم من المحافظة علىٰ الحق، والعمل عليه يُعدّ من المشاريع المهمة.

فهذه كلها مجالات متعلقة بالحق في ذاته، وما كان منها متعلقا بالتفقه والاستنباط والاتصال بالواقع وتفعيل مرجعية الوحي فيه فهو أكمل مما كان متعلقا بالحفظ والنقل فقط.

وأما الثاني: فإن المشاريع التي يمكن إقامتها في سياق حَمَلة الحق، تتفاوت إلىٰ درجات كذلك، وهذا بيان شيء منها مرتبة من الدرجات الدنيا إلىٰ العليا:

١- مشاريع يُعتنىٰ فيها بتخفيف الفساد لدىٰ المستهدفين بها أو بمعالجة بعض المشكلات المنتشرة بينهم -كمشكلة الشذوذ أو المخدرات أو مشاهدة الإباحيات-، ولا يعتنىٰ فيها بالبناء الشرعي المحض ولا بتحفيظ القرآن والتكوين المعرفي، وهذه الدرجة لا تُخرّج حملة للحق عاملين لنصرته، وإن كانت تُقرّب الشريحة المستهدفة من الدرجات البِنائية التكوينية، وسيأتي بيان ضوابط القيام بهذا النوع من المشاريع.

٢- مشاريع يُعتنىٰ فيها بتحقيق الحد الأدنىٰ من التكوين الشرعي للطلاب، فيعتنىٰ فيها بالتحفيظ وتعليم الأساسيات من الدين، فيكون المُخرَج من المشروع: حَمَلة قادرون علىٰ تبليغ ما حفظوا وتعلموا من الأسس ولكنهم غير قادرين علىٰ

تفقيه الناس في الدين فضلا عن القيام بالإصلاح علىٰ المستوىٰ الواسع، وهذه درجة دنيا من المشاريع المتعلقة بالحملة.

٣- ومنها مشاريع أعلىٰ منها يعتنىٰ فيها بالبناء الشرعي المتقدم، والتأصيل المنهجي، بالإضافة إلىٰ الحفظ، فيكون المُخرج من المشروع حَمَلة قادرين علىٰ تعليم العلوم الشرعية والإسلامية، وتفقيه الناس في الدين علىٰ المستوىٰ العلمي النظري، وهذه درجة أعلىٰ من سابقتها.

٤- ومنها مشاريع تضيف إلىٰ الدرجة السابقة جوانب من التربية العملية والتزكوية وإصلاح النفوس، فيُعتنىٰ فيها بالتكوين العلمي الشرعي المتين بالإضافة إلىٰ البناء التربوي والاستصلاح القلبي، وهذا أكمل من مجرد التعليم النظري مهما علت درجته، بل إنَّ من الخلل في كثير من المشاريع التي تعتني بالبناء عدم اعتنائها بالجانب التزكوي والتربوي، بينما هو من الأعمال الكبرىٰ للنبي ﷺ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

٥- ومنها مشاريع تضيف إلىٰ كل ما سبق: تعليم الحَمَلة سُبُل الإصلاح في الأرض، والقيام العملي بذلك، وصناعة الربانيين، وهذا هدي الأنبياء مع أتباعهم، كما قال الطبري مفسرًا قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ قال رحمه الله: (فمعنىٰ الآية: ولكنْ يقول لهم -أي النبيّ-: كونوا، أيها الناس، سادة الناس، وقادتهم في أمر دينهم ودنياهم، ربَّانيِّين بتعليمكم إياهم كتاب الله وما فيه من حلال وحرام، وفرض وندب، وسائر ما حواه من معاني أمور دينهم، وبتلاوتكم إياه ودراسَتِكموه)[1] فلاحظ كيف جمع في هذا النص بين مهام الحَملة المذكورة في الدرجات السابقة.

٦- ومنها مشاريع تعتني أن يكون هؤلاء المصلحون -المذكورون في الدرجة السابقة- نماذج معيارية يقاس عليها، ويحتذىٰ بها، ويُقتفىٰ سبيلها في

(١) تفسير الطبري (٥/ ٥٣٣) تحقيق: عبد الله التركي

الإصلاح، فتَجمَع إلىٰ قيامها العملي بالإصلاح إلىٰ أن يكون بناؤها وعملها علىٰ مستوىٰ تجديدي تصحيحي معياري يوافق سبيل الأنبياء وصفات المصلحين، وينفي الدخن والخلل المتسلل إلىٰ السياقات الإصلاحية العاملة. **وهذه أعلىٰ الدرجات، وهي التي أدعو في هذا الكتاب إلىٰ العناية بتكوينها**، وذكرتُ فيه صفاتهم وما ينبغي أن يكونوا عليه في الفصول القادمة.

الدائرة الثانية: دائرة مقاومة الباطل ومشكلاته، وتنقسم إلىٰ قسمين:

الأول: مدافعة مصادر الباطل ومقاومتها (ويتم التركيز فيها علىٰ الرموز والمؤسسات المولّدة للفساد والناشرة له)الثاني: معالجة الآثار الناجمة عن الباطل في الواقع (ويتم التركيز فيها علىٰ الشرائح المتأثرة بالفساد).

وفي كل من هذين القسمين درجتان (تخفيف الفساد، وحلّ المشكلات):

أولًا: درجة تخفيف الفساد:

والمقصود بها: العمل علىٰ إصلاح قَدر من الفساد دون قصد إنهاء أصله أو القضاء عليه، وإنما تخفيف درجته، بحيث تبقىٰ درجة من هذا النوع من الفساد موجودة يُعتبر استمرارها أثناء انطلاق المشروع، وقد يُتعايَش معها -دون تشريع لها- بناء علىٰ دفع المفسدة الأكبر منها.

وهذه الدرجة هي الدرجة الأدنىٰ من درجات الثمرات والمشاريع في مقاومة الباطل، وهي علىٰ نوعين:

أ- التخفيف الشمولي للفساد.

ب- التخفيف الجزئي للفساد.

فأما النوع الأول، وهو التخفيف الشمولي، فإنه لا يتم إلا عبر الوصول إلىٰ مناطق صناعة القرار العليا، ومن ثم اتخاذ إجراءات وقرارات تدريجية، تسعىٰ إلىٰ تخفيف آثار الفساد السابقة، بالطرق القانونية التي يسوّغها الدستور الوضعي،

وكثيرًا ما يكون غاية الطموح في هذا النوع: الوصول إلىٰ حالة المساواة بين المتدينين وبين العلمانيين، بحيث تكون هناك حرية للتعبد وللدعوة والعمل.

وهذا النوع غير مقصود في هذه المادة، وغير داخل في رؤيتها المنهجية، وذلك لعدة أسباب متعلقة بالتجارب الإسلامية السابقة، منها:

- أنّ فواتير الخسائر في جمهور تلك التجارب كانت باهظة، علىٰ المستوىٰ العقدي والمنهجي وعلىٰ صعيد الهوية، بل وحتىٰ علىٰ المستوىٰ المادي.

- أن كثيرًا من التجارب لم تحقق تخفيف الفساد، فضلا عن إيجاد المكتسبات.

- بعض التجارب كانت جزءًا من الفساد الذي سعت لمحاربته، كما حصل في تبني التطبيع مع الكيان الصهيوني من بعض الرموز الإسلامية السياسية.

- من إشكاليات أغلب هذه التجارب: اختلاط مفاهيم الضرورة بغيرها، والتباس الاستثناء بالأصل، فما يتبناه رواد تلك التجارب من مفاهيم قرروها تحت مبدأ (الضرورة) تصبح عند الأتباع (أصلا مباحًا) في حال الرخاء، بل منهم من صار ينتقد التجارب الإصلاحية التي لا تتبنىٰ الخيار الديمقراطي العلماني ويؤمن بذلك إيمانا عميقا أكثر من العلمانيين أنفسهم.

- لو افتُرض قيام تجربة ناجحة في التخفيف الشمولي فلا ينبغي النظر إليها علىٰ أنها حققت الغاية وصارت مثلا ينبغي أن ينصرف إليه العاملون، بل غاية ما فيها أنها نجحت في تخفيف (جُزء) من الفساد، وقد يكون جزءًا مهما جدا فينبغي أن يُفرح به ويُشكر أصحابه، ولكن مع العلم بأن الذي بقي منه أكثر بكثير مما تم إصلاحه أو تخفيفه، فيُنظَر إلىٰ مكتسباتها باعتدال وفهم وتوسط بدون غلو ومبالغة وبدون جفاء وجحود.

وأما النوع الثاني وهو التخفيف الجزئي: فالمقصود به تخفيف الفساد في بعض المجالات المحدودة المتعلقة بمشكلات معينة، كمشكلة التفاهة،

أو المخدرات، أو الشذوذ، أو ضياع الأوقات، أو التهاون في الصلوات، ونحو ذلك.

وهذا النوع يشمل القسمين المذكورين في دائرة الباطل ومشكلاته، فيشمل:

١- تخفيف الفساد من مصدره، كأن يهدف مشروع إصلاحي إلىٰ محاربة المصادر التي تبث الشذوذ الجنسي وتروج له، فيستهدفون إحدىٰ المنصات المروجة للأفلام السيئة فينتجون فيها أفلاما جاذبة، فيها محاربة ناعمة لقضية الشذوذ، وبطبيعة الحال فإن هذه الأفلام لن تخلو من بعض الإشكالات لتتماشىٰ مع المعايير التأثيرية المعتبرة، فهذا هو النوع الأول من أنواع تخفيف الفساد الجزئي.

٢- ويشمل تخفيف الفساد في شريحة محددة متأثرة به، لا في أصل المصدر الذي يبث الفساد، وذلك كأن يُنشأ مركز تربوي يهدف منه القائمون عليه إلىٰ تخفيف مشكلة التفاهة لدىٰ الشريحة المستهدفة من المركز -ولنفترض أنهم ٤٠ طالبا-، وذلك عبر إشغالهم بالترفيه النظيف الهادف، البعيد عن أجواء السب والشتم والانغماس في اللعب غير الهادف.

وهذان النوعان من تخفيف الفساد الجزئي -علىٰ أنهما في أدنىٰ الدرجات- إلا أنه يُمكن اعتبارهما ضمن المشاريع الإصلاحية المعتبرة في خارطة الثغور ولكن بضوابط وتنبيهات يجب مراعاتها، وهي:

١) الضرورة أو الحاجة الماسة بسبب ظرف خارجي، كأن تكون قوانين البلد التي يعيش فيها المصلح تحارب التعليم الإسلامي والمعاهد الشرعية، أو بسبب مانع داخلي كعدم القدرة أو الإمكان للقيام بدرجة أعلىٰ.

٢) عدم اعتبار هذا التخفيف غاية، وإدراك كونه استثناء يُسعىٰ لرفعه، فضلا عن أن يُعدّ هذا النوع من المشاريع هو الدليل علىٰ الوعي والتجديد وما إلىٰ ذلك.

٣) عدم الإخلال بالمحكمات الشرعية.

٤) ألا يؤدي إلىٰ فساد أكبر منه ولو في جانب آخر.

ثانيًا: درجة حل المشكلات:

والفرق بين درجتي تخفيف الفساد وحل المشكلات، أن تخفيف الفساد قد يُرضىٰ فيه بقدر من المشكلة، بينما درجة حل المشكلات يُسعىٰ فيها إلىٰ القضاء علىٰ أساس المشكلة إما من مصدرها المولّد لها وإما في الشريحة المستهدفة بالإصلاح.

وتتفاوت درجات المشكلات التي ينبغي أن تُقام المشاريع الإصلاحية لمقاومتها، وقد ذكرت هذه الدرجات ومعاييرها في المبحث القادم (اختيار المشروع الإصلاحي) فلتُستصحب هذه المقدمة أثناء قراءته.

وتنقسم المشاريع الإصلاحية المتعلقة بمعالجة المشكلات إلىٰ قسمين أساسيين:

القسم الأول: مشاريع نظرية تعتني بدراسة المشكلات وتحليلها وتقديم الخطط النظرية في التعامل معها. وهذا النوع فيه مشاريع متعددة، منها:

- رسم خارطة الثغور، وهو مشروع ضخم من أهم المشاريع التي تحتاجها الساحة، وقد سبق بيانه في هذا الكتاب.

- تحليل المشكلات المنتشرة في الواقع من جهة تاريخها، ومظاهرها، وأسبابها، وسبل الوقاية منها، وكيفية التعامل معها.

- العمل علىٰ الدراسات المستقبلية المتعلقة بمآلات المشكلات الحالية، أو بما يتوقع من مشكلات مستقبلية مستجدة.

القسم الثاني: مشاريع عملية تتعامل مع المشكلات علىٰ المستوىٰ العملية، وتنقسم إلىٰ:

- مشاريع وقائية.

- مشاريع علاجية.

وسيأتي مزيد من التفصيل حول موضوع المشكلات في المبحث القادم.

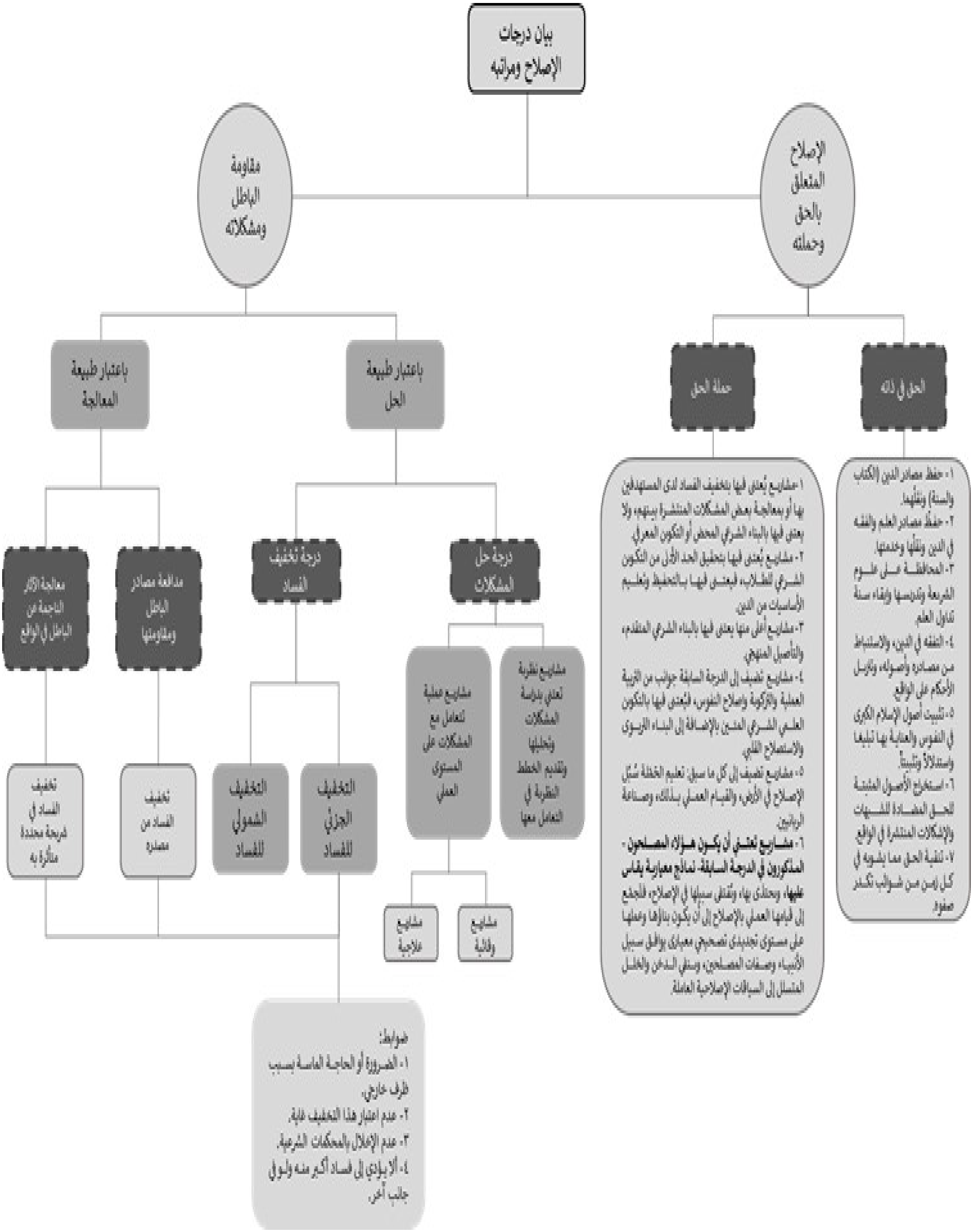
بيان درجات الإصلاح ومراتبه
الإصلاح المتعلق بالحق وحملته
مقاومة الباطل ومشكلاته
الحق في ذاته
حملة الحق
١- حفظ مصادر الدين (الكتاب والسنة) ونقلهما.
٢- حفظ مصادر العلم والفقه في الدين ونقلها وخدمتها.
٣- المحافظة على علوم الشريعة وتدريسها وإبقاء سنة تداول العلم.
٤- التفقه في الدين، والاستنباط من مصادره وأصوله، وتنزيل الأحكام على الواقع.
٥- تثبيت أصول الإسلام الكبرى في النفوس والعناية بها تبليغا واستدلالاً وتثبيتاً.
٦- استخراج الأصول المثبتة للحق المضادة للشبهات والإشكالات المنتشرة في الواقع.
٧- تنقية الحق مما يشوبه في كل زمن من شوائب تكدر صفوه.
١- مشاريع يُعنى فيها بتخفيف الفساد لدى المستهدفين بها أو بمعالجة بعض المشكلات المنتشرة بينهم، ولا يعتنى فيها بالبناء الشرعي المحض أو التكوين المعرفي.
٢- مشاريع يُعنى فيها بتحقيق الحد الأدنى من التكوين الشرعي للطلاب، فيعتنى فيها بالتحفيظ وتعليم الأساسيات من الدين.
٣- مشاريع أعلى منها يعتنى فيها بالبناء الشرعي المتقدم، والتأصيل المنهجي.
٤- مشاريع تضيف إلى الدرجة السابقة جوانب من التربية العملية والتزكية وإصلاح النفوس، فيُعتنى فيها بالتكوين العلمي الشرعي المتين بالإضافة إلى البناء التربوي والاستصلاح القلبي.
٥- مشاريع تضيف إلى كل ما سبق: تعليم الخلفة سُبُل الإصلاح في الأرض، والقيام العملي بذلك، وصناعة الربانيين.
٦- مشاريع تعتني أن يكون هؤلاء المصلحون - المذكورون في الدرجة السابقة- نماذج معيارية يقاس عليها، ويحتذى بها، وتقتفى سبيلها في الإصلاح، فالجمع إلى قيامها العملي بالإصلاح إلى أن يكون بناؤها وعملها على مستوى تجديدي تصحيحي معياري يوافق سبيل الأنبياء، وصفات المصلحين، وينفي الدخن والخلل المتسلل إلى السياقات الإصلاحية العامة.
باعتبار طبيعة الحل
باعتبار طبيعة المعالجة
درجة حل المشكلات
درجة تخفيف الفساد
مدافعة مصادر الباطل ومقاومتها
معالجة الآثار الناجمة من الباطل في الواقع
مشاريع نظرية تعتني بدراسة المشكلات وتحليلها وتقديم الخطط النظرية في التعامل معها
مشاريع عملية لتعامل مع المشكلات على المستوى العملي
التخفيف الجزئي للفساد
التخفيف الشمولي للفساد
تخفيف الفساد من مصدره
تخفيف الفساد في مرحلة محددة متأثرة به
مشاريع وقائية
مشاريع علاجية
ضوابط:
١- الضرورة أو الحاجة الماسة بسبب ظرف خارجي.
٢- عدم اعتبار هذا التخفيف غاية.
٣- عدم الإخلال بالمحكمات الشرعية.
٤- ألا يؤدي إلى فساد أكبر منه ولو في جانب آخر.

المبحث الخامس
اختيار المشروع الإصلاحي

عوامل اختيار الثغر المناسب للمشروع الإصلاحي:

من المهم في سياق اختيار المشروع الإصلاحي: الإيمان بمركزية الاستهداء بالله تعالىٰ، وطلب الخيرة منه، والإدراك التام بأنَّ من أهم متعلقات الهداية بالنسبة للمصلح: الهداية إلىٰ أفضل طرق الإصلاح وإلىٰ حُسن التقدير لكل مرحلة إصلاحية بما يناسبها، ومما يُستأنس به في هذا السياق قول موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾. ومن الخطأ التعامل مع المشاريع الدعوية بمصفوفات تخطيطية جامدة دون استحضار هذا المعنىٰ، فقد يفتح الله علىٰ بعض عباده في هدايتهم إلىٰ أفضل طرق الإصلاح ما لا يتم بكثير من وسائل القياس، وهذا من البصيرة المترتبة علىٰ الهداية والعلم، وإذا انضاف إلىٰ ذلك حسن النظر والقياس والتخطيط واستعمال ما استجد من وسائل التفكير فهذا خير إلىٰ خير، ولكن من الخطأ الانحصار فيها.

ثم من حيث خطوات اختيار الثغر، فيمكننا أن نقول: إن عوامل اختيار الثغر بالنسبة للمصلح تستند إلىٰ عاملين أساسيين: أحدهما ذاتي، والآخر موضوعي.

فأما الذاتي فهو المتعلق بالمصلح نفسه وقدراته ورغبته والظروف المحيطة به.

وأما الموضوعي فهو المتعلق بالثغر نفسه ومشكلاته، من حيث خطورتها وامتدادها وتأثيرها.

والاختيار يكون بمجموع هذه العوامل لا بواحد منها، فإذا ترجح بالعامل الأول مشروعٌ ما، فإن هذا لا يكفي حتىٰ يُنظر إلىٰ بقية العوامل ثم يكون الترجيح بالأكثر مناسبة من بين كل العوامل بطريق اجتهادي مرن.

العوامل الموضوعية المساعدة علىٰ اختيار المشروع الإصلاحي:

تستند فكرة العوامل الموضوعية علىٰ تفاوت أهمية الثغور في ذاتها، فتقدم الثغور الأكثر أهمية علىٰ ما دونها، وقد سبق تقسيم مشاريع الإصلاح إلىٰ دائرتين: دائرة الحق وحملته، ودائرة مقاومة الباطل، وهذا بيان لبعض الأولويات والمعايير التي تكشف عن أهمية المشاريع في كلٍّ من دائرتي الحق والباطل.

أولًا: أولويات المشاريع في دائرة الحق وتثبيته: قد تكتسب المشاريع أولويتها وأهميتها من جهة ما يتعلق بها من الحق في ذاته لا من طبيعة المشكلات التي تعالجها، وذلك كالمشاريع المتعلقة بالمحافظة علىٰ أصل الدين وفرائضه ومحكماته، والمعيار في الأولوية فيها: ما جاء في الوحي من تقديم وتعظيم وأفضلية لهذا الباب علىٰ غيره، كما ثبت في حديث معاذ ﵁ حين بعثه رسول الله ﷺ إلىٰ اليمن فقال: (إنك تأتي قوما من أهل الكتاب، فادعهم إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم، فترد في فقرائهم..)[1] فإذا اجتمع مع هذه الأولوية للحق في ذاته كونه معالجًا لمشكلات الواقع تزداد الأهمية.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨) ومسلم (١٩)

وهذا ذكر لبعض الأولويات كذلك في هذه الدائرة:

- ما كان من المشاريع متعلقًا بأصول الحق ومركزياته، فهو أولىٰ مما يخدم فروعه وتفصيلاته.

- ما كان من المشاريع متعلقًا بباب ورد تعظيمه وتفضيله في الوحي فهو أولىٰ مما لم يرد فيه التفضيل.

- ما كان من المشاريع البِنائية يؤثر في مقاومة الباطل المنتشر في الواقع، فهو أولىٰ من المشاريع البنائية التي لا تؤثر في مقاومة الباطل أو الوقاية من آثاره.

- ما كان من المشاريع محققا لمقاصد الحق والعلم والخير فهو أولىٰ من المشاريع التي لا تحقق مقاصده، وإنما تكتفي بمقدماته وتفصيلاته.

- ما كان من المشاريع فيه عناية بأبواب العلم والحق التي كثر إنكارها والتشكيك فيها في الواقع فهو أولىٰ من المشاريع المتعلقة بما هو محل تسليم واتفاق.

- ما كان من المشاريع فيه الجمع بين العلم والعمل فهو أولىٰ من المشاريع المكتفية بالعلم وحده.

- ما كان من المشاريع متعلقا بتخريج المصلحين والدعاة فهو أولىٰ من المشاريع التي تكتفي بتحقيق الدرجات الدنيا من الصلاح والبناء في المستهدفين.

- ما كان من المشاريع مُنشئًا للمعايير الصحيحة، ومُفعّلًا لها فهو أولىٰ من المشاريع التي تفتقد ذلك.

ثانيًا: أولويات المشاريع بناء علىٰ معايير خطورة المشكلات ومستوىٰ الثغر:

المعيار الأول: النظر إلىٰ (مشكلة) هذا الثغر من حيث خطورتها في اعتبار الوحي والشرع، فتُقدم المشكلة المغلظة شرعا علىٰ المشكلة الأخف تغليظا في أولوية العمل، ويعتبر في هذا مثل حديث (الإيمان بضع وسبعون شعبة فأعلاها

قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق)[1]. فالمشكلات المعارضة لأعلىٰ درجات الإيمان: (لا إله إلا الله) أولىٰ بالعلاج من المشكلات المتعلقة بإماطة الأذىٰ عن الطريق.

المعيار الثاني: النظر إلىٰ المشكلة من حيث مدىٰ انتشارها في الشرائح المتصلة بها عددًا: فالمشكلات المؤثرة علىٰ شرائح واسعة أولىٰ بالعلاج من المشكلات ضيقة التأثير. وكذلك من حيث الشرائح المتأثرة بها نوعًا: فالمشكلات المتصلة بالمؤثرين من الناس أولىٰ بالعلاج من المشكلات التي لا تتماس إلا مع الشرائح الخاملة.

المعيار الثالث: النظر إلىٰ المشكلة من حيث علاقتها بغيرها من المشكلات من حيث التسبب والتوليد، فما كان من المشكلات يمكن أن يتسبب في توليد مشكلات أخرىٰ فهو أولىٰ بالعلاج من المشكلات الجامدة، ومن الأمثلة علىٰ ذلك: مشكلة النسوية، فهي من المشكلات التي ينبغي أن يكون لها أولوية في المعالجة؛ حيث تتسبب في مشكلات متعددة وتتصل بدوائر متنوعة، منها: (الأسرة، تفسير الوحي، ضمور مرجعية الوحي، المشكلة الأخلاقية، الخ).

المعيار الرابع: النظر إلىٰ المشكلة من حيث إمكان الامتداد الزمني، فما كان من المشكلات مرشحا للبقاء والامتداد الزمني فهو أولىٰ بالعلاج مما لا يحمل قابلية البقاء، ومعرفة ذلك تكون عبر عوامل متعددة، منها معرفة من يقف وراءها ويقوم بترويجها، فالمشكلات والانحرافات التي تتبناها وتروّجها السُّلطة السياسية مثلا فهي تحمل عناصر امتداد زمني أكثر من المشكلات التي تتبناها فئات مغمورة.

المعيار الخامس: النظر إلىٰ المشكلة من حيث قابليتها للمعالجة باعتبار الاستطاعة العامة لا الاستطاعة الذاتية الخاصة بالمصلح، فالمشكلات القابلة للحل والعلاج تقدم علىٰ المشكلات التي هي عصية علىٰ الحلول المجدية في هذه

---

(١) صحيح مسلم (٣٥)

المرحلة، مع التنبيه إلىٰ ضرورة السعي في حل بعض ما يتصل بها من فروع ومقدمات مما يمكن حله، مثال ذلك: المشكلات الناتجة عن أنظمة الدولة الحديثة، سواء ما اتصل منها بالتعليم أو غيره، فمعالجتها الجذرية غير ممكنة في المرحلة الحالية.

المعيار السادس: النظر إلىٰ المشكلة من حيث قابلية الهوىٰ العام لها، فالمشكلات القابلة للانتشار والقبول بسبب موافقتها للنَّفَس الثقافي العام أولىٰ بالمعالجة من المشكلات المصادمة للثقافة العامة والهوىٰ العام، لأن المشكلات المخالفة للهوىٰ العام غير مرشحة للانتشار والتأثير بسبب اصطدامها بهذا الحاجز، بخلاف ما يوافق هذا الهوىٰ، مثل المشكلات المتعلقة بملف الإنسانوية، حيث تُعدّ موافقة للهوىٰ العام وقابلة للتأثير والانتشار، وينبغي التفريق في ذلك بين البيئات في اختلاف مناخاتها من حيث القابلية، فالتشيع -مثلًا- مشروع خطر في اليمن وإن كان ليس محل خطورة في بعض البيئات الأخرىٰ، والتنصير كذلك تزداد خطورته في البيئات الفقيرة المعدومة بينما لا يُشكل خطرًا في بيئات أخرىٰ.

المعيار السابع: النظر إلىٰ المشكلة من حيث طبيعة تأثيرها علىٰ الفرد، فالمشكلات التي تتماس مع أصل الهوية للفرد أو تفسد المعايير لديه فينبغي أن تكون لها الأولوية في العلاج بخلاف المشكلات سطحية التأثير، ومما يدخل في ذلك: ما تنتجه الآلة الإعلامية في مسلسلاتها وأفلامها التي تستهدف هوية المجتمع المسلم، وتضرب معاييره الأخلاقية، وتاريخه، وأصوله، فهي من أخطر صور الشر الموجودة في الواقع.

العوامل الذاتية المعينة علىٰ اختيار الثغر:

من المهم علىٰ من يبحث عن المشروع الإصلاحي الأنسب له أن يدرك أن العوامل الموضوعية المتعلقة بالمشكلات والثغور -والتي تَبَيَّنَ تفاوتُها في الأهمية والدرجات- لا تكفي للاختيار، وإنما يجب عليه النظر في العوامل الذاتية كذلك،

والمقصود بها: المؤثرات المتعلقة بالشخص نفسه وما يحيط به من ظروف تؤثر في طبيعة عمله الإصلاحي وقدراته علىٰ القيام به، وهذا أمر في غاية الأهمية؛ لأن بعض المهتمين يتحمسون لمشروع ما من المشاريع المهمة المؤثرة، ولكنهم لا ينظرون إلىٰ مدىٰ إمكان انطلاقهم في هذا المشروع، وهل يصلح لهم من حيث العوامل الذاتية أم لا، فينتج عن ذلك: الانقطاع والتوقف والفتور؛ لعدم الشعور بالجدوىٰ.

وهذا بيان لأهم العوامل الذاتية المعينة علىٰ اختيار المشروع:

١) **القدرات والإمكانات:** فالثغور التي يمكن للمصلح أن يشتغل فيها من حيث قدراته الحالية أو المستقبلية القريبة، أولىٰ بالاختيار من الثغور التي هي أعلىٰ من قدرات المصلح وإمكاناته.

وإذا كان هناك ثغران تحت القدرة والإمكان، والمصلح متردد بينهما؛ فلينظر في أولاهما من الجهة الموضوعية، فإذا كانا متقاربين، فليختر منهما ما كانت قدراته فيه أعلىٰ.

وإذا كانت عوامل الترجيح الأخرىٰ -غير القدرة والإمكان- تُرجح الثغر الآخر الذي قدرته فيه أقل، فيمكن أن يكون مشروع المصلح لمدة معينة مشروعَ بناءٍ يكملُ فيه قدراته حتىٰ تتفق مع الثغر الآخر، وهذا أمر في غاية الأهمية، أعني الاشتغال في تكميل القدرات والبناء الذي يتطلبه الثغر أو المشروع.

٢) **الفرص:** إن من عوامل ترجيح اختيار مشروع ما: أن تكون الفرصة المحيطة بالمصلح تجاه هذا المشروع مواتية ومناسبة ليكون هذا الثغر محل العمل، كأن يكون المصلح ضمن سياق ناجح في مشروع ما، يتيح له موارد لا تتوفر له خارج هذا السياق لو عمل وحده، فهذا عامل ترجيحي مفيد حتىٰ لو لم يكن المشروع في ذاته علىٰ أعلىٰ مستويات الثغور أهمية، ولا يعني هذا أن يتنازل المصلح عن قيمة الثغر وعن أهمية المشروع، وإنما هذا عامل ترجيحي معتبر ينظر إليه المصلح ليتغاضىٰ عن بعض درجات الكمال.

٣) العوائق والتحديات: قد يتوفر للمصلح من القدرة والإمكان والفرصة ما يظن أنه كاف لاختيار المشروع، ولكنه لم يكن قد تنبّه لطبيعة التحديات والعوائق المتصلة بسيره في هذا المشروع، فالعبرة ليست بمرحلة الانطلاق في المشروع الإصلاحي، وإنما في الاستمرار فيه، ولا أقصد هنا أن مجرد وجود شيء من التحديات والعوائق فإنه يلغي اختيار المشروع، فهذا غير صحيح؛ إذ لا يخلو طريق إصلاحي من تحديات، ولكن بعض التحديات تكون عقبات كبرىٰ تقطع الطريق، فليراعِ المصلح ذلك أثناء الاختيار. وقد يكون علىٰ المصلح أن يتفرغ مُدةً يسعىٰ لإزالة هذه العوائق، ثم يرجع إلىٰ المشروع.

٤) الرغبة: إن الارتياح القلبي للعمل في مشروع ما والرغبة النفسية في الميل إليه أمرٌ معتبر في اختيار المشروع الإصلاحي، وليس المقصود بذلك الهوىٰ المجرد ولا الدعة والميل إلىٰ النعيم، وإنما المقصود به إقبال نفسه وإدبارها تجاه مجالات العطاء ونطاقات المشاريع، فمن الناس من يحبب إليه التعليم ويجد نفسه فيه؛ فيبذل فيه من الوقت والجهد ما لا يستطيعه في غيره، ومنهم من يحبب إليه التأليف والكتابة، ومنهم من يُحبب إليه تعليم القرآن وتحفيظه والتربية علىٰ أخلاقه وآدابه، وهلمّ جرّا..، فإذا وافقت الرغبة محل القدرة والفرصة مع أهمية الثغر؛ فهذا من أعظم الخير في المشاريع إن شاء الله، وهي نعمة كبيرة، مع التنبيه إلىٰ أنّ من الثغور والمشاريع ما يستوجب العمل والإقدام ولو كانت رغبة النفس بخلاف ذلك، فيُقدم المُوجِب الشرعي علىٰ الموجِب النفسي عند التعارض، كما قال الله ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾.

٥) رأي ذوي الخبرة: إن من أهم عوامل اختيار الثغر بالنسبة للمصلح: رأي ذوي الخبرة من أهل الصدق والعمل والغيرة، فمن الضروري للمصلح إذا أراد أن يختار مشروعًا يبذل فيه وقته وجهده أن يستشير من يعينه علىٰ ذلك، غير أن من المهم التنبُّه إلىٰ أنه ليس كل من اشتغل بالمجالات الشرعية أو الدعوية فإنه

يصلح للاستشارة في اختيار المشاريع بالضرورة، بل قد يكون بعض المشتغلين هؤلاء وبالًا علىٰ الإصلاح والمصلحين، حيث ينقص كثيرًا منهم الوعي بالواقع، والبصيرة بأعداء الدين، فتجدهم أحيانًا ممن يؤيد الظالمين المفسدين المحاربين للدعوة إلىٰ الله، ويظنون أنهم يحسنون صنعا، والله المستعان.

٦) **البركة**: إذا اختار الإنسان ثغرا أو مشروعا، ثم بورك له فيه، ولمس أثره علىٰ دينه وصلاح قلبه من جهة، وعلىٰ المستهدفين به من جهة أخرىٰ، فليلزم هذا الثغر وليجعله من عوامل الترجيح، وإن كان ذلك ليس كافيا وحده في الترجيح كما سبق بيانه، لكنه من العوامل المهمة، وفي المأثور عن بعض السلف (من بورك له في شيء فليلزمه).

اختيار المشروع الإصلاحي

عوامل اختيار الثغر المناسب للمشروع الإصلاحي

ذاتية

١ - القدرات والإمكانات.
٢ - الفرص.
٣ - العوائق والتحديات.
٤ - الرغبة.
٥ - رأي ذوي الخبرة.
٦ - البركة.

موضوعية

أولويات المشاريع في دائرة الحق وتثبيته:

١ - ما كان من المشاريع متعلقاً بأصول الحق ومركزياته، فهو أولى مما يخدم فروعه وتفصيلاته.
٢ - ما كان من المشاريع متعلقاً بباب ورد تعظيمه وتفضيله في الوحي فهو أولى مما لم يرد فيه التفضيل.
٣ - ما كان من المشاريع البنائية يؤثر في مقاومة الباطل المنتشر في الواقع، فهو أولى من المشاريع البنائية التي لا تؤثر في مقاومة الباطل أو الوقاية من آثاره.
٤ - ما كان من المشاريع محققا لمقاصد الحق والعلم والخير فهو أولى من المشاريع التي لا تحقق مقاصده، وإنما تكتفي بمقدماته وتفصيلاته.
٥ - ما كان من المشاريع فيه عناية بأبواب العلم والحق التي كثر إنكارها والتشكيك فيها في الواقع فهو أولى من المشاريع المتعلقة بما هو محل تسليم واتفاق.
٦ - ما كان من المشاريع فيه الجمع بين العلم والعمل فهو أولى من المشاريع المكتفية بالعلم وحده.
٧ - ما كان من المشاريع متعلقا بتخريج المصلحين والدعاة فهو أولى من المشاريع التي تكتفي بتحقيق الدرجات الدنيا من الصلاح والبناء في المستهدفين.
٨ - ما كان من المشاريع مُنشئاً للمعايير الصحيحة، ومُفعّلاً لها فهو أولى من المشاريع التي تفتقد ذلك.

أولويات المشاريع بناء معايير خطورة المشكلات ومستوى الثغر:

١ - النظر إلى (مشكلة) هذا الثغر من حيث خطورتها في اعتبار الوحي والشرع، فتُقدم المشكلة المغلظة شرعا على المشكلة الأخف تغليظا.
٢ - النظر إلى المشكلة من حيث مدى انتشارها في الشرائح المتصلة بها عدداً: فالمشكلات المؤثرة على شرائح واسعة أولى بالعلاج من المشكلات ضيقة التأثير.
٣ - النظر إلى المشكلة من حيث علاقتها بغيرها من المشكلات من حيث التسبب والتوليد، فما كان من المشكلات يمكن أن يتسبب في توليد مشكلات أخرى فهو أولى بالعلاج من المشكلات الجامدة.
٤ - : النظر إلى المشكلة من حيث إمكان الامتداد الزمني، فما كان من المشكلات مرشحا للبقاء والامتداد الزمني فهو أولى بالعلاج مما لا يحمل قابلية البقاء.
٥ - النظر إلى المشكلة من حيث قابليتها للمعالجة باعتبار الاستطاعة العامة لا الاستطاعة الذاتية الخاصة بالمصلح، فالمشكلات القابلة للحل والعلاج تقدم على المشكلات التي هي عصية على الحلول المجدية.
٦ - النظر إلى المشكلة من حيث قابلية الهوى العام لها، فالمشكلات القابلة للانتشار والقبول بسبب موافقتها للنَّفَس الثقافي العام أولى بالمعالجة من المشكلات المصادمة للثقافة العامة والهوى العام.
٧ - النظر إلى المشكلة من حيث طبيعة تأثيرها على الفرد، فالمشكلات التي تتماس مع أصل الهوية للفرد أو تفسد المعايير لديه فينبغي أن تكون لها الأولوية في العلاج بخلاف المشكلات سطحية التأثير.

المبحث السادس
واجب الوقت: «صناعة المصلحين»

إذا تأملنا في أزمة العمل الإسلامي في العقد الأخير سنجد أن من أهم العوامل الداخلية التي أسهمت في تفاقم المشكلات واشتدادها: ضعف التكوين البِنائي السابق للعاملين، ونقص الأرقام الصعبة بين المصلحين؛ فالمُخرَجات لم تكن كافية لمواجهة الأزمات، بل ولم تكن كافية لاقتناص الفرص واستثمارها، وهذا لا يُلغي خطورة الأسباب الخارجية التي حدثت؛ فهي عظيمة الخطر، غير أنها ليست كافية في استحكام آثار الفساد والشر لولا وجود الضعف الداخلي في العاملين -رؤوسًا وأتباعا-. وإذا أعدنا النظر إلىٰ الواقع سنجد أن الأسباب الخارجية في محاربة للإصلاح لا تزال مستمرة، بل ومتجددة متنامية، بل لا يبعد أن تزداد شراسة وشدة. ثم إذا التفتنا إلىٰ الواقع الإسلامي الداخلي من جهة أهليته لمواجهة هذه التحديات، ومن جهة إنتاجه للنماذج الإصلاحية القادرة علىٰ القيام بهذا الدين وحماية مبادئه وثوابته أمام كل ما يجري من الحرب عليه فإننا سنجد الضعف سمة بارزة مستحكمة، وهذا كله يوجب العناية البالغة بصناعة المصلحين، والتي أعتقد أنها أهم درجة في الإصلاح والأمل علىٰ المدىٰ المنظور، والذي أعنيه في هذه الصناعة التي بها تكون أهم واجبات الوقت من الجهة الإصلاحية: **أن تكون صناعة استثنائية تجديدية، تُخرِّج حَمَلَة للدين، يُحْيُون حقائقه، ويتفاعلون بها في الواقع بوعي وحكمة وهمة، متخذين في سبيل ذلك:**

الوحيَ مرجعيّةً، وهدي الأنبياء سبيلًا، والمدرسة المحمدية أنموذجًا، والتزكية زادًا، والعلم ضمانًا، والحكمة منهاجًا، والبصيرة دليلًا، والعمل سبيلًا، والأمة قبلةً، وإحياء الإسلام غايةً، متلمسين -مع اتخاذ الأسباب-: العون الإلهي، والتوفيق الرباني، بالتوكل والاعتصام والاتباع.

إن هذا الدين لا يقوم إلا بحَملة يسيرون به، ويتحملون أعباءه، وينتهضون بتكاليفه، ويكونون محلا لمعية الله وتأييده ومدده ونصره، ويمتثلون أوامره ويبتعدون عن نواهيه؛ كي يكونوا مثلا وقدوة يمكن اتباعهم والسير علىٰ خطاهم، وسيأتي في هذا الكتاب قسم خاص في بيان صفات الحملة علىٰ وجه التفصيل بإذن الله تعالىٰ.

المطلب الأول
الشواهد من الوحي والواقع
على مركزية (صناعة المصلحين) في السنن الإلهية:

أولًا: الشواهد من الوحي:

من يتأمل في سنة الله تعالىٰ في إقامة دينه ومحاربة الفساد في الأرض يجد أنّه سبحانه يُهيّئ من يحمل دينه من الناس، ويربيه ليكون أهلا لذلك، فيختار من عباده رسلا وأنبياء يقومون بهذا الدين في الأرض، ثم نجد أن هؤلاء المرسلين والأنبياء يعملون بدورهم علىٰ تربية من آمنوا بهم، ويهيئونهم لتحمل أعباء القيام بهذا الدين معهم ومِن بعدهم، وهذه بعض الشواهد علىٰ ذلك:

١- قصة موسىٰ عليه السلام في القرآن الكريم، وذلك من جهات:

الأولىٰ: أن الله سبحانه وصف الحال قبل إرساله فقال: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ثم ذكر سبحانه إرادته للمستضعفين بأن يجعلهم في المستقبل أئمة وينصرهم علىٰ الطاغية الظالم، فقال سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ وهاهنا النفس تتشوف لمعرفة الطريق الموصل إلىٰ هذا التغيير العظيم، كيف سيتم؟ هل سيكون بإهلاك فرعون إهلاكا مباشرًا؟ هل سيكون بإنزال جند من السماء يقاتلون فرعون

وينتصرون عليه؟ والجواب -كما هو معلوم لم يكن لا هذا ولا ذاك- وإنما كان بتهيئة موسىٰ عليه السلام وصناعته كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ والصنع: «مستعار للتربية والتنمية، تشبيها لذلك بصنع شيء مصنوع»(١) ولذلك نجد أن الآية التالية للآية التي أخبر الله فيها عن إرادته بتمكين بني إسرائيل في الأرض، هي قوله سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. وهذا المعنىٰ في غاية الأهمية لتثبيت مركزية صناعة المصلحين ومعرفة سنة الله في إقامة دينه.

الثانية: أن الله سبحانه وتعالى لم يرسل موسىٰ عليه السلام إلىٰ فرعون مباشرة قبل أن يعلمه ويربيه ويصلحه، فالمصلح يُبنىٰ قبل أن يَبْني، كما في قوله سبحانه: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ ثم قال له بعد ذلك: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾

الثالثة: أن الله سبحانه حين بعثه، طلب منه موسىٰ عليه السلام أن يهيئ له من يعينه علىٰ أعباء الرسالة من الحَمَلة، فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ وهذا يدل علىٰ أهمية الأعوان في طريق الإصلاح الذين يشتركون في حمل الرسالة وتبليغها، أو يؤازر بعضهم بعضًا، ويقوي الأتباعُ منهم حاملَ الرسالة، كما قال سبحانه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

٢- قصة زكريا عليه السلام في القرآن، وذلك حين خاف علىٰ الدين من بعده ألا يكون له من يقوم بأعبائه، سأل الله أن يهب له وليًّا يرث النبوة من بعده ويقوم بأعبائها، فقال: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ أي وراثة النبوة لا وراثة المال؛ فالأنبياء لا يورثون، وهذا يدل علىٰ أهمية إيجاد الحَمَلة الذين لا يقوم الدين إلا بهم. قال ابن كثير رحمه الله مبيّنًا مفصّلا ذلك بقوله:

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (٧/ ١٤٢)

(وجه خوفه أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفا سيئا، فسأل الله ولدا، يكون نبيا من بعده، ليسوسهم بنبوته وما يوحىٰ إليه؛ فأجيب في ذلك. لا أنه خشي من وراثتهم له ماله، فإن النبي أعظم منزلة وأجل قدرا من أن يشفق علىٰ ماله إلىٰ ما هذا حدُّه: أن يأنف من وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد، فيحوز ميراثه دونه دونهم. هذا وجه. الثاني: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجارا يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالًا، ولا سيما الأنبياء، عليهم السلام، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا. الثالث: أنه قد ثبت في الصحيحين من غير وجه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا فهو صدقة» . . ، وعلىٰ هذا فتعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي﴾ علىٰ ميراث النبوة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ كما قال تعالىٰ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: في النبوة؛ إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها.)[1]

وحين رزقه الله بيحيىٰ: هيّأه الله تعالىٰ ليقوم بذلك، فقال سبحانه: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ وهذه التهيئة ليحيىٰ، وذاك الطلب من زكريا؛ كلاهما يدلان علىٰ أهمية إيجاد المصلحين وإعدادهم.

٣- ومن الشواهد علىٰ ذلك في كتاب الله تعالىٰ كذلك: **ما جاء في شأن عيسىٰ** عليه السلام، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾.

وللإمام ابن كثير رحمه الله كلام بديع في بيان علاقة الآية بالسياق المتصل بموضوع الكتاب، فقال رحمه الله: (يقول تعالىٰ آمرا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٢١٢-٢١٣) دار طيبة.

يستجيبوا لله ولرسوله، كما استجاب الحواريون لعيسىٰ حين قال: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي: معيني في الدعوة إلىٰ الله ﷻ؟ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ -وهم أتباع عيسىٰ عليه السلام-: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: نحن أنصارك علىٰ ما أرسلت به وموازروك علىٰ ذلك؛ ولهذا بعثهم دعاة إلىٰ الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين. وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج: «من رجل يؤويني حتىٰ أبلغ رسالة ربي، فإن قريشا قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي» حتىٰ قيض الله ﷻ له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه ووازروه، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إنْ هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه؛ ولهذا سماهم الله ورسوله: الأنصار، وصار ذلك عَلَمًا عليهم، رضي الله عنهم)[1]

٤- **أن هذا هو هدي عامة الأنبياء،** فقد كانوا عليهم صلوات الله وسلامه يشتغلون بتربية الحَمَلة والمصلحين والربانيين كما كانوا يشتغلون بدعوة الكفار ومجادلتهم وهدايتهم، وقد ذكر الله تعالىٰ ذلك عنهم في أكثر من آية في كتابه العزيز، كما في سورة آل عمران حين ذكر سبحانه قول الأنبياء للناس أنهم يحثونهم علىٰ أن يكونوا سادة الناس ومربيهم ومعلميهم ومصلحيهم، وذلك في قوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ وقد مرّ معنا كلام الإمام الطبري في تفسير الآية، قال رحمه الله: (فمعنىٰ الآية: ولكنْ يقول لهم -أي النبيّ-: كونوا، أيها الناس، سادة الناس، وقادتهم في أمر دينهم ودنياهم، ربَّانيِّين بتعليمكم إياهم كتاب الله وما فيه من حلال وحرام، وفرض وندب، وسائر ما حواه من معاني أمور دينهم، وبتلاوتكم إياه ودراسَتِكموه)[2].

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٤٥) طبعة الرسالة.

(٢) تفسير الطبري (٥/ ٥٣٣) تحقيق: عبد الله التركي

٥- فعل النبي ﷺ في تربية جيل الحملة من أصحابه، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام كان يجمع إلىٰ تبليغ الرسالة للمشركين: تربيةَ من آمن به من المؤمنين؛ فكان يعلمهم ويزكيهم، ويكمل نقصهم، ويقوم اعوجاجهم، ويعظ المقصر منهم، ويكلفهم بالعمل، حتىٰ استوىٰ عودهم، ونضجت ثمارهم، وامتدت أغصانهم، فحملوا الدين من بعده، فكانوا هم المصلحين في الأرض، الحاكمين بشرع الله، والفاتحين لأرض الله، والمعلمين لعباد الله -سلك الله بنا سبيلهم، وجعلنا ممن يتبعهم بإحسان-، ولم يُنزل الله عليه الأمر بالقتال للمشركين إلا بعد صناعة هؤلاء المصلحين ووجود المَنَعة والحماية التي قدموها لرسول الله ﷺ.

٦- ما ذكره الله تعالىٰ في شأن سنة الاستبدال، وهي السنة القاضية بإتيان الله بأقوام يحملون هذا الدين ويقومون بتكاليفه إنْ أعرض المكلفون به عن القيام بذلك، كما في قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ...﴾ وهذا يدل علىٰ أن المعنىٰ المعتبر في القيام بالدين حين الإعراض والتخلي والإدبار إنما هو وجود الحَمَلة.

ثانيًا: الشواهد من الواقع:

١- كثرة الثغور، وامتداد مساحة المشكلات، مع قلة المصلحين القادرين علىٰ التفاعل مع هذا القدر من الثغور، مما يستوجب ملء الساحة بالمصلحين.

٢- تجدد أنواع من الأزمات والمشكلات لم تكن موجودة أثناء تكوين المصلحين في المراحل السابقة، وبطبيعة الحال لم يكن هناك مراعاة لنوع هذه المشكلات أثناء ذلك التكوين، مما يستوجب إضافة مكونات بنائية وتنشئة أجيال علىٰ مستوىٰ متقدم من القدرة علىٰ التفاعل مع هذه الأنواع الجديدة من المشكلات.

٣- الانحسار الشديد في موارد بناء المصلحين والدعاة والمؤثرين، ونضوب المغذيات الأساسية لتكوين العلماء والحَمَلة لهذا الدين.

٤- الحملة الشرسة في محاربة الوجود الإسلامي والمشاريع الإسلامية في كثير من أقطار العالم بطريقة تكاد تكون غير مسبوقة، أدت إلىٰ تحييد كثير من المؤثرين وأبعدت كثيرا من الراغبين.

٥- الضعف النوعي في طبيعة التكوين الشرعي في كثير من الأوساط العلمية، وذلك عبر تضخم السياق الأكاديمي الشرعي الذي أدىٰ إلىٰ انهماك في العناوين الفرعية الدقيقة، وانشغال شديد بمعايير أكاديمية لتحقيق الدرجات العلمية العالية، دون اتصال حقيقي بواقع مشكلات الأمة الإسلامية، مع نقص واضح في غرس الروح الإصلاحية لدىٰ الطلاب، وقل ما يسلم من ذلك من البيئات الأكاديمية الشرعية.

٦- تضخم مشكلات الجيل الصاعد، وتغير مصادر التلقي لديه، بالإضافة إلىٰ الإغراق غير المسبوق لهذا الجيل في مستنقع التفاهات والملهيات، مما يتطلب تنبهًا مبكرا لمآلات هذه المشكلات، ويتطلب حلولًا جذرية من أهمها علىٰ الإطلاق: صناعة المصلحين من هذا الجيل، حتىٰ يكونوا صمامات أمان له في المستقبل البعيد.

٧- تحري موافقة السنن الإلهية بإيجاد الحَمَلة لهذا الدين، وذلك أن الواقع فيه أسباب كثيرة من الظلم والجهل والتحريف للدين ومصادمة الفطرة وانحسار الخير؛ ما يظن المرء بها أن الله يهيئ لدينه حَمَلةً استثنائيين يقومون به ويصلحون هذا الواقع، وهذا ما يستوجب العناية بإيجاد هؤلاء الحملة؛ ثم هم يفتحون أشرعة سفنهم لاستقبال رياح القدر الإلهية.

المطلب الثاني
المصلحون والنهضة بالدين: إحياءً وتجديدًا وتطبيقًا

أخرج الإمام أبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (إن الله يبعث لهذه الأمة علىٰ رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها)[1].

ومن المعلوم أن هذا التجديد لا يكون بإضافة أمور إلىٰ الدين ليست منه، ولا في التخفف من بعض ثوابته، وإنما هو في إعادة بعث حقائقه وإحياء معالمه وتطبيق أحكامه وتفعيل أركانه. وهذا التجديد له مساران: أحدهما معرفي والآخر عملي، وكلاهما مستلزم للآخر بدرجة من الدرجات، وقد اتفق عامة العلماء علىٰ أن الإمامين: عمر بن عبد العزيز، والشافعي من المجددين في هذه الأمة، وإذا تأملنا في طبيعة ما قاموا به، سنجد أن تجديد عمر بن عبد العزيز كان تجديدا عمليا بإعادة العدل إلىٰ الحكم وتطبيقه في الناس، وتجديد الشافعي كان علميا نظريا.

وينقسم التجديد -كذلك- إلىٰ نوعين: تجديد مطلق وتجديد نسبي، فالتجديد المطلق هو المتعلق بحقائق الدين الكبرىٰ بإحيائها وتفعيلها حين تغيب

---

(١) (٤٢٩١) من طريق سعيد بن أبي أيوب عن شراحيل بن يزيد المعافري عن أبي علقمة عن أبي هريرة به. قال أبو داود: (رواه عبد الرحمن بن شريح الاسكندراني لم يجز به شراحيل). والحديث صححه العراقي وابن حجر والسخاوي.

عن الواقع، سواء أكان ذلك عن طريق العلم والمعرفة والبرهان، أو كان عبر العمل والتطبيق في الميدان. والتجديد النسبي هو المتعلق بعلم من العلوم -كتجديد الشاطبي في مقاصد الشريعة- أو بمجال من مجالات العمل كالتجديد التربوي، أو التجديد في دعوة غير المسلمين، ونحو ذلك[1].

والذي يعنينا في هذا الكتاب -أكثر ما يعنينا- هو التجديد المطلق المتعلق بحقائق الدين الكبرىٰ.

والتجديد في الحقائق الدينية الكبرىٰ يتمثل في صورتين:

الأولىٰ: تثبيت قيمة الحقائق الكبرىٰ، وجعلها في مركز الأهمية والأولوية من حيث العلم والعمل، وإحياء فاعليتها علىٰ أرض الواقع، واعتبارها المرجع والمنطلق لما سواها من قضايا الدين، وإعطاؤها القيمة التي جعلتها لها الشريعة، وهذا ما أعنيه بمركزة المركزيات.

والتجديد هنا يتطلب التصحيح الداخلي في الأوساط الشرعية والإسلامية، لأن انزياح مركزية الحقائق الكبرىٰ لصالح الحقائق الصغرىٰ أو ما دونها من الاجتهادات لا يكون بسبب المعادين للدين وأصوله -في الغالب-، وإنما بسبب الممارسات الخاطئة للدين والإصلاح، ولغلبة التقليد والبدعة والجهل وما إلىٰ ذلك؛ فمركزة المركزيات من أهم قضايا التجديد التي ينبغي العناية بها.

الثانية: إزالة الحجب والحواجز والرواسب التي تحول بين الناس وبين وضوح رؤية الناس لهذه الحقائق أو عملهم بها؛ فالتجديد هنا يتمثل في التدافع مع التصورات الخاطئة وحمَلتِها من أهل الباطل المعادين لحقائق الإسلام، من الكفار والمنافقين، ويكون إطار هذا التدافع: تجلية الرؤية الصافية لحقائق الدين وإبرازها.

---

(١) راجع محاضرة التجديد الفكري، أحمد السيد، علىٰ قناتي في يوتيوب.

والتجديد في هاتين الصورتين يتطلب تظافر مسارَي التجديد: المعرفي والعملي.

وبناء علىٰ ذلك، واعتبارا لما سبق تقريره من أن (صناعة المصلحين) هي واجب الوقت، وهي أهم مرتبة في الإصلاح في هذه المرحلة، وهي التي ينبني عليها الخير المستقبلي للأمة الإسلامية بإذن الله تعالىٰ، فالنتيجة التي أريد الوصول إليها هي أن هذه الصناعة للمصلحين ينبغي أن تكون صناعة متصلة بمعنىٰ التجديد والإحياء والنهضة بالدين؛ يُبنَون فيها علىٰ هدي المرسلين وسبيل النبيين.

وهاهنا جملة مطوّلة مركزية في هذا السياق؛ ينبني عليها ما بعدها من موضوعات الكتاب، وتنتظم كثيرا مما جاء قبلها، ألا وهي:

(النهضة بالدين لا تكون إلا بإحياء حقائقه، وصناعة حملته، وتنزيله علىٰ الواقع بوعي وحكمة. فأما إحياء حقائق الدين فإنما يكون بـ:

١- مركزة مركزياته، وتقديم أولوياته، والانطلاق من محكماته.

٢- وبالعناية ببراهينه، وتثبيت قواعده.

٣- وبمراعاة مقاصده، وملاحظة الحِكَم والمناطات والعلل المتعلقة بتشريعاته، والربط بين التشريعات التفصيلية وبين الحكم والمقاصد.

٤- وبإيجاد النموذج العملي المعتز به، والمطبق له من جهة الكُليات ومن جهة التفاصيل.

وأما صناعة حملته فإنما تكون ببنائهم علىٰ صفات المصلحين المستمدة من مرجعية الوحي فيما ذكره الله عن هدي أنبيائه وأتباعهم، وتكون هذه الصناعة جامعة بين العلم والعمل، وبين التعليم والتربية، وبين الدراسة والتزكية[1].

وأما التنزيل الصحيح علىٰ الواقع فإنه لا يكفي فيه مجرد وجود حقائق الدين، بل يجب أن توافق واقعًا ملائما يُنزّلها عليه الحَمَلة تنزيلا صحيحا، وهذا

---

(١) وسيأتي بيان صفات المصلحين في القسم القادم من الكتاب بإذن الله تعالىٰ.

يتطلب علما عميقا بالواقع والناس، وفقهًا بالسنن الإلهية) وهذا النص المركزي ينتظم أكثر معاني الكتاب كما أسلفت، وقد مضىٰ تفصيل بعض ما ورد فيه، وسيأتي تفصيل صفات المصلحين في القسم التالي بإذن الله تعالىٰ، وسأقف هنا مع واحد من المعاني الواردة في هذا النص، ألا وهو (مركزية المركزيات وعلاقتها بالإحياء والتجديد)

المطلب الثالث
مركزة المركزيات
وأثرها في الإحياء والتجديد لحقائق الدين

المقصود بمركزة المركزيات: إعطاء كل أمر شرعيّ قيمته التي جعلها له الوحي، والعمل علىٰ ضوء ذلك من جهة الأولوية والاهتمام، أو كما قال الشيخ فريد الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وتتميز الفطرية بأنّها تجعل لكل حقيقة من حقائق الدين ما جعله الله لها من الحجم والقدر في الصورة الكلية للإسلام دينًا ودعوة)[1]، هذا من جهة الشرع، وأما من جهة الواقع فهي إعطاء كل مشكلة في الواقع قدرها من الاهتمام بحسب قيمتها في الشرع وأثرها في الواقع.

وإذا قلنا إن مركزة المركزيات تعني: (إعطاء كل أمر شرعيّ قيمته التي جعلها له الوحي) فهذا يستلزم أن ما جاء به الوحي من أخبار وعلوم وأوامر ونواهي، ليس علىٰ درجة واحدة من حيث القيمة والأهمية، بل هو متفاوت متفاضل، وهذا ما دل عليه خطاب الوحي في عشرات النصوص من الكتاب والسنة، ومن ذلك:

- قول النبي ﷺ: «يا أبا المُنْذِرِ، أتَدْرِي أيُّ آيَةٍ مِن كِتابِ اللهِ معكَ أعْظَمُ؟ قالَ: قُلتُ: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ. قالَ: يا أبا المُنْذِرِ أتَدْرِي أيُّ آيَةٍ مِن كِتابِ اللهِ

(١) الفطرية، فريد الأنصاري (١١٢)

معكَ أعْظَمُ؟ قالَ: قُلتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ قالَ: فَضَرَبَ في صَدْرِي، وقالَ: واللَّهِ لِيَهْنِكَ العِلْمُ أبا المُنْذِر»[1] والعلم الممتدح هنا هو إدراكه لـ (مركزية) آية الكرسي، وأنها أعظم آية في كتاب الله، وقدرته علىٰ أن يستنبط ويدرك المعنىٰ الذي لأجله فُضّلت هذه الآية، وهذا الاستنباط منه ﷺ كان نتيجة تراكمية لتربية النبي ﷺ صحابته علىٰ المركزيات، فالحديث عن الله والتعرف عليه والعلم به كان قضية مركزية كبرىٰ في مدرسة النبي ﷺ، ولأن آية الكرسي جمعت جملًا عظيمة ومعبّرة عن عظمة الله وجلاله وعلمه وإحاطته؛ استطاع أبيّ أن يستنبط أنها الأعظم في كتاب الله، ولم يكن ليستطيع ذلك لو لم يكن رُبّي علىٰ مركزية هذا المعنىٰ في الشريعة، فكان هذا خلاصة العلم والفقه في دين الله، كما قال له النبي ﷺ: (والله، ليهنك العلم أبا المنذر).

- ومن المستندات في خطاب الوحي كذلك لقضية المركزيات: أنَّ النبي ﷺ قال لأبي سعيد بن المعلىٰ: «لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هي **أعْظَمُ السُّوَرِ** في القُرْآنِ قَبْلَ أنْ تَخْرُجَ مِنَ المَسْجِدِ. قال أبو سعيد: ثُمَّ أخَذَ بيَدِي، فَلَمَّا أرادَ أنْ يَخْرُجَ، قُلتُ له: ألَمْ تَقُلْ: لَأُعَلِّمَنَّكَ سُورَةً هي أعْظَمُ سُورَةٍ في القُرْآنِ؟ قالَ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هي السَّبْعُ المثانِي، والقُرْآنُ العَظِيمُ الذي أُوتِيتُهُ»[2].

- ومنها كذلك: قول النبي ﷺ: «احْشُدُوا، فإنِّي سَأَقْرَأُ علَيْكُم ثُلُثَ القُرْآنِ، فَحَشَدَ مَن حَشَدَ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فَقَرَأَ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثُمَّ دَخَلَ، فقالَ بَعْضُنا لِبَعْضٍ: إنِّي أُرَىٰ هذا خَبَرٌ جاءَهُ مِنَ السَّماءِ فَذاكَ الذي أدْخَلَهُ، ثُمَّ خَرَجَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ، فقالَ: إنِّي قُلتُ لَكُمْ سَأَقْرَأُ علَيْكُم ثُلُثَ القُرْآنِ، ألا إنَّها تَعْدِلُ **ثُلُثَ القُرْآنِ**»[3]. ولو تأملنا في هذه الأدلة الثلاثة سنجد أن تنبيه النبي ﷺ إلىٰ

---

(١) صحيح مسلم: [٨١٠]

(٢) صحيح البخاري: [٤٤٧٤]

(٣) صحيح مسلم: [٨١٢]

مركزية هذه القضايا لم يكن تنبيهًا عاديًا، بل كان فيه من لفت الانتباه ما يُعظّم من قيمة ما قاله عند من يستمعه.

- ومن المستندات أيضًا قول النبي ﷺ: «الإِيمانُ بِضْعٌ وسَبْعُونَ، أوْ بِضْعٌ وسِتُّونَ، شُعْبَةً، **فأفْضَلُها** قَوْلُ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وأَدْناها إماطَةُ الأذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، والْحَياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمان»(١).

- وقوله تعالىٰ في الحديث القدسي: «ما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشَيءٍ **أحَبَّ إلَيَّ** ممَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّىٰ أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»(٢)، وغير ذلك الكثير.

- وإذا نظرنا في سياق المحرمات في الشريعة سنجد أن فيها ما هو مركزي مغلظ التحريم، وفيها ما دون ذلك، ونجد أن الوحي يفرق تفريقا واضحًا بين هذه المقامات، فمن ذلك -مثلًا- قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾(٣) وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾(٤). وقوله ﷺ: «ألا أُخْبِرُكُمْ بأَكْبَرِ الكَبائِرِ؟ قالوا: بَلَىٰ يا رَسولَ اللَّهِ، قالَ: الإشْراكُ باللَّهِ، وعُقُوقُ الوالِدَيْنِ. [وفي رواية]: وكانَ مُتَّكِئًا فَجلَسَ، فقالَ: ألَا وقَوْلُ الزُّورِ، فَما زالَ يُكَرِّرُها حتَّىٰ قُلْنا: لَيْتَهُ سَكَتَ»(٥). إلىٰ غير ذلك من النصوص الكثيرة.

---

(١) صحيح مسلم: [٣٥]

(٢) صحيح البخاري: [٦٥٠٢]

(٣) سورة النساء: [١١٦]

(٤) سورة النجم: [٣٢]

(٥) صحيح البخاري: [٦٢٧٣]

وبناء علىٰ ذلك كله، فإن الحديث عن دور المصلحين في تجديد الدين، وإحياء حقائقه، لا يكون إلا بالعناية البالغة بمركزياته ومحكماته، وينبغي أن يكون هذا علىٰ مقامين:

الأول: مقام البناء، وذلك بأن يراعىٰ في صناعة المصلحين، أن تكون لديهم مركزيات صحيحة، واضحة، مستمدة من مرجعية الوحي، متصلة بالواقع.

الثاني: مقام العطاء، وذلك بأن يكون من أهم ما يعمل عليه هؤلاء المصلحون في دعوتهم: السعي إلىٰ مركزة هذه المركزيات في الواقع -علمًا وعملًا-.

وحين نتحدث عن العلاقة بين مركزية المركزيات وبين الإصلاح والتجديد، فإن هذا يمكن إثباته بأمور متعددة، منها بيان الآثار الحسنة التي تنتج عن مركزة المركزيات، وبيان الآثار السيئة المترتبة علىٰ الخلل في ضبط المركزيات، وهذا بيان ذلك:

أولًا: الآثار الحسنة المترتبة علىٰ ضبط المركزيات:

١- أنها سببٌ من أسباب وحدة الصف والتقارب بين المسلمين، وذلك لأن الاتفاق في المركزيات من شأنه أن يهون من ثقل الاختلاف في الفرعيات، فالاختلاف في الأصول باعث علىٰ التفرق، والعداوات، بخلاف الخلاف في الفروع فإنه لا يؤدي إلىٰ ذلك إلا في حالات التعصب النابع عن الجهل وضيق الأفق، وهذا له ارتباط مباشر بالنهضة بالدين من جهة أن التفرق والتنازع من أهم ما يحول بين المسلمين وبين النهضة والانطلاق.

٢- سد الثغور، وملء الأهم منها فالأهم، وذلك أن إدراك المركزيات في الواقع وربط علاقتها بمركزيات الشرع يؤدي إلىٰ اشتغال المصلحين بمساحة الثغور ليسدوها، وليملؤوا الأشد احتياجًا للملء منها، بينما إذا كانت المركزيات

خاطئة ستجد أن مساحة الثغور تخلو من الحَمَلة الحُماة، بل يمكن أن تنقلب القضية إلىٰ صراع بين الحملة.

٣- أن ضبط المركزيات يعين كثيرًا علىٰ حُسن الفهم وصحة النظر للشريعة: فالقرآن فيه محكمات ومتشابهات، والمحكمات هي أصل الكتاب الذي يرجع إليه، فمن ينظر إلىٰ كتاب الله بهذه العين، ويفهم المتشابهات علىٰ ضوء المحكمات يصيب في نظره، ولا يقع في فتنة الفهم الخاطئ.

٤- حسن التعبد والتقرب إلىٰ الله ﷻ: فالتقرب إلىٰ الله تعالىٰ لا تكون أفضليته وأولويته من جهة الكثرة دائما، وإنما من جهة إصابة أفضل الطرق وأعلاها وأولاها، وإذا تأملت في حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ستجد أن الشأن فيهم: تحقيق التوكل علىٰ الله تعالىٰ، وهذا من الصفات المهمة في تكوين المصلحين وبنائهم.

٥- صحة التقييم للاتجاهات والأفكار عبر النظر إلىٰ مركزياتها وعرضها علىٰ مركزيات الشريعة، فالذي يتربىٰ علىٰ قيمة المركزيات يكتسب مَلَكة النظر التقييمي الصائب المتعلق بحقائق الأشياء وكُلياتها وجوهرها، وهذا له أثر في تحديد أولويات المصلحين في المعالجة والانطلاق، ويؤثر هذا في ضبط قضية الولاء والبراء علىٰ ما يستحق أن يوالىٰ ويعادىٰ عليه.

٦- وضوح الرسالة: وذلك أن المضامين لأي رسالة دينية أو سياق فكري، يجب أن تبنىٰ علىٰ أركان ومحاور، ومقاصد كبرىٰ وكليات ترد إليها؛ كي تكون واضحة للمتلقي، ويسهل عليه امتثالها، وهذا كان هدي النبي ﷺ في رسالته، ففي صحيح مسلم[1]: جاء رجل من أهل البادية، فقال: يا محمد، أتانا رسولك، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: صدق. قال: فمن خلق السماء؟ قال: «الله» قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله». قال: فمن نصب هذه الجبال، وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله». قال: فبالذي خلق السماء، وخلق الأرض،

---

(١) (١٢)

ونصب هذه الجبال، آلله أرسلك؟ قال: «نعم». قال: وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات في يومنا وليلتنا. قال: «صدق». قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: «نعم». قال: وزعم رسولك أن علينا زكاة في أموالنا. قال: «صدق». قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: «نعم». قال: وزعم رسولك أن علينا صوم شهر رمضان في سنتنا. قال: «صدق». قال: فبالذي أرسلك، آلله أمرك بهذا؟ قال: «نعم». قال: وزعم رسولك أن علينا حج البيت من استطاع إليه سبيلا. قال: «صدق». قال: ثم ولىٰ. قال: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن، ولا أنقص منهن. فقال النبي ﷺ: (لئن صدق ليدخلن الجنة). فهذا الحديث يبين كيف كانت المركزيات في الرسالة النبوية واضحة للناس، وترتب عليها الامتثال والانقياد.

ثانيًا: آثار الخلل في ضبط المركزيات(١):

١- الغلو في الدين:

إن من شأن المركزيات أن تأخذ طابع الإطار المعياري الضخم أمام عيني الإنسان، بحيث ينظر إلىٰ كثير من الأمور نظرًا تقييميا من خلاله، فإذا لم يكن هذا الإطار صحيحًا؛ فإنه سيترتب علىٰ ذلك غلوٌ في التمسك والتقييم والنظر والولاء والبراء، والذي قد يصل أحيانًا إلىٰ سفك الدماء.

٢- الوقوع في التفسير الخاطئ للدين، وإعادة قراءة الشريعة والوحي بناءً علىٰ القضية المركزية التي يؤمن بها الإنسان: فإذا كان يؤمن أن المدنية مثلا من أهم مركزيات الشريعة؛ فإنه سيقرأ الوحي قراءة تفسيرية تأويلية تتسق مع هذا

---

(١) **أنواع الخلل في ضبط المركزيات:**

١- مركزة الفرعيات أو القضايا الخاطئة.

٢- تهميش المركزيات الصحيحة.

٣- الخلل في ضبط المركزيات الداخلية للأمر المركزي.

٤- السير بلا مركزيات. (وهذا في عالم النسبية المطلقة يمكن تصوره).

الفهم، وإذا كان يؤمن بأن مركزية الإسلام والشريعة في إمامة أهل البيت فسيعيد قراءة الوحي والشريعة والتراث بناءً عليها، وإذا كان يؤمن بأن مركزية الإسلام والشريعة في حقوق المرأة فسيعيد قراءة الوحي والشريعة والتراث بناءً عليها، وهكذا في سائر القضايا التي ينطلق الإنسان فيها من مركزيات خاطئة.

٣- انقلاب الأولويات:

إذا كانت الحكمة هي: فعل ما ينبغي علىٰ الوجه الذي ينبغي في الوقت الذي ينبغي، فإن الخلل في المركزيات يؤدي إلىٰ فعل ما ينبغي في الوقت الذي لا ينبغي، أو يؤدي إلىٰ فعل ما لا ينبغي في الوقت الذي ينبغي، لأن الخلل في المركزيات يعني اصطفاف الأولويات خلف ما يراه الإنسيان مركزيا، ومن ثم يتم إجراء الفعل علىٰ ضوء هذه المركزية الخاطئة، ولا سبيل إلىٰ التخلص من هذا الخلل إلا بمركزة مرجعية الوحي أولًا، ومن ثم التفقه في الوحي بناء علىٰ ما جاء فيه من المحكمات والمركزيات، وهذا من أهم السبل الموصلة إلىٰ الحكمة، وسيأتي مزيد تفصيل في ذلك إن شاء الله في صفة الحكمة من صفات المصلحين.

٤- الخلل في العبادة والإصلاح، والابتعاد عن سواء السبيل الموصل إلىٰ معية رب العالمين وتأييده وتوفيقه ونصره.

٥- العيش في الوهم واللبس:

وذلك أن من شأن المركزيات الخاطئة أنها تجعل مسافة الإطاحة بالفرد بعيدة جدًا، بخلاف مسافة السقوط بسبب الخطأ في الفروع والجزئيات، ومن شأن هذه الإطاحة البعيدة أنها تجعل الإنسان يظن أنه علىٰ شيء في الدين ولا يكون -في الحقيقة- كذلك، كما قال النبي ﷺ عن الخوارج: (يَمْرُقونَ مِنَ الدينِ كمَا يَمْرُقُ السهمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ)[1] هذا مع كونهم بذلوا واجتهدوا؛ لكنهم كانوا

(١) صحيح البخاري: ٣٦١٠

يعيشون حالة من الوهم واللبس بسبب الغلو في الدين الذي كانوا فيه فأبعدوا بسببه بعض المركزيات الصحيحة ومَركزوا أمورًا خاطئة، وما أكثر الواهمين اليوم سواء من جهة التشدد والغلو، أو من جهة الانسياب والسيولة، وهذا كله مشتت للبوصلة عن التوجيه الصحيح في طريق الإصلاح.

٦- الخطأ في تقييم الأشخاص والقضايا وفي قراءة الواقع.

وغير ذلك من الآثار السيئة والتي قد شرحتها في محاضرة (مركزة المركزيات).

وإذا تقررت أهمية مركزة المركزيات من جهة أدلة الشرع، ثم من جهة بيان الآثار الحسنة علىٰ تفعيلها، والآثار السيئة المترتبة علىٰ الخلل فيها، وعلاقة كل ذلك بالإصلاح والتجديد وعمل المصلحين، فإنني أختم هذا الفصل بعنوان عملي مبني علىٰ ما سبق، ألا وهو: ما القضايا التي تتطلب إحياءً وتجديدًا في سياق مركزة المركزيات؟ وسأذكر بعض الأمثلة علىٰ ذلك لا علىٰ سبيل الحصر.

قضايا تتطلب الإحياء والعناية والتجديد علىٰ ضوء مركزة المركزيات:

١- من أهم ما يحتاج إلىٰ إحياء هو **قضية مركزة المركزيات** نفسها: وذلك بالتأكيد علىٰ أن في الدين مركزيات، وعلىٰ أهمية الاتفاق عليها، والانطلاق منها، وتقديمها في الخطاب والدعوة، وتعظيم شأنها في النفوس، وتقييم السياقات الإصلاحية بناء عليها.

٢- ومن المركزيات التي تحتاج إلىٰ إحياء: **العبودية لله** ﷻ: وذلك أن مقدار المعارضات الموجودة في الواقع مما يقطع الصلة بين الإنسان وبين حقيقة عبوديته لله سبحانه كثيرة جدًا؛ (فطبيعة الانحراف الحاصل اليوم في المجال الإنساني والاجتماعي إنما هو انحراف في الفطرة، واختلال في أخص خصائصها)[1] ولذلك فإن (واجب الوقت اليوم هو صناعة المسلم العبد لله

---

(١) الفطرية، فريد الأنصاري (٣٩)

الواحد القهار)[1] فالواقع المعاصر بطبيعته وأفكاره وعلومه ونطاقاته وإكراهاته يجعل الإنسان كائنًا أرضيًا دنيويا لا عبدًا مُسْلِما مستسلمًا أخرويا، هذا غير ما يقوم به الشيطان من وسوسة وما تمليه النفس من أهواء.

وكثير من المسلمين اليوم يعيشون حياة لا يرضونها لأنفسهم ولا يرضون عن أنفسهم بسببها، ولكنهم يعيشون إكراهات الواقع ونتائج الماضي القريب الذي حفر أخاديده في واقع اليوم، وبناء علىٰ ذلك كله؛ فإن إحياء مركزية العبودية لله بأن تكون هي الأصل والغاية لوجود المسلم في هذه الحياة من أهم ما يجعل المسلم يتخفف من آصار الواقع وإكراهاته، وتجعله يعيش فيه مجتهدا لتحقيق ما يمكن تحقيقه من الغاية العظمىٰ التي بينها الله بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وهذه الغاية لا تقتضي الانعزال عن الواقع ولا الانقطاع عنه، بل تزيد المصلح من هذا الواقع قربًا، بالإصلاح والدعوة إلىٰ الله تعالىٰ؛ وهل يعظم أجر الدعوة إلىٰ الحقّ سبحانه إلا في مثل هذه الحالات؟!

ولذلك فإن من أهم ما ينبغي العناية به من مصلحي المستقبل في سياق مركزة المركزيات: إعطاء العبودية لله حقها وقدرها من الخطاب والعناية والاهتمام، خاصة وأنها هي الفطرة السهلة الواضحة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾. والناس اليوم يحتاجون الخطاب السهل الواضح البين -غير المعقد- الذي يخاطب الفطرة، ويربط الإنسان بربه مباشرة دون وسائط أو إجراءات انتمائية معينة، وكم خسر العاملون للإسلام في الفترات السابقة كثيرا بسبب هذه القضية.

٣- ومن المركزيات التي ينبغي علىٰ النماذج الإصلاحية العناية بها وتقديمها: (**مركزية العمل**) وذلك بأن تُجعل العلوم كلها وسيلة إلىٰ العمل، ويُجعل العمل معيارًا فاعلا للتقييم، ولا يُستقل بالمعيار العلمي النظري للتقييم، فلا ينبغي أن تكون القيمة للشهادات العليا وحدها، إلا بمقدار ما وافق حاملها

(١) الفطرية، فريد الأنصاري (٤٥)

بعمله ما يحمل من علم، وهذه الموافقة بالعمل تنقسم إلىٰ موافقة بالعمل الذاتي المتعلق بالصلاح والتزكية، وموافقة بالعمل المتعدي المتعلق بالإصلاح ونفع الناس، فالذي يحمل الشهادات الشرعية ثم لا يكون له دور فيما يقتضيه هذا العلم من عمل يكون قد أتىٰ بالمقدمة وترك النتيجة؛ فلا ينبغي أن يكون له من الشأن والاعتبار كما للآخر الذي صدّق بعمله علمه، وهذا من المركزيات التي ينبغي أن تكون ثقافة معيارية بين المصلحين.

٤- ومما يتطلب إحياء وتجديدا وتفعيلًا بأن يكون في قلب اهتمام العاملين والمربين والمعلمين: (**التزكية**) وذلك بأن تكون للتزكية القيمة المركزية الكبرىٰ في أي سياق إسلامي، تعليميا كان أم تربويا أم دعويا أم غير ذلك.

٥- إحياء مركزيات الاقتداء بالنبي ﷺ: من المعلوم أن الاقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام من أعظم مركزيات الشريعة، وأن أحسن الهدي هديه، وهذا متفق عليه بين المسلمين بوجه عام، غير أن من العاملين من يُغبنون في اقتدائهم به ﷺ، فلا يوفقون إلىٰ حقيقة الاقتداء وجوهره، وإنما إلىٰ جزئياته وفروعه، وهذا خلل في المركزيات يتطلب إصلاحا وتجديدًا في مختلف المجالات التي يحصل فيها هذا الخلل، وهذا من واجب المصلحين المجددين لهذا الدين.

ومن أهم الأمثلة علىٰ ذلك: عدم الاقتداء بحقيقة الهدي النبوي في تلقي القرآن وتلقينه لأصحابه، وذلك بإعطاء الحفظ والتجويد والقراءات القيمة الكبرىٰ في العلاقة بالقرآن في سياق المعاهد والحلقات والمدارس الشرعية، بينما لم تكن هذه هي المركزية الحقيقية في الهدي النبوي تجاه القرآن الكريم، وإن كان ذلك كله مهما في ذاته، وإنما كانت المركزية تجاه القرآن في المدرسة النبوية هي في العمل به بعد فهمه وفقهه الناشئ عن تعظيمه والقيام به في الليل، وهذه منظومة المركزية القرآنية في المدرسة النبوية، وأما الاكتفاء بالحفظ والتجويد وتحسين

التلاوة فهذا من جملة إشكالات كثير من السياقات الإسلامية والشرعية المعاصرة، والله المستعان[1].

٦- ومما يحتاج إلىٰ عناية وإحياء وتجديد في سياق مركزة المركزيات: **ضبط المركزيات الداخلية للعناوين الكبيرة في الإسلام**: كـ (التزكية والعلم والتوكل) إذ إن كثيرا ممن يتعلق بهذه العناوين لا يصيب الحق في المركزيات الداخلية لكل عنوان منها، ولذلك فإن من صور الإحياء والتجديد أن تُضبط المركزيات الداخلية، فالتزكية -مثلا- لا تتمثل مركزيتها الداخلية في التزهد في اللباس والمظهر والمسكن، وإنما تتمثل مركزيتها في بابين عظيمين: الأول (مخالفة الهوىٰ علىٰ وفق مراد الشرع) والثاني (أعمال القلوب وما تستلزمه من تعبد بالجوارح) وهكذا في بقية القضايا.

٧- **إحياء المقاصد من أبواب الدين والتركيز عليها**: وهذا من أهم صور التجديد المتعلق بالمركزيات، ومن أمثلة ذلك: موضوع الأسماء والصفات الذي هو مركزي في الشريعة بلا ريب؛ إذ لا تكاد تخلو صفحة من كتاب الله من حديث عن الله سبحانه، غير أن المقصد الأعظم من هذا الباب هو: العلم بالله، ومعرفته، وخشيته، ومحبته، والتعبد له بمقتضاها، فإذا حصل انحراف في تفسيرها فإن من الأهمية بمكان مناقشة مثل هذا الانحراف -خاصة إذا كان يؤثر علىٰ حقيقة العلم بالله ﷻ- شريطة ألا يُبنىٰ من هذا النقاش جدار حائل بين المسلم وبين مقاصد الباب الأصلية إلىٰ درجة أن يرتبط هذا الباب عند كثير من

---

(١) ومن الأمثلة علىٰ ذلك أيضا ما يتعلق بالسياق التربوي، وذلك بأن يُظن أن الهدي النبوي في التربية إنما هو منحصر في تنويع الوسائل التعليمية كالسؤال والرسم علىٰ الأرض واستعمال الأمثال ونحو ذلك، وهذه الوسائل وإن كانت من هدي النبي في التربية، إلا أنها في الحقيقة لا تُمثّل إلا جانبًا واحدًا من جوانب الهدي النبوي في التربية، بينما نجد هناك معالم تربوية أخرىٰ مركزية في الهدي النبوي، وقد تتبعت عشرة منها في سلسلة (صناعة المربي) في المحاضرة الثانية منها علىٰ قناتي في يوتيوب، وستصدر في كتاب محرر بإذن الله تعالىٰ.

المسلمين بالنقاشات والردود وحدها، فينبغي عليه أن يحافظ علىٰ إطار لهذا النقاش لا يتجاوز به حده، ويُحافَظ علىٰ هيبة الباب التعبدية ومركزيتها.

٨- **إحياء مقاصد العلوم الشرعية**، وهذه من أهم المعاني المركزية التي تتطلب إحياء وتجديدا.

وتنقسم مقاصد العلوم إلىٰ قسمين: مقاصد عامة ومقاصد خاصة.

فأما المقاصد العامة فهي المقاصد المتعلقة بباب العلم في الإسلام؛ وهي تحقيق الخشية والاستقامة والبلاغ والعمل بمقتضىٰ العلم، وأما المقاصد الخاصة فهي المقاصد المعرفية المتعلقة بكل علم علىٰ حِدَته، وذلك أن لكل علم من علوم الشريعة غايات ينبغي أن يصل إليها من يتمكن من ذلك العلم، فعلىٰ سبيل المثال: علم الحديث، من غاياته: معرفة الصحيح والضعيف من الحديث، وحماية السنة من أن يدخل فيها ما ليس منها، والإشراف الائتماني علىٰ نقل الدين من جهة الأخبار النبوية، ويلحق بذلك من المقاصد ما كان معارضا لما استجد من الإشكالات الكبرىٰ المثارة علىٰ علم الحديث من جهة كفايته في ضبط نقل السنة، وهذا يتطلب المعرفة بقواعد صحته والدفاع عنه أمام موجات التشكيك ونحو ذلك من المقاصد الغائية لهذا العلم، وهكذا الحال في بقية العلوم الشرعية والإسلامية.

وكثيرا ما تغيب هذه المعاني أثناء الدراسة التفصيلية للعلم، وهذا فيه إشكال كبير يؤثر علىٰ تحقيق أثر العلم والتفاعل به في الواقع، والمطلوب: الجمع بين الأمرين: التفصيلات والمقاصد.

واجب الوقت:
"صناعة المصلحين"
الشواهد من الوحي والواقع على مركزية (صناعة المصلحين) في السنن الإلهية
الشواهد من الوحي
١- قصة موسى عليه السلام.
٢- قصة زكريا عليه السلام في القرآن.
٣- ما جاء في شأن عيسى عليه السلام، وذلك في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَـٰأيها ٱلذين ءامنوا كونوا أنصار ٱلله كما قال عيسى ٱبن مريم للحواريۧن من أنصاري إلى ٱلله قال ٱلحواريون نحن أنصار ٱلله﴾.
٤- أن هذا هو هدي عامة الأنبياء، فقد كانوا عليهم صلوات الله وسلامه يشتغلون بتربية الحَمَلة والمصلحين والربانيين كما كانوا يشتغلون بدعوة الكفار ومجادلتهم وهدايتهم.
٥- فعل النبي صلى الله عليه وسلم في تربية جيل الحملة من أصحابه.
٦- ما ذكره الله تعالى في شأن سنة الاستبدال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.
الشواهد من الواقع
١- كثرة الثغور، وامتداد مساحة المشكلات، مع قلة المصلحين القادرين على التفاعل مع هذا القدر من الثغور.
٢- تجدد أنواع من الأزمات والمشكلات لم تكن موجودة أثناء تكوين المصلحين في المراحل السابقة.
٣- الانحسار الشديد في موارد بناء المصلحين.
٤- الحملة الشرسة في محاربة الوجود الإسلامي والمشاريع الإسلامية.
٥- الضعف النوعي في طبيعة التكوين الشرعي في كثير من الأوساط العلمية.
٦- تضخم مشكلات الجيل الصاعد، وتغير مصادر التلقي لديه، بالإضافة إلى الإغراق غير المسبوق لهذا الجيل في مستنقع التفاهات والملهيات.
٧-تحري موافقة السنن الإلهية بإيجاد الحَمَلة لهذا الدين.
المصلحون والنهضة بالدين:
إحياءً وتجديداً وتطبيقاً
النهضة بالدين
إحياء حقائق الدين
صناعة حملة الدين
تنزيل الدين على الواقع بوعي وحكمة
يكون بـ:
١- مركزة مركزياته.
٢- العناية ببراهينه.
٣- مراعاة مقاصده.
٤- إيجاد النموذج العملي المعتز به، والمطبق له.
مركزة المركزيات وأثرها في الإحياء والتجديد لحقائق الدين
الآثار الحسنة المترتبة على ضبط المركزيات
١- أنها سببٌ من أسباب وحدة الصف والتقارب بين المسلمين.
٢- سد الثغور، وملء الأهم منها فالأهم
٣- يعين كثيراً على حُسن الفهم وصحة النظر للشريعة.
٤- حسن التعبد والتقرب إلى الله عز وجل.
٥- صحة التقييم للاتجاهات والأفكار.
٦- وضوح الرسالة.
آثار الخلل في ضبط المركزيات
١- الغلو في الدين.
٢- الوقوع في التفسير الخاطئ للدين.
٣- انقلاب الأولويات.
٤- الخلل في العبادة والإصلاح.
٥- العيش في الوهم واللبس.
٦- الخطأ في تقييم الأشخاص والقضايا وفي قراءة الواقع.
قضايا تتطلب الإحياء والعناية والتجديد على ضوء مركزة المركزيات
١- إحياء قضية مركزة المركزيات نفسها.
٢- إحياء مركزية العبودية لله سبحانه وتعالى.
٣- إحياء مركزية العمل.
٤- إحياء مركزية التزكية.
٥- إحياء مركزيات الاقتداء بالنبي ﷺ.
٦- العناية بضبط المركزيات الداخلية للعناوين الكبيرة في الإسلام: كـ(التزكية والعلم والتوكل).
٧- إحياء المقاصد من أبواب الدين والتركيز عليها.
٨- إحياء مقاصد العلوم الشرعية.

القسم الرابع

حَمَلة الإصلاح

المبحث الأول
معالم في بناء المصلحين

انتشرت برامج إعداد الدعاة، وصناعة القادة والرواد وما إليها في العقدين الأخيرين في الأوساط الإسلامية، وتخرج من هذه البرامج أعداد يعسر إحصاؤها، وفي الوقت نفسه تخرجت أعداد أكثر منها من الجامعات الإسلامية والتخصصات الشرعية الأكاديمية، غير أن الجدير بالاهتمام والتفكر والتأمل العميق هو أنه حين وقعت الأزمات الحادة في واقع العمل الإسلامي في العقد الأخير -علىٰ مختلف المستويات وكافة الأصعدة- لم يكن لكثير من هؤلاء الخريجين القدرة علىٰ تحديد ما ينبغي العمل عليه، ولا معرفة الموقع الصحيح الذي يبذل الإنسان فيه ما تعلمه واكتسبه من العلوم والمعارف، فضلا عن كثير من المواقف السلبية التي صدرت عن بعض الشخصيات الإسلامية الكبيرة في تلك المرحلة وما أحدثه ذلك من تأثير واضطراب علىٰ كثير من المحبين لهم.

وقد التقيت بكثير من العاملين في مختلف المجالات والاتجاهات ووجدت أن جميع السياقات الإسلامية -تقريبا- تعاني من ضعف المنتسبين إليها في هذه المرحلة، وتعترف صراحة أو ضمنًا بأن البناء السابق لم يكن بالقدر الكافي الذي يخرّج الكوادر والأرقام الصعبة القادرة علىٰ الصمود أمام الأزمات الكبرىٰ،

والمنتجة للحلول والإجابات؛ وهذا يجعلنا نراجع مناهج البناء السابقة، فنستفيد من جوانب قوتها ونتجاوز مواطن الخلل فيها.

وإذا قلنا إن من أهم واجبات المرحلة الحالية صناعة المصلحين، فإن من أولىٰ ما ينبغي علينا الاهتمام به في سبيل إحسان هذا البناء أن يُبنىٰ علىٰ قواعد متينة متصلة بأصول الإسلام وثوابته، يستمد فيها القائمون علىٰ هذا البناء معالم التكوين من هدي المرسلين، ويعاد فيها تصحيح بعض جوانب الخلل في الأبنية السابقة بناء عليها، ولا يُكتفىٰ فيه بالتغيير في الوسائل والأدوات فقط، بل يُعتنىٰ بالمضامين أولا، فكما هو معلوم أن مِن أهم الأسباب في ضعف بعض المخرجات السابقة: التركيز علىٰ الوسائل والأدوات وتحديثها دون التركيز علىٰ الجوهر والحقيقة والمضمون.

وبناء علىٰ ذلك فسأهتم هنا بأمرين في سبيل تجاوز هذا الإشكال:

١- معالم منهجية في بناء المصلحين.

٢- صفات المصلحين.

أولًا: معالم منهجية في بناء المصلحين:

المعلم الأول: مركزية هدي الأنبياء في طريق المصلحين:

إن من أعظم ما يؤثر في استقامة البناء الإصلاحي، وفي تكوين المصلحين وبناءهم: العناية البالغة بتعلم هدي الأنبياء وسنتهم في جميع الشؤون العلمية والعملية، وهذا الباب من أشرف الأبواب التي ينبغي تربية الطلاب عليها في سياق التنشئة الإصلاحية. والمرجع الأساسي فيه: كتابُ الله تعالىٰ، فقد ذكر سبحانه عن الأنبياء كل ما يحتاجه المؤمن في سياق الاقتداء بهم، فذكر من عبادتهم واستعانتهم، وصبرهم ومجاهدتهم، ودعوتهم وتبليغهم، ومحاجتهم ومجادلتهم، وتوبتهم وإنابتهم، ودعائهم وشكرهم، ما يشمل جميع الأحوال التي يمكن أن يمر بها السائر علىٰ طريقهم.

وأدعو القائمين علىٰ محاضن التربية، والمشرفين علىٰ حلقات تحفيظ القرآن الكريم أن يجعلوا من أسس برامجهم: العناية بتدبر هدي الأنبياء في القرآن، والاستهداء بهم في ذلك، كما قال ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾، فهذا والله من أفضل سبل العناية بالقرآن، وهو أهم من الاكتفاء بالحفظ وتصحيح التلاوة والتجويد؛ وقد كانت عناية النبي ﷺ بهذا الباب بالغة، وكان ﷺ يستحضر هدي الأنبياء في حياته، ويذكر ذلك أمام الصحابة، وكان يثبتهم بقصص الصالحين من قبله كما كان الله يثبته بأنباء الرسل من قبله، كما ذكر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كأني أنظر إلىٰ النبي ﷺ يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: (اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون)[1] وقال ﷺ مرة حين آذاه بعض الجاهلين: (رحم الله موسىٰ، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر)[2] وكان ﷺ يؤسس لأصحابه الاقتداء التفصيلي بهم، فيقول (أحب الصلاة إلىٰ الله صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلىٰ الله صيام داود، وكان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، ويصوم يوما ويفطر يوما)[3].

وكتابُ الله مليء بالحديث عن الأنبياء والمرسلين فلا ينبغي المرور عليها مرور الغافلين، بل مرور المعتبرين المتوسمين، ومن يعتني بشيء من ذلك يجد فيه الخير والبركة والنفع العظيم، وقد لمستُ ذلك حين تتبعت شيئًا من هدي الأنبياء في القرآن في سلسلة مطوّلة بعنوان: (أنوار الأنبياء) ركّزْتُ فيها علىٰ الجانب التعبدي والإصلاحي لدىٰ الأنبياء، ومع كون السلسلة تجاوزت الثلاثين محاضرة إلا أنّها لا تزال في منتصفها أو دون ذلك عسىٰ الله أن ييسر إتمامها.

---

(١) البخاري (٣٤٧٧) ومسلم (١٧٩٢)

(٢) البخاري (٣١٥٠)

(٣) البخاري (١١٣١) ومسلم (١١٥٩)

وأولىٰ الأنبياء أن نعتني بهديه وسنته وأحواله وجميع شؤونه هو خاتم المرسلين محمد ﷺ، فلا بد من جعل سيرته مركزية في سياقات التربية والتنشئة الإصلاحية، وليس المقصود التركيز علىٰ تفصيلات أحداث السيرة، وإنما التوصل منها إلىٰ الدروس والعبر المستفادة منها، وقد قدمتُ في ذلك سلسلة مطولة كذلك بعنوان: (السيرة النبوية للمصلحين)، وأسأل الله أن يكرمنا بلزوم هديه ﷺ واتباع سنته وسلوك سبيله.

المعلم الثاني: أهمية بناء ثقافة معيارية للمصلحين:

من أهم الأمور التي ينبغي تحقيقها في سياق صناعة المصلحين في هذه المرحلة، والتي يمكن أن تسهم في تغيير كبير علىٰ مختلف المستويات الإصلاحية: إنشاء ثقافة إصلاحية معيارية موحدة، يشترك فيها المصلحون علىٰ اختلاف تخصصاتهم، وتنوع مجالاتهم ومستوياتهم، بل وحتىٰ علىٰ تعدد انتماءاتهم وتوجهاتهم.

والمقصود بالثقافة المعيارية الإصلاحية: (منظومة القِيَم والمفاهيم والأفكار الحاكمة لسلوك أفراد الحالة الإصلاحية الإسلامية، المستمدة من مرجعية الوحي نصا أو معنىٰ)[1].

ومن أمثلة ما يصلح أن يكون ثقافة معيارية: (تفعيل مرجعية الوحي، مركزة المركزيات، أولوية العبودية لله سبحانه، مركزية التزكية، مركزية العمل، تلقي

(١) ويمكننا القول بأن الثقافة المعيارية الإصلاحية هي: (حزمة من القِيَم والمفاهيم والأفكار الحاكمة لسلوك المصلح، والتي يُشكّل امتثالها محيطًا ثقافيا جماعيًا يغرس في أفراده تلك المفاهيم بمستوىٰ معياري، وهي مستمدة من الوحي نصًا أو معنىٰ، ومتفاوتةٌ في أحكامها ما بين الوجوب أو الاستحباب الشرعي) فهي تختلف عن التعريف (المعرفي) للثقافة، كما تختلف عن التعريف (السلوكي) للثقافة الذي يذكره مالك بن نبي؛ إذْ هي مزيج بين المعرفة والسلوك لا يتصور استقلال أحدهما فيه عن الآخر. وهذا يعالج بعض الثقافات السائدة الخاطئة.

القرآن للعمل، الانطلاق من المحكمات، سد الثغور، التكامل الإصلاحي، العناية بالجيل، القوة الشرعية، مراعاة السنن الإلهية، الوعي بالواقع، . . .).

ومما يسهل إنشاء هذه الثقافة المشتركة:

١) تخريج نماذج إصلاحية عملية بُنِيَتْ علىٰ هذه الثقافة المعيارية، بحيث يرىٰ بقية العاملين المستوىٰ النوعي لهذه النماذج، ومن ثم يسعون لاقتباس التجربة.

٢) الطرح التأصيلي الذي يثبت أهمية مكونات الثقافة المعيارية وأصالتها في مرجعية الوحي، وهذا ما سعيت لتطبيقه في كتاب: (المنهاج من ميراث النبوة) وهو متن حديثي جمعتُ فيه أدلة كثير من المفاهيم التي أرىٰ أنها يجب أن تكون ثقافة معيارية بين العاملين والمصلحين، ومن المهم أن يقوم الفضلاء من أهل العلم والإصلاح بمزيد من العناية في هذا الباب.

٣) تقديم مواد متكاملة في أبواب كثر فيها الجدل أو الكلام بطريقة جديدة تتوفر فيها هذه الثقافة المعيارية، مثل باب المرأة، وهذا ما سعيت لتقديمه كذلك في سلسلة التأصيل المنهجي لقضايا المرأة (استعادة دور المرأة في العمل والإصلاح) وفائدة الطرح التفصيلي في أبواب معينة أنه يعطي أنموذجًا لكيفية تطبيق الثقافة المعيارية العامة علىٰ أبواب معينة.

المعلم الثالث: التربية علىٰ أهمية استمرار ثغر صناعة المصلحين:

من أهم عوامل نجاح الحالة الإصلاحية الجديدة: مدىٰ امتلاكها لعوامل استمرار صناعة المصلحين، وذلك بأن يكون من أهم المشاريع التي يعمل عليها خريجو الدفعات الأولىٰ من المصلحين: العمل علىٰ تخريج مصلحين آخرين بعدهم، فهم بالإضافة إلىٰ اشتغال كثير منهم في ثغور أخرىٰ بعد اكتمال بنائهم إلا أنهم لم يعطلوا الثغر الذي تخرجوا منه، وهو ثغر: صناعة المصلحين، فبقدر

وعي المصلحين بأهمية استمرار هذا الثغر فإنهم يمسكون بزمام من أعظم أزمة الفلاح والنجاح بإذن الله تعالىٰ.

المعلم الرابع: أهمية تنوع روافد البناء والمزج بين البناء المعرفي والبناء العملي:

مما ينبغي علىٰ القائمين علىٰ برامج بناء المصلحين: تنويع روافد هذا البناء ما بين العلم والعمل والتجربة، فإن العلم لا يستقل وحده بهذا البناء ولا يكفيه، بل لا بد من دعمه وتقويته بمساحات التطبيق والتفعيل والممارسة. ومن التجارب التي رأيت أثرها في هذا السياق، أنني كلفتُ مجموعة من الطلاب بحزمة من الأعمال الدعوية تحت عنوان (التدريب العطائي)، أي أنهم يقومون بهذا العمل الدعوي وهم يستصحبون في أنفسهم أنهم يتعلمون بهذا العطاء، ويتدربون بهذا البذل، فهم يعلمون أن هذا العطاء جزء من البناء، ولكنها بناء عملي، وقد كان ذلك بعد أن قطعوا سنوات من البناء النظري المكثف، وجعلتُ لهم مدة تقارب السنتين لهذا التدريب العطائي، فوجدت له من الأثر الشيء الكبير ولله الحمد.

المعلم الخامس: عدم الاستعجال بتصدير الطلاب قبل التمكن:

من الإشكالات المنتشرة في كثير من الأوساط التربوية: عدم إعطاء الفرصة الكافية للشباب والمتربين ليتمموا بناءهم الشرعي والمعرفي الذي يعينهم في سياقهم الدعوي أو الإصلاحي، بل يسارعون في إدخالهم في دورة العمل المقتضي لتوقف البناء، وخاصة المتميزين منهم، وهذا فيه إشكال كبير علىٰ النتائج المستقبلية، ولذلك فإن من معالم البناء المثمر في المستقبل: إطالة أمد البناء وتعميق قواعده، وتثبيت أصوله؛ حتىٰ يثمر الغرس إثمارًا يسر الناظرين، والجمع بينه وبين العمل ولكن بوعي ومنهجية بحيث لا ينتقل مركز الثقل من البناء إلىٰ العطاء إلا في مراحل متقدمة.

المعلم السادس: البناء في ساحة العمل والمدافعة أنفع من البناء في ساحة الرخاء والترف والدعة:

إذا كان من الأخطاء في العملية التربوية: السرعة في تصدير الطلاب للعمل وإيقاف البناء، فإن من الأخطاء في الجهة المعاكسة الأخرىٰ: تجميد الطالب وحصره في البناء العلمي والمعرفي وجعله في ساحة منعزلة عن ساحات العمل والعطاء ومدافعة الباطل، بحيث ينبت نباتًا رخوًا لا يعرف فيه إلا المعرفة النظرية، فإذا دقت طبول التدافع بين الحق والباطل واحتيج إلىٰ ذوي المعرفة ليقوموا بشيء من مقتضاها في العمل والإصلاح انكفؤوا علىٰ مكتباتهم، والتصقوا بأبحاثهم، وقد يتبرأ بعضهم من تلك الميادين ومن فيها، لأن لغة المدافعة بين الحق والباطل لغة جديدة عليهم لم يعرفوها ولم يتعلموها ولم يتربوا عليها.

والحق بين هذين الاتجاهين كامن، فليس هو مع الزاهدين في البناء المعرفي المتين، ولا هو مع المنحصرين في المعرفة النظرية، وإنما هو في الجمع بين الأمرين. وخير وسيلة لهذا الجمع أن تكون التربية من أساسها تجمع بين هذين الأمرين، بحيث يكون من هم المربي أن يدفع طلابه للعمل، وألا يجعل هذا العمل سببا للانقطاع عن الازدياد المعرفي، بل يجعله سببا مؤكدا له؛ إذ إن تناميٰ العمل الإصلاحي يزيد الاحتياج إلىٰ المستند العلمي المعرفي، والعكس صحيح.

المعلم السابع: أهمية التنوع والتكامل في مجالات البناء الإصلاحية:

من الأخطاء المنتشرة في كثير من السياقات التربوية: عدم الالتفات إلىٰ أهمية تنويع مجالات الطلاب وتخصصاتهم، والتركيز علىٰ مناهج موحدة للجميع في كل المراحل، وهذا فيه إشكال، فإن توحيد المناهج والمجالات يصلح في المراحل الأولىٰ فقط، ثم بعد ذلك يحسن تنويعها، فالمطلوب من القائمين علىٰ البرامج التكوينية للمصلحين أن يقسموا الطلاب علىٰ تخصصات ومجالات، ومن

ثمرات ذلك في المستقبل أن يكون بين هؤلاء الطلاب تكامل في المستقبل عبر تخصصاتهم، فهذا في المجال التربوي، والآخر في الشرعي، والثالث في الفكري، والرابع في الدعوي، وهكذا، مع التنبيه إلىٰ أهمية وجود مساحة للبناء المشترك الذي لا يسع المصلح جهله وخاصة في المجال الشرعي، بالإضافة إلىٰ الثقافة المعيارية الإصلاحية التي سبق الحديث عنها.

ومن أبرز المجالات والتخصصات المقترحة:

- المجال التربوي.
- المجال الشرعي، (في كل علومه، ثم يكون التخصص في علم منها بعد سنوات من البناء).
- المجال الفكري.
- المجال الدعوي.
- المجال البحثي.
- المجال الثقافي.
- المجال النهضوي الاستراتيجي.

المبحث الثاني
بيان صفات المصلحين

أولًا: مصادر معرفة صفات المصلحين:

المصدر الأول: القرآن والسنة.

ومن المواطن التي نجد فيها صفات المصلحين ضمن هذا المصدر:

١) سير الأنبياء وما يتعلق بهم من السياقات الإصلاحية في القرآن والسنة، وهي من أهم المستندات علىٰ الإطلاق، وقد سبق الحديث عنها في المَعلم الأول من معالم بناء المصلحين.

٢) الآيات المتعلقة بأصحاب الأنبياء في السياق الإصلاحي، كقوله سبحانه ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

٣) التوجيهات الربانية التي خاطب الله بها المؤمنين في السياق الإصلاحي، كقوله سبحانه: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

٤) السيرة النبوية وتطبيقاتها في تربية المصلحين والتعامل معهم في سياق المعالجة الإصلاحية، كما حدث في بيعة العقبة، وصلح الحديبية، وغيرهما.

المصدر الثاني: سير المصلحين، وذلك بقراءتها قراءة متطلب للاقتداء والتأسي والاهتداء، ومن ثم استخراج أبرز السمات التي جعلت منهم مصلحين ربانيين، وخاصة ما يكون مشتركًا بينهم.

المصدر الثالث: التجارب الإصلاحية التاريخية والمعاصرة، وهذه تختلف عن سابقتها أنها ليست متعلقة بسيرة شخص بعينه، وإنما بتجربة كاملة، فيُنظر في هذه التجربة وسمات قوتها وجوانب ضعفها، ويربط ذلك كله بصفات أصحابها.

المصدر الرابع: القراءة الجيدة للواقع، ومعرفة إشكالاته، وتحدياته، وموازين القوىٰ المؤثرة فيه، ولغة التأثير المتصلة به، والفرص المتاحة فيه، ونحو ذلك، فهذا يعين علىٰ استنباط بعض الصفات التي يتطلبها الواقع فيمن يكون مصلحًا فيه.

ثانيًا: تفصيل القول في صفات المصلحين:

إن من أهم صور تفعيل مرجعية الوحي في السياق الإصلاحي: أن نستخلص منه الصفات التي ينبغي أن يكون عليها المصلحون العاملون لدين الله والحاملون لمضامينه المبلغون لها، وقد اجتهدتُ في تتبع هذه الصفات من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ حتىٰ خرجت بقرابة العشرين صفة، وهي قابلة للزيادة كما أنها قابلة للنقص من جهة ضم النظائر وإدخالها تحت عنوان جامع، وسأتحدث عن كل صفة من هذه الصفات الإصلاحية من أربع جهات:

١- **بيانها وما يدخل فيها**: فأبين حدود هذه الصفة الإصلاحية، أو أبين ما الذي يدخل فيها من تفصيلات أو أمور جزئية.

٢- **مستندها من خطاب الوحي في السياق الإصلاحي**: وذلك بتتبع ما يدل علىٰ اعتبار هذه الصفة من الوحي في السياق الإصلاحي -تحديدا- لا في الامتداد العام لها.

٣- أهميتها في السياق الإصلاحي: وذلك بتبيين الوجوه الكاشفة عن أهمية هذه الصفة في المصلح، وخطورة تخليه عنها في السياق الإصلاحي.

٤- كيفية تحقيقها في المصلح: وذلك عبر ذكر الوسائل المعينة علىٰ اكتساب هذه الصفة، والتخلق بها، والثبات عليها.

وسأتناول كثيرا من هذه التفصيلات علىٰ شكل نقاط متتالية، لا علىٰ طريقة الصياغة الجامعة.

الصفة الأولى:
العبودية لله تعالى

■ بيانها وما يدخل فيها:

- الذلُّ والانقياد والخضوع والاستسلام.
- الإخلاص لله تعالىٰ وابتغاء وجهه في العمل الإصلاحي.
- التوكل والاعتصام والالتجاء.
- الخشية من الله وحده، وعدم الخوف من لوم اللائمين أو معارضة المبطلين.
- المحبة الخالصة لله ولدينه.
- دوام التعبد القلبي واللساني والبدني لله تعالىٰ.
- دوام الإنابة.
- الولاء والبراء.
- الرضا بالقضاء.

■ مستندها من الوحي في السياق الإصلاحي:

إذا تأملنا في خطاب الوحي المتعلق بالأنبياء وأتباعهم سنجد أنّ الله سبحانه أبرز لنا فيهم أنواعًا من العبودية له؛ بالخشية والتوكل والاعتصام والإنابة

والافتقار والمحبة والدعاء وغيرها، وهذا يؤكد أهمية هذه الصفة في السياق الإصلاحي ومركزيتها، ومن الأدلة علىٰ هذه الصفة في الأنبياء وأتباعهم الآيات التالية:

- ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ = الخشية من الله وحده.
- ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ = الثقة بوعد الله والتوكل عليه.
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ = الاكتفاء بمعية الله والاعتماد عليه.
- ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ = العبادة الخالصة له وحده ﴿لَنَا عَٰبِدِينَ﴾.
- ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ = المحبة القلبية لله وهي من أهم خلاصات العبودية.
- حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(١) = دوام الإنابة.

■ أهميتها في السياق الإصلاحي: -وجودًا وعدمًا-:

- أنها من أهم أسباب محبة الله للمصلح ونصره له وعونه ومدده.
- دوام المحافظة علىٰ المعنىٰ الرسالي بمراعاة القصد الأخروي.
- أنها من أهم أسباب الثبات عند الأزمات.
- أنها من أهم أسباب المحافظة علىٰ استقامة الطريق، فهي صمام أمان تجاه المغريات أو المكتسبات الدنيوية.
- أنها من أهم موانع اليأس والإحباط عند عدم تحقق النتائج.

---

(١) صحيح البخاري (٦٣٠٧)

• أنها مولد أساسي للهمة والإرادة والعزيمة.

• أنها من أهم أسباب البركة في العمل، لأنها تقتضي إخلاص المصلح، والإخلاص سر البركة.

■ كيفية تحقيقها:

• العلم بالله وأسمائه وصفاته، (ومن أهم سبل تحصيل هذا العلم: ختمة تدبرية لكتاب الله يكون الهدف منها موضوع العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله).

• دوام التذكر لمركزية الآخرة.

• الاهتمام بسير الأنبياء في الوحي.

• التفكر والتأمل في المخلوقات وفي النفس وافتقارها.

• الاقتراب الدائم من كتاب الله وتقديمه في الاهتمام من جهة التدبر والقيام به في الليل والعمل به.

• الوعي بمركزية القلب وعمله، وأنه أساس الصلاح (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب)[1].

• دوام الاستحضار واليقظة والبعد عن الغفلة، (ومن وسائل تحقيق ذلك: المداومة علىٰ الذكر).

• تربية النفس علىٰ الإخلاص الدائم في العمل، (بالاستحضار الدائم لذلك قبل الأعمال التعبدية وقبل الأعمال الإصلاحية، وبالتجديد الدائم للنية واستحضار معنىٰ ابتغاء وجه الله ﷻ).

• التجديد الدائم للتوبة والرجوع إلىٰ الله سبحانه.

---

(١) البخاري (٥٢)

الصفة الثانية:
التسليم لمرجعية الوحي والانطلاق منها والاستمساك بها

- **بيان ما يدخل فيها:**
  - الإيمان بصحة الوحي وأنه من عند الله واليقين التام بنسبته الربانية.
  - الاستمساك بها وأخذها بقوة.
  - الاستغناء بهذه المرجعية وتقديمها والاهتمام بها وتعظيمها.
  - تعظيم حدود الله في الوحي والوقوف عندها.
  - الاستمداد الإصلاحي من خطاب الوحي.
  - الرد إليها عند التنازع.
  - إعطاء القضايا الشرعية ثقلها بمقدار ما أُعطي لها من الثقل في مرجعية الوحي.
  - أن تكون المعيار الأساسي للتقييم.

- **مستندها من الوحي في السياق الإصلاحي:**

سأذكر الأدلة علىٰ ضوء ما أوردته مما يدخل في مرجعية الوحي من الاستمساك والاستغناء والاستمداد ونحوها.

• قوله سبحانه للنبي ﷺ: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

• وقوله ليحيىٰ عليه السلام ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ قال الطبري: أي (بِجدّ)، وقال ابن جُزي: (أي في العلم به والعمل به).

• وقوله سبحانه لموسىٰ عليه السلام ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ قال ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية (والقوة هنا في قوله ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ تمثيل لحالة العزم علىٰ العمل بما في الألواح، بمنتهىٰ الجد والحرص دون تأخير ولا تساهل، ولا انقطاع عند المشقة ولا ملل، بحالة القوي الذي لا يستعصي عليه عمل يريده. ومنه قوله - تعالىٰ - ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ﴾ في سورة مريم)[1].

• ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغٗا لِّقَوۡمٍ عَٰبِدِينَ﴾ قال الإمام ابن كثير في تفسير الآية: (أي: إن في هذا القرآن الذي أنزلناه علىٰ عبدنا محمد ﷺ لبلاغا: لمنفعة وكفاية لقوم عابدين، وهم الذين عبدوا الله بما شرعه وأحبه ورضيه، وآثروا طاعة الله علىٰ طاعة الشيطان وشهوات أنفسهم.)[2] وهذا يوافق ما ذُكر في قضية الاستغناء بالوحي: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾.

• ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ ودلالتها واضحة علىٰ أهمية تفعيل مرجعية الوحي عند التنازع.

■ أهمية هذه الصفة في السياق الإصلاحي: -وجودًا وعدمًا-:

• وضوح المرجعية يعني إمكان بناء المنظومة الإصلاحية التفصيلية علىٰ سنة واضحة، وطريقة مضطردة غير متناقضة.

---

(١) التحرير والتنوير ٤/ ٤١٠

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٩٥) ط: الرسالة

• الاهتداء الدائم بمرجعية الوحي في مستجدات الواقع ومشكلاته ونوازله.

• من خطورة ضعفها: استبدالها بمرجعيات أخرىٰ مناقضة للوحي دون الشعور بالتناقض أو الخلل.

■ كيفية تحقيقها:

• تعزيز اليقين بصدق الوحي وبراهينه وأهميته والاحتياج إليه (ومن الكتب التي يُنصح بها في هذا المجال: كتاب النبأ العظيم لمحمد دراز، وكتاب كامل الصورة لأحمد السيد، وكتاب براهين النبوة لسامي عامري، وكتاب دلائل أصول الإسلام الصادر عن مركز صناعة المحاور -وهو أجمعها-).

• العناية البالغة بمجالس القرآن وتدبره والاستهداء به (ومما يفيد هنا الرجوع إلىٰ كتابات فريد الأنصاري القرآنية).

• الاستمداد التفصيلي في الدروس والكتابات والبرامج من مرجعية الوحي.

• تنشئة الأجيال علىٰ الولاء لمرجعية الوحي وتقديمها علىٰ أي مرجعية أخرىٰ.

الصفة الثالثة:
اليـقـيـن

■ بيانها وما يدخل فيها:

• اليقين العام: وهو اليقين بصحة أصول الإسلام (أي اليقين بوجود الله ووحدانيته وكماله، وبربانية القرآن، وبصدق نبوة محمد ﷺ).

• اليقين الخاص: وهو اليقين بمعية الله الخاصة لأوليائه، أي: اليقين بأن الله تعالىٰ ينصر من نصره، وأنه مع أوليائه، وأنه يعين حَمَلة رسالته، ويهديهم، ويكفيهم.

■ مستندها من الوحي في السياق الإصلاحي:

• (اليقين العام): إذا تأملنا في الكتاب العزيز سنجد أن الله سبحانه يمد أنبياءه في بدايات دعوتهم بالآيات التي تزيدهم طمأنينة ويقينا وإيمانًا، وهذا يبين مركزية اليقين في السياق الإصلاحي، ومن ذلك مثلًا قوله سبحانه لموسىٰ عليه السلام: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

وقوله في شأن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ قال ابن عاشور في تفسيره: (فالتقدير: وكذلك نري إبراهيم

ملكوت السماوات والأرض إراء تبصير وفهم؛ ليعلم علما علىٰ وفق لذلك التفهيم، وهو العلم الكامل وليكون من الموقنين).

وقوله سبحانه في شأن النبي ﷺ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾.

• (اليقين الخاص): قول الأنبياء عليهم السلام: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾.

وقول النبي ﷺ لصاحبه ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

وتأمل كيف أبرز الله قيمة اليقين في الثبات عند الأزمات فقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فهذه الآية تكشف عن مركزية اليقين في السياق الإصلاحي؛ إذ إن السبب الذي لأجله ثبتت القلة الذين كانوا مع طالوت هو أنهم ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ أي يوقنون بلقائه.

■ أهميتها في السياق الإصلاحي: -وجودًا وعدمًا-

• أنه سبب باعث إلىٰ الإقبال علىٰ العمل ومواجهة الباطل وقت إدبار الناس عن ذلك.

• أنه من أهم موانع اليأس والإحباط.

• الثبات عند الأزمات وعند المصائب والابتلاءات، فاليقين هو المادة العصية علىٰ الانكسار أمام مطارق الأزمات، ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

• عون الله ومدده وتوفيقه ومعيته، فإن ذلك إنما يكون لأوليائه المتوكلين عليه، المعتصمين به.

• أن اليقين مع الصبر شرط للإمامة في الدين: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

• من الآثار السلبية لضعف اليقين: التأثر بالشبهات الفكرية المتعلقة بالإسلام عند وجود الموجات التشكيكية القوية، وهذا مثبط عن العمل الإصلاحي سواء من جهة استقامته أو من جهة استمراره.

■ كيفية تحقيق هذه الصفة الإصلاحية:

• العناية بالبراهين المثبتة لأصول الإسلام.

• التفكر في آيات الله الكونية: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾

• التدبر في آيات الله الشرعية، فالقرآن من أعظم أسباب اليقين.

• الوقوف الدائم على هدي الأنبياء وتعبدهم لله تعالى، وإدراك معالم طريقهم.

• القنوت والإخبات لله تعالى، وهو سبب عظيم من أسباب تحصيل اليقين.

• العمل الدائم بالعلم، فهو مورث لليقين: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ قال ابن سعدي معلقا على الآية: (إن العبد القائم بما أمر به، لا يزال يتمرن على الأوامر الشرعية حتى يألفها ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات)

الصفة الرابعة:
الصبـر

■ **بيانها وما يدخل فيها:** الصبر عمود من أعمدة الصفات الإصلاحية التي لا يمكن للمصلح أن يبلغ إلا بها، وهو معنىٰ عظيم يدخل فيه صور كثيرة، منها:

• الصبر علىٰ القيام بالدعوة وإقامة الحجة وإيصال الحق إلىٰ الخلق، وذلك بالمداومة والاستمرار وعدم التوقف عند استطالة الطريق أو قلة السالكين.

• الصبر علىٰ الأذىٰ والتحديات التي تعترض طريق المصلح فلا تُضعفه ولا تجعله يهون أو يستكين.

• الصبر علىٰ عدم استجابة الناس للحق.

• ويتضمن الصبر كذلك معنىٰ التضحية، وإيثار الآخرة علىٰ الدنيا في سبيل القيام بالحق.

• ويشمل الصبر كذلك معنىٰ حبس النفس عن التسخط والجزع عند المصائب والكوارث التي يمر بها المصلح، فيؤمن بقضاء الله وقدره، ويسعىٰ للرضىٰ بذلك.

• ويدخل فيه الصبر عن الذنوب والمعاصي والإغراءات التي تعترض طريق المصلح.

• ومن أهم ما يدخل في الصبر في السياق الإصلاحي: عدم استعجال الثمرة.

▪ مستندها من الوحي في السياق الإصلاحي:

• الآيات التي فيها خطاب الله لنبيه ﷺ بالصبر كما صبر مَن قبله من الأنبياء، وذلك كقوله سبحانه: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾.

وقوله: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾. وتأمل هذا النص الشريف من ابن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره للآية: (وهذا تسلية من الله تعالىٰ ذكره لنبيه محمد ﷺ، وتعزيةٌ له عما ناله من المساءة بتكذيب قومه إيّاه علىٰ ما جاءهم به من الحق من عند الله. يقول تعالىٰ ذِكره: إنْ يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون من قومك، فيجحدوا نبوّتك، وينكروا آيات الله أنّها من عنده، فلا يحزنك ذلك، واصبر علىٰ تكذيبهم إياك وما تلقىٰ منهم من المكروه في ذات الله، حتىٰ يأتي نصر الله، فقد كُذبت رسلٌ من قبلك أرسلتُهم إلىٰ أممهم، فنالوهم بمكروه، فصبروا علىٰ تكذيب قومهم إياهم، ولم يثنهم ذلك من المضيّ لأمر الله الذي أمرهم به من دعاء قومهم إليه، حتىٰ حكم الله بينهم وبينهم، ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾، يقول: ولا مغيِّرَ لكلمات الله. وكلماتُه تعالىٰ ذكره: ما أنزل الله إلىٰ نبيه محمد ﷺ، مِن وعده إياه النصر علىٰ من خَالفه وضادّه، والظفرَ علىٰ من تولّىٰ عنه وأدبر.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، يقول: ولقد جاءك يا محمد، مِن خبر من كان قبلك من الرسل، وخبر أممهم، وما صنعتُ بهم حين جحدوا آياتي وتمادَوا في غيهم وضلالهم .. يقول تعالىٰ ذكره: فانتظر أنت أيضًا من النصرة والظفر

مثل الذي كان منِّي فيمن كان قبلك من الرسل إذ كذبهم قومهم، واقتد بهم في صبرهم علىٰ ما لَقُوا من قومهم)[١].

- قولُ الأنبياء لأقوامهم: ﴿وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ﴾.

- ومن المستندات المهمة لصفة الصبر في الوحي ضمن السياق الإصلاحي، قوله سبحانه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فانظر كيف ختم الله الآية بمعنىٰ الصبر، وفصّل قبله فيما يدخل فيه (عدم الوهن، وعدم الضعف، وعدم الاستكانة).

- ومن المستندات كذلك ما يذكره الله في كتابه من سنة الابتلاء الماضية علينا كما مضت علىٰ الأمم السابقة، والتي يذكر الله في بعضها أن من حكمة تقدير هذه السنة: ظهور الصابرين، كما قال سبحانه: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وقوله: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ﴾

- والنصوص في هذا المعنىٰ كثيرة..

■ أهميتها في السياق الإصلاحي: -وجودًا وعدمًا-:

- الاستمرار في الطريق؛ إذ لا دوام علىٰ طريق الإصلاح بلا صبر، فالصبر زاد لا يمكن السفر إلىٰ الله بدونه، حتىٰ إذا بلغ الإنسان جنة ربه سيُقال له حينئذ: إنما بلغت هنا بالصبر: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ﴾ ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

- عدم الانهيار أمام التحديات والابتلاءات.

- عدم النكوص عند تأخر تحقيق الثمرة.

---

(١) تفسير الطبري (٩/ ٢٢٤) ط: عالم الكتب

• عدم التأثر بالإغراءات المادية بسبب إيثار الأخرىٰ علىٰ الدنيا.

■ كيفية تحقيقها:

• الاهتمام بهدي الأنبياء في القرآن، والاقتداء بصبرهم في الدعوة والإصلاح، (وهذا أمر مركزي ينبغي العناية به من بداية التربية)

• قراءة سير المصلحين وحَمَلة الدين، والوقوف عند معالم صبرهم، ومن المراجع المفيدة فيه، كتاب (صفحات من صبر العلماء).

• التصبر، وفيه حديث النبي ﷺ: «ومن يتصبر يصبره الله»[1].

• استحضار منزلة ومكانة الصبر، ومعية الله للصابرين، ومحبته لهم، وأن الجزاء هو الجنة، كما قال سبحانه ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾.

• تذكر عظم مصاب الأمة ومقدار الاحتياج إلىٰ العاملين الصابرين.

• الاستعانة بأصدقاء الخير والأعوان علىٰ طريق البر والإصلاح، كما قال سبحانه ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾

(١) أخرجه البخاري (١٤٩٦) ومسلم (١٠٥٣)

الصفة الخامسة:
التزكية وحياة القلب

■ بيانها وما يدخل فيها:

• التزكية تتألف من شِقين أساسيين، وهما: شق النماء والزيادة والتحلية، وشق التطهير والتخلية، ولا تكمل التزكية ولا تتم إلا باجتماعهما.

ومن أهم ما يدخل في الشق الأول: أعمال القلوب (الإخلاص، التوكل، الاعتصام، المحبة، الخشية، الإنابة، الرجاء) -وقد سبق الحديث عنها في صفة العبودية-، والمحافظة علىٰ الذكر والأوراد، وقيام الليل (وهو من أهم ما يحتاجه المصلح تحت هذه الصفة الإصلاحية).

كما أن الشق الثاني يمكن تلخيصه في (مخالفة الهوىٰ خوفا من الله علىٰ وفق مراده) ومن أهم ما يدخل فيه ويعين علىٰ تحقيقه: تجنب أمراض القلوب (الرياء، العجب، الكبر، الحسد، النفاق، الشك).

• ينتج عن حالة التزكية الدائمة أمر إيماني في غاية الأهمية للمصلح، ألا وهو: دوام استحضار مراقبة الله تعالىٰ (مرتبة الإحسان)، وهذا الاستحضار هو الزاد الذي يسير به المصلح ويعينه علىٰ تحقيق الدرجات العليا من التوكل والاعتصام والإخلاص واليقين.

■ **مستندها من الوحي في السياق الإصلاحي:**

• قوله سبحانه عن أنبيائه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾.

• قوله سبحانه عن أصحاب نبيه محمد ﷺ القائمين بدينه: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾.

• الآيات التي فيها بيان التأثير السلبي لفقدان التزكية في الطريق الإصلاحي، وفيه قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وقوله: ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾.

• قول النبي ﷺ لأصحابه -المصلحين من بعده-: «إني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها -أي في الدنيا-»[(١)].

■ **أهميتها في السياق الإصلاحي: -وجودًا وعدمًا-**

• أنها السبب الأساسي لابتغاء وجه الله بالعمل الإصلاحي، وهذا له أثره في المعية الإلهية والتوفيق والبركة.

• عدم انحراف البوصلة الإصلاحية وراء المكاسب والمطامع الدنيوية.

• الاستجابة لداعي الحق، والتصحيح في الإصلاح ولو كان صعبا على النفس أو يتبعه شدة عليها.

• الابتعاد عن حسد المصلحين الآخرين، والتآلف معهم والتعاون بدلا من قطع الطريق.

• الاعتصام والتوكل وهو ما يورث عون الله ونصره ومدده.

---

(١) صحيح البخاري (١٣٤٤)

• مخالفة الهوىٰ الذي هو عدو الاستقامة الإصلاحية، وذلك أن الله تعالىٰ حذر أنبياءه منه في سياقهم الإصلاحي، سواء اتباع الهوىٰ الذاتي، كما في قوله سبحانه: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ أم اتباع أهواء الأعداء التي يساومون بها الدعوة وأهلها، كما قال سبحانه لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ﴾.

▪ كيفية تحقيق هذه الصفة الإصلاحية:

• دوام استحضار الحقائق الكبرىٰ في الإسلام (عظمة الخالق، القرآن كلام الله، النبي رسول الله، مركزية الآخرة) وزيادة اليقين بها، فهي من أعظم ما يبعث علىٰ الخشية والاستقامة.

• تربية النفس علىٰ مخالفة الهوىٰ، ودوام المجاهدة في التخلية والتحلية: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ﴾.

• كثرة المناجاة، والاهتمام بعبادات الخلوات ودوام التضرع.

• قيام الليل، وهو من أهم الأسباب -علىٰ الإطلاق- في سياق بناء المصلحين، وذلك أن الله تعالىٰ أمر نبيه ﷺ به في أول الدعوة، وذكر له سبحانه أثر هذا القيام في تلقي القول الثقيل الذي سينزل عليه، بل وأمر أصحابه الكرام بأن يقوموا الليل قيامًا طويلًا في أول الأمر وكان مفروضًا عليهم، ثم نزل التخفيف، وهذا كله لأهمية قيام الليل في سياق القيام بشأن الدين، وقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث عائشة رضي الله تعالىٰ عنها (إن الله ﷻ افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله ﷺ وأصحابه حولا، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهرا في السماء حتىٰ أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة)(١)

---

(١) صحيح مسلم (٧٤٦)

• إنفاق المال في وجوه الخير سرا وجهرا ﴿ٱلَّذِى يُؤۡتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: يصرف ماله في طاعة ربه؛ ليزكي نفسه وماله وما وهبه الله من دين ودنيا)[١]

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٧٨٩) ط: الرسالة.

الصفة السادسة:
العلم

■ بيانها وما يدخل فيها في السياق الإصلاحي:

- العلم بالله تعالىٰ وبأسمائه وصفاته.
- العلم بهدي أنبيائه، وخاصة سيرة نبيه محمد ﷺ ودراستها دراسة تفصيلية (ومن المراجع فيها: سلسلة السيرة النبوية للمصلحين).
- العلم بكتاب الله وفهمه وتدبره، والعلم بسنة النبي المصطفىٰ وهديه ﷺ.
- العلم باللغة وأدوات الاستنباط.
- التمكن من العلوم الشرعية التراثية (العقيدة، علوم القرآن، الفقه، الأصول، الحديث، اللغة).
- العلم بمقاصد الشريعة.
- العلم بالسنن الإلهية.

■ مستندها من الوحي في السياق الإصلاحي:

- قال الله سبحانه عن سبب من أسباب اختيار طالوت ملكا علىٰ بني إسرائيل قائما بدين الله: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ وقد فهم العلماء من هذه الآية مركزية العلم في التقديم في الولايات، بل اشترط بعضهم

ذلك حتىٰ قال البقاعي في تفسيره لهذه الآية (وهو يدل علىٰ اشتراط العلم في الملك)[1].

• أن تعليم العلم من أهم وظائف النبي ﷺ كما قال سبحانه: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

• أن سبيل النبي وأتباعه في الدعوة أن تكون علىٰ بصيرة، والبصيرة لا تكون إلا بالعلم: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾.

• حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»[2]

■ أهمية العلم في السياق الإصلاحي: -وجودًا وعدمًا-:

• أن العمل للدين وحمل رسالته والقيام بها والدعوة إليها: إما أن يكون علىٰ بصيرة فيوافق الهدي النبوي: ﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ أو لا يكون، فإن كان علىٰ بصيرة فهي لا تكون إلا بالعلم، فالعلم إذًا صفة مهمة لمتبع النبي ﷺ في الدعوة إلىٰ الله.

• أن العلم والفقه في الدين سبب لموافقة مراد الله وحكمه، وهو من أسباب التوفيق والسداد.

• أنه يؤدي إلىٰ امتلاك المعيار المنهجي الذي يمكن به تقييم الأمور.

• أنه من أهم روافد التزكية والحكمة والوعي.

• أن فقدان العلم من أهم أسباب الانحراف عن جادة الطريق، والجنوح إلىٰ الغلو أو الانحلال الفكري.

---

(١) تفسير البقاعي (١/ ٤٧٣) ط: الكتب العلمية.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٨٢) وغيرهما، وهو من طريق عاصم بن رجاء بن حيوة عن داود بن جميل عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ وهو حديث مشهور بين العلماء يستدلون به ويبنون عليه، وإن كان في إسناده لين.

■ كيفية تحقيق هذه الصفة الإصلاحية؟

■ التأصيل الشرعي والبناء العلمي الذي يجمع بين ما يلي:-

- المنهجية.
- طول الزمن.
- تلقيه عن أهله.
- التحقيق.
- الشمولية.
- التدرج.

والحديث عن هذا المعنىٰ يطول، ومن المراجع المفيدة فيه، كتاب: ارتياض العلوم لمشاري الشثري، ومحاضرة: (العلم بين المنهجية والفوضوية لأحمد السيد)

■ التفقه العملي بالعمل للدين والمدافعة بين الحق والباطل، فاكتساب العلم لا ينحصر في الجانب النظري، وإنما الجانب العملي مهم فيه كذلك، وذلك أن الله سبحانه قد ذكر سبيلًا للتفقه في الدين في سياق العمل للإسلام ونصرته والقتال في سبيله فقال: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ والفقه في الدين المذكور في الآية ليس فقهًا نظريًا بالقراءة والسماع، وإنما هو فقه عملي بمعرفة صنيع الله بنصرته دينه وأولياءه وخذلانه لأعدائه، فإن الطائفة المقصودة بالتفقه في هذه الآية -والله أعلم- هي الطائفة النافرة كما قال إمام المفسرين ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في نصّ جليل بديع يستحق التأمل والتفكر والنظر:

(وأما قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ فإن أولىٰ الأقوال في ذلك بالصواب، قولُ من قال: لتتفقه الطائفة النافرة بما تعاين من نصر الله أهلَ دينه وأصحابَ رسوله، علىٰ أهل عداوته والكفر به، فيفقه بذلك -

مِن مُعاينته حقيقةَ علم أمر الإسلام وظهوره علىٰ الأديان- مَن لم يكن فقهه، ولينذروا قومهم فيحذروهم أن ينزل بهم من بأس الله مثل الذي نزل بمن شاهدوا وعاينوا ممن ظفر بهم المسلمون من أهل الشرك، إذا هم رجعوا إليهم من غزوهم؛ ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ يقول: لعل قومهم، إذا هم حذروهم ما عاينوا من ذلك، يحذرون فيؤمنون بالله ورسوله، حذرًا أن ينزل بهم ما نزل بالذين أخبِروا خبرَهم.

وإنما قلنا ذلك أولىٰ الأقوال بالصواب، وهو قول الحسن البصري الذي رويناه عنه، لأن «النفر» قد بينا فيما مضىٰ، أنه إذا كان مطلقًا بغير صلة بشيء، أنَّ الأغلب من استعمال العرب إياه في الجهاد والغزو. فإذا كان ذلك هو الأغلب من المعاني فيه، وكان جل ثناؤه قال: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾، علم أن قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟﴾، إنما هو شرط للنفر لا لغيره، إذْ كان يليه دون غيره من الكلام)[1].

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وبعدُ، فإنه قال جل ثناؤه: ﴿وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾، عطفًا به علىٰ قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ﴾، ولا شك أن الطائفة النافرة لم ينفروا إلا والإنذار قد تقدّم من الله إليها، وللإنذار وخوف الوعيد نَفرتْ، فما وجْهُ إنذار الطائفة المتخلفة الطائفةَ النافرةَ، وقد تساوتا في المعرفة بإنذار الله إياهما؟ ولو كانت إحداهما جائزٌ أن توصف بإنذار الأخرىٰ، لكان أحقَّهما بأن يوصف به، الطائفة النافرة، لأنها قد عاينت من قدرة الله ونصرة المؤمنين علىٰ أهل الكفر به، ما لم تعاين المقيمة. ولكن ذلك إن شاء الله كما قلنا، من أنها تنذر من حَيِّها وقبيلتها من لم يؤمن بالله إذا رجعت إليه: أن ينزل به ما أنزل بمن عاينته ممن أظفر الله به المؤمنين من نُظَرائه من أهل الشرك)[2].

---

(١) تفسير الطبري (١٢/٨٤) ط: دار عالم الكتب.

(٢) تفسير الطبري (١٢/٨٥) ط: دار عالم الكتب.

الصفة السابعة:
العـمـل

■ بيانها والمقصود بها في السياق الإصلاحي:

• أن يكون العمل قضية جوهرية، وثقافة معيارية للمصلحين؛ بحيث يُعرَّف علىٰ أنَّه غاية العلم والمعرفة، وأنه لا قيمة للمعرفة مجردة عن العمل الواجب الذي تقتضيه تلك المعرفة، وأن الشهادات العلمية الأكاديمية وحدها دون تفعيل أثرها عمليا في السياق الإصلاحي إنما هي مقدمة لا تصلح دون نتيجتها.

■ مستندها من الوحي في السياق الإصلاحي:

• قول شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ وهذا يدل علىٰ أهمية أن يكون المصلح أول المستجيبين لدعوته، والممتثلين للأمر الذي يدعو إليه، كما قال موسىٰ ﷺ: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وقال: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾ وكما قال محمد ﷺ: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

• قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ وسيأتي بإذن الله تعالىٰ في صفة الربانية من صفات المصلحين أنها تدل علىٰ الترابط الوثيق بين العلم والعمل، وكذلك في صفة الحكمة، فهناك ارتباط وثيق بين هذه الصفات الإصلاحية الثلاثة: العمل والحكمة والربانية.

■ أهميتها في السياق الإصلاحي: -وجودًا وعدمًا-

- أن العمل شرط لتحقيق الثمرة، فلا ثمرة بلا عمل.
- أنه سبب العون والنصر والمدد الإلهي.
- أنه من أهم أسباب طرد اليأس وبث الأمل والتفاؤل، فالعاملون هم المتفائلون، والقاعدون هم اليائسون البائسون.
- أنه يُنضج الأفكار النظرية، إذ إن دائرة الأفكار تبقىٰ مثالية حتىٰ يتم العمل بها والنزول بحقائقها إلىٰ ميادين الدعوة والإصلاح، فتظهر بصورةٍ عملية مصححة للفكرة النظرية، إما بزيادة أو نقص، وإما بتأكيد أو إلغاء، فالعمل يزن القول ويعدّله، فهو وسيلة لقياس واقعية التقديرات النظرية بتنزيلها علىٰ أرض الواقع.

■ كيفية تحقيقها:

- الاستحضار الدائم بأن العمل غاية وأن العلم وسيلة.
- تربية الطلاب علىٰ غائية العمل، وتنشئتهم علىٰ أن الحفظ والقراءة وسائل لا يُفضَّل الإنسان بها وحدها.
- إدامة النظر في سيرة النبي ﷺ وسير المرسلين، والتنبه للمعنىٰ العملي فيها ومدىٰ مركزيته.
- تأمل الواقع ومقدار المشكلات فيه مما يقود إلىٰ الإيمان بضرورة العمل وعدم جدوىٰ التنظير المجرد.

الصفة الثامنة:
القـوة

■ بيانها وما يدخل فيها:

المقصود بهذه الصفة في سياق صفات المصلحين: القوة المعنوية المتعلقة بالنفس وعزيمتها والقلب وثباته وإقدامه، وإن كان يدخل فيها -كذلك- القوة الجسمانية والمادية، وقوة البيان، وامتلاك الأدوات والمهارات، إلا أنَّ الأساس فيها هو القوة النفسية المعنوية.

وهذه الصفة جامعة لكثير من المعاني الشريفة، وقد فضّل النبي ﷺ المؤمن القوي علىٰ المؤمن الضعيف، كما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: (المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كُلٍّ خير)[1] وقد علَّق الإمام النووي رحمه الله علىٰ هذا الحديث في شرحه لصحيح مسلم، تعليقًا بديعًا، فقال: (والمراد بالقوة هنا عزيمة النفس والقريحة في أمور الآخرة؛ فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداما علىٰ العدو في الجهاد، وأسرع خروجا إليه، وذهابا في طلبه، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر علىٰ الأذىٰ في كل ذلك، واحتمال

---

(١) (٢٦٦٤)

المشاق في ذات الله تعالىٰ، وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات، وأنشط طلبا لها، ومحافظة عليها، ونحو ذلك).

والخلاصة أن مما يدخل في صفة القوة في السياق الإصلاحي:

- عزيمة النفس وإقدامها.
- ثبات القلب ورباطة الجأش.
- الشجاعة.
- قوة الرأي.
- البيان.
- الأدوات والمهارات.
- امتلاك النفس عند الغضب.

■ مستندها من الوحي في السياق الإصلاحي:

- قوله سبحانه: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ قال السعدي في تفسيره لهذه الآية (فإنه جمع القوة والأمانة، وخيرُ أجير استؤجر من جمعهما -أي: القوة والقدرة علىٰ ما استؤجر عليه والأمانة فيه بعدم الخيانة-، وهذان الوصفان، ينبغي اعتبارهما في كل من يتولىٰ للإنسان عملا، بإجارة أو غيرها؛ فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما، وأما باجتماعهما، فإن العمل يتم ويكمل)[١].

- وفي قوة النفس في الإيمان وعزيمتها في الطاعات: الحديث الصحيح: «المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف»[٢].

---

(١) تفسير السعدي (٨٢٠) ط: ابن الجوزي.

(٢) صحيح مسلم (٢٦٦٤)

• وفي منع النفس عن حجب العقل وقت الغضب: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[1] ولاحظ الوصف بالشديد.

• وفي القوة البيانية: (اهجوا قريشًا؛ فإنه أشد عليها من رشق النبل)[2].

• وفي قوة الجسم، والقوة المادية، قوله سبحانه: ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ وكذلك قوله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ وقد فسر النبي ﷺ القوة بالرمي كما في الصحيح.

■ أهميتها في السياق الإصلاحي -وجودًا وعدمًا-:

• القوة أساس متين للمصلح كي لا تفتَّ عضدَه الأزماتُ والابتلاءات والتحديات، فهي أساس في الثبات علىٰ الطريق والصمود حتىٰ النهاية: ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟﴾ وعمودها: الصبر.

• القوة مهمة في محافظة المصلح علىٰ انضباطه في مساره الإصلاحي؛ لأن المصلح يتعرض للتكذيب والتشويه والازدراء والحساد، فإذا لم تكن لديه قدرة علىٰ ضبط نفسه فقد ينجرف إلىٰ دوائر الدفاع عن النفس والخصومات الشخصية؛ حتىٰ تغرقه فيها فيترك أساس الرسالة أو يخل بجوهرها.

• الانطلاق في مشاريع الإصلاح يتطلب جرأة ومبادرة وقوة نفس.

• القوة أساس في تجدد الأمل وعدم الانكسار أمام الإخفاقات.

• القوة البيانية والقوة المهارية أساسان في أدوات المصلح لإيصال رسالته.

• الضعف أمام التحديات والابتلاءات قد يؤدي إلىٰ تنكب الطريق، والانتكاس.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١١٤) ومسلم (٢٦٠٩)

(٢) صحيح مسلم (٢٤٩٠)

■ **كيفية تحقيقها:**

• تحقيق التوكل علىٰ الله والاعتصام به والتفويض إليه، والاستغناء بمعيته؛ فهذا من أعظم ما يجعل المؤمن قويا.

• تنمية مركزية الآخرة، ممَّا يورث النفس إيثار ما هو باقٍ علىٰ ما هو فان، وهذا يؤدي إلىٰ التضحية، ويقلل من معنىٰ الخسارة لدىٰ المؤمن = وهذا من أعظم أسباب القوة، ومن يتأمل في سبب ثبات سحرة فرعون أمام تهديداته ينكشف له هذا المعنىٰ.

• امتلاك المهارات التي يحتاجها المصلح في طريقه، فهي من أسباب القوة، وهذا يتطلب التعلّم والدربة.

• تعويد النفس علىٰ الشدة، وإقحامها موارد الصعوبات؛ بُغية تدريبها علىٰ الشجاعة ورباطة الجأش، وهذا يقتضي أهمية اعتناء المربين بتجنيب الطلاب حالة النعومة والرفاه الزائد، وتعويدهم علىٰ شيء من الخشونة والشدة.

الصفة التاسعة:
الـوعـي

■ بيانها وما يدخل فيها:

- الوعي بسبيل الأعداء وخططهم ومكرهم.
- الوعي بخارطة اتجاهات العاملين في الساحة الإسلامية وتجاربهم وتاريخهم.
- الوعي الفكري، المتضمن معرفة أصول الأفكار والاتجاهات الفكرية والثقافية المؤثرة في الواقع، كالعلمانية.
- الوعي بالواقع السياسي وموازين القوىٰ.
- الوعي المستقبلي وتوقع المشكلات قبل وقوعها أو توقع مآلات وآثار المشكلات الحالية.
- الوعي بالمنهج الإصلاحي والسنن الإلهية.

■ مستندها من الوحي في السياق الإصلاحي:

من يتأمل في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ يدرك أن فيهما عناية فائقة بتنمية وعي المؤمنين بالأعداء وخططهم ومكايدهم، وعدم الاغترار بحِيَلهم ولو أظهروا الصلاح وأقسموا بالله جهد أيمانهم أنهم إنما يريدون الحسنىٰ إذا كانت أفعالهم

علىٰ أرض الواقع تخالف هذه الادعاءات اللفظية، وقد انعكس هذا علىٰ واقع الصحابة العملي فكانوا -مع نبيهم ﷺ - علىٰ الدرجة العليا من الوعي والتنبّه والفطنة، فكانت الحرب بينهم وبين المشركين واليهود والمنافقين حربًا محاطة باليقظة، مصحوبة بالحذر، يشترك فيها الفكر والوعي مع السيف والقلم، وكان هذا كله بتوجيه مباشر من رب العالمين الذي يعلم ما في النفوس، ويحيط بما في الصدور والقلوب، كما قال سبحانه: ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ ثم بتوجيه ومصاحبة من النبي ﷺ الذي كان يتخذ من الإجراءات والأسباب في الحَذَر والتورية والاحتياط والاستعداد تجاه كيد الأعداء ومكرهم ما يجعل أصحابه يكتسبون هذا المعنىٰ.

وفي مقابل ذلك إذا تأملنا في واقع كثير من الفضلاء من الدعاة وطلبة العلم الشرعي اليوم فسنرىٰ انتشار السطحية في النظر إلىٰ الأعداء -وخاصة من المنافقين-، ونرىٰ قلة الوعي بمكرهم وكيدهم، حتىٰ وصل الحال ببعضهم أن يرىٰ في أعدىٰ الأعداء للمشاريع الإسلامية -من ذوي النفوذ والسلطة- أقربَ الأصدقاء المأمونين علىٰ دين الله! وحتىٰ يصِفَ أشدَّ خُصوم الدَّعوة إلىٰ الله بحُسن النظر وخدمة الدين، وهذا سبب من أهم أسباب ما نحن فيه اليوم من مشكلات في كثير من البيئات الشرعية.

وسأذكر هنا مجموعة من الدلائل من الكتاب والسنة التي تدل علىٰ عناية الشريعة بتنمية الوعي لدىٰ المصلحين تجاه كيد أعدئهم، والحرص علىٰ بيان سبيل المجرمين والمنافقين:

قال الله ﷻ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ هذه الآية توجّه المؤمنين إلىٰ أن عدم الاغترار بالدعاوىٰ الظاهرة التي يُتذرّع فيها باسم الله كذبًا وزورًا، وذلك إذا كان عمل أصحابها يخالف هذه الدعوىٰ ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ﴾.

ولا تنفرد هذه الآية القرآنية بهذا المعنىٰ، بل هو معنىً متكرر في كتاب الله العزيز، فقد قال سبحانه في سورة النساء ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا﴾ فتأمل كيف وصف الله حالهم بأنهم يستعملون اسم (الله) ويحلفون به، ليدفعوا عن أنفسهم معرة أعمالهم الخبيثة كما قال ابن كثير في قول الله تعالىٰ ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي: (يعتذرون إليك ويحلفون: ما أردنا بذهابنا إلىٰ غيرك، وتحاكمنا إلىٰ عداك إلا الإحسان والتوفيق، أي: المداراة والمصانعة، لا اعتقادا منا صحة تلك الحكومة)(١) والله سبحانه يرشد المؤمنين إلىٰ عدم الانخداع بذلك، وينمي وعيهم بسبيل هؤلاء المنافقين، ويقول في أول هذه الآيات ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ثم يكشف عن أفعالهم المخالفة لأقوالهم وذلك بإعراضهم عن التحاكم إلىٰ الله ورسوله، ولذلك يصف الله ادعاءهم للإيمان بأنه (زعم) فقال: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾.

وهذا المعنىٰ كثير الورود في كتاب الله -كما تقدم-، يبين الله فيه أن القول الظاهر إذا وُجد ما يناقضه من العمل فلا ينبغي الانخداع به، مع أن الأصل في التعامل مع الناس هو أخذهم بالظاهر، أي أن المسلم غير مأمور بالتفتيش والتنقيب والتجسس حتىٰ يكشف الخبايا، ولكن إذا كان فعل الإنسان الظاهر يخالف قوله فلا ينبغي أن يتعامل معه المؤمن بسذاجة وسطحية، كما في الآيات السابقة، ومما يؤكد هذا المعنىٰ ماورد في شأن مسجد الضرار الذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا

---

(١) تفسير ابن كثير (١/١٠٦٨) ط: ابن كثير.

لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وهذه الآيات عظيمة في معنىٰ تأسيس وعي المؤمنين بكيد المنافقين وسبيل الأعداء، ويمكن أن نسمي ما فعله المنافقون في مسجد الضرار بـ (إنشاء المشاريع البديلة المنافسة للمشاريع الصالحة) وهو أمر يستعمله المجرمون اليوم كثيرًا.

وإذا انتقلنا إلىٰ سنة النبي ﷺ فسنجد من معاني تأسيس الوعي والحذر تجاه الأعداء ما يجعل المؤمنين علىٰ مستوىٰ عال من اليقظة والتنبه، كما ثبت في الصحيح عن كعب بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان لا يريد غزوة إلا ورّىٰ بغيرها(١) وثبت عنه ﷺ «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين»(٢) قال الخطابي رحمه الله (هذا لفظه خبر ومعناه أمر، أي: ليكن المؤمن حازمًا حذرًا لا يؤتىٰ من ناحية الغفلة فيخدع مرة بعد أخرىٰ، وقد يكون ذلك في أمر الدين كما يكون في أمر الدنيا وهو أولاهما بالحذر)(٣) وللتوسع في هذا المعنىٰ يمكن للإنسان أن يتدبر في كتاب الله تعالىٰ ما جاء فيه حول هذا الموضوع، وقد شرعت في ذلك عبر سلسلة (بيان القرآن لسبيل المجرمين)(٤).

وما مضىٰ كله فإنما هو حول جانب واحد من جوانب الوعي، وهو المتعلق بالأعداء وسبيلهم، وهناك جوانب أخرىٰ مهمة من الوعي بناها النبي ﷺ في

---

(١) صحيح البخاري (٢٩٤٧)

(٢) البخاري (٦١٣٣) ومسلم (٢٩٩٨)

(٣) أعلام الحديث للخطابي (٣/٢٢٠٢) طبعة معهد البحوث العلمية - مركز إحياء التراث الإسلامي

(٤) وهي سلسلة جديدة مستمرة بإذن الله تعالىٰ، ولعله سبحان يسهل إخراجها مستقبلا في صورة مقروءة.

أصحابه، وهو الوعي المستقبلي بمشكلات الطريق ومزالقه، وهو من أعظم أبواب الوعي، وذلك أنّ النبي ﷺ كان يحذر أصحابه من الفتن المستقبلية، ويعيّنها لهم ويحددها، ويدلهم على سبل الوقاية المبكرة منها، كما أنه يرشدهم إلى كيفية التعامل عند وقوعها، وسيأتي تفصيل ذلك في القسم الأخير من الكتاب عند الحديث عن التحديات بإذن الله تعالى.

■ أهميتها في السياق الإصلاحي: -وجودًا وعدمًا-:

• أن المفسدين في واقع اليوم على درجة متقدمة من المكر والكيد؛ فلا يمكن مواجهة كيدهم إلا بوعي عميق، وأما الغفلة والسذاجة التي يسير بها بعض الصالحين وطلبة العلم فهي مصيبة تتطلب معالجة جذرية.

• المحافظة على استقامة الطريق الإصلاحي، وعدم الانجرار إلى الفخاخ التي ينصبها الأعداء في الطريق.

• استباق المخاطر والمشكلات بخطوات احترازية مبكرة عبر الوعي بمآلات مشكلات الواقع ونهاياتها.

• اقتناص الفرص المناسبة للمسيرة الإصلاحية والتي لا يُرى بعضها إلا عبر النظر الشمولي والوعي بالواقع.

• السير في الطريق الإصلاحي بمراعاة معطيات الواقع العملية لا من الخيالات التنظيرية المجردة.

• دوام تجديد الوسائل بما يتناسب مع مستجدات الواقع.

■ كيفية تحقيقها:

• المحافظة على مسافة بين المصلح وبين مشكلات واقعه، بحيث لا يُستخرج تفكيره تحت وطأة المشكلات فينحصر في نطاقها، وإنما المطلوب أن يحقق النظر الشمولي للواقع.

- أن يكون تحليل الواقع بناء علىٰ واقع الأمة العام، وليس علىٰ الواقع الخاص للمصلح في بيئته أو بلده فقط.
- فهم السياقات التاريخية الحديثة التي أدت إلىٰ تشكيل الواقع الحالي.
- فهم السياق التدافعي الشمولي الذي تعيشه الأمة.
- دراسة تجارب المصلحين المعاصرين والمتقدمين.
- وعي السنن الإلهية المتعلقة بالتدافع بين الحق والباطل وآثارهما.

الصفة العاشرة:
الحكمة

■ بيانها وما يدخل فيها:

• الحكمة في العمل الدعوي هي: «اتخاذ الإجراء المناسب في الوقت المناسب بالقدر المناسب. فهي إذًا راجعة في النهاية إلىٰ كلمة واحدة جامعة، هي: حُسن التقدير والتدبير»[1]. وهي كما يذكر العلماء تدور علىٰ معاني العلم الصحيح المتقن، وحسن الفهم والفقه في الدين، وإجراء الفعل علىٰ وفق ذلك العلم، وإصابة الحق في ذاته، ومما يدخل فيها في السياق الإصلاحي:

- العلم الفارق بين الحق والباطل، والفاصل بين الملتبسات.
- فقه الأولويات وواجبات الأوقات.
- فقه الموازنات بين المصالح والمفاسد ومراتبها.
- إقامة المشاريع العملية في الدعوة والإصلاح علىٰ العلم الراسخ.

■ مستندها من الوحي في السياق الإصلاحي:

• قول الله ﷻ ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي

(١) الفطرية، فريد الأنصاري (١١٤)

هِيَ أَحْسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ وقد ذكر المفسرون أن من أول ما يدخل في الحكمة هنا:

القرآن، وقد ذكر البقاعي معنىٰ مهمًا للحكمة في السياق الإصلاحي، وذلك عند تفسيره لهذه الآية، فقال: (هي المعرفة بمراتب الأفعال في الحسن؛ والقبح؛ والصلاح؛ والفساد؛ وقيل لها «حكمة»؛ لأنها بمنزلة المانع من الفساد؛ وما لا ينبغي أن يختار؛ فالحكيم هو العالم بما يمنع من الفساد؛ قاله الرماني؛ وهي في الحقيقة الحق الصريح؛ فمن كان أهلا له دعا به)[1]

• ومن المستندات كذلك قوله ﷻ ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾ وقد ذكر الطبري في تفسيرها معنىٰ هو من أهم المعاني التي ينبغي أن يكون عليها المصلحون في هذا الزمن، فقال: (يعني بذلك جَلَّ ثناؤه: يؤتي اللهُ الإصابةَ في القول والفعل من يشاء من عباده، ومن يؤت الإصابة في ذلك منهم، فقد أوتي خيرا كثيرا[2]).

■ أهميتها في السياق الإصلاحي -وجودًا وعدمًا-:

• معرفة أولويات الإصلاح والسير عليها.

• انطلاق المشاريع الإصلاحية من العلم الصحيح الذي يفرق به بين الحق والباطل ويصاب به الحق.

• حُسن تنزيل العلم الصحيح علىٰ الواقع، والقدرة علىٰ إبصار الواقع وملتبساته.

• حسن الموازنة والتقدير بين المصالح والمفاسد.

• عدم انحراف البوصلة نتيجة ردات الفعل غير المحسوبة.

---

(١) تفسير البقاعي (٤/ ٣٢٤) ط: الكتب العلمية

(٢) تفسير الطبري (٨/ ٥) ط: دار عالم الكتب.

■ **كيفية تحقيقها:**

• العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وذلك بالعناية بحفظ ما يتيسر منهما، والتفقه فيه، وتدبره، والاستفادة من كلام العلماء عليه، والعمل به.

• تشرُّب سيرة النبي ﷺ، والوقوف الدائم عندها، واستنباط الهدي العام والهدي التفصيلي للنبي ﷺ.

• الانطلاق من المحكمات ورد المتشابهات إليها.

• فهم مراتب الدين، والتعامل مع كل مرتبة بما تستحقه من التعظيم والعناية والاهتمام.

• ضبط المعايير التقييمية، ووزنها علىٰ الميزان العام للشرع.

• الإدراك العميق للواقع المتصل بالمصلح.

• التجربة؛ إذْ «لا حكيم إلا ذو تجربة» -كما قال معاوية رضي الله عنه-[١] وقد روي مرفوعًا إلىٰ النبي ﷺ من حديث أبي سعيد الخدري عند الترمذي وأحمد، وإسناده ليّن[٢].

• مصاحبة ذوي الرأي والعقل والفهم، وقراءة سير المتقدمين من ذوي الحكمة والعقل والفهم.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا بصيغة الجزم عن معاوية، في كتاب الأدب من الصحيح، باب: لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين

(٢) لأنه من طريق دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد، وهذا الطريق من السلاسل المشهورة عن أبي سعيد ولكنها سلسلة ضعيفة.

الصفة الحادية عشرة:
الدربة والتجربة والخبرة

■ بيانها وما يدخل فيها:

• المقصود بها: أن يكون لدىٰ المصلح رصيد من الممارسة التدريبية، والتجارب العملية في الدعوة والإصلاح والتربية والتعامل، تورثه حنكة عند الأزمات والشدائد، وخبرة تؤهله لإحسان التعامل والاختيار، ودُربة تعينه علىٰ الصبر والتحمل والتوازن.

■ مستندها من الوحي في السياق الإصلاحي:

• قال موسىٰ عليه السلام للنبي محمد ﷺ ليلة المعراج: (أنا أعلم بالناس منك، عالجتُ بني إسرائيل أشد المعالجة)[1].

• عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (ما بعث الله نبيا إلا رعىٰ الغنم) أخرجه البخاري[2]، وقد ذكر العلماء المناسبة بين هذا الخبر وبين قضية التدريب والتجربة، فذكر ابن حجر رحمه الله في الفتح ما يلي: (قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها علىٰ ما يكلفونه من

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)

(٢) الصحيح (٢٢٦٢)

القيام بأمر أمتهم؛ ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا علىٰ رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعىٰ ونقلها من مسرح إلىٰ مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها مع ضعفها، واحتياجها إلىٰ المعاهدة ألفوا من ذلك الصبر علىٰ الأمة وعرفوا اختلاف طباعها وتفاوت عقولها، فجبروا كسرها، ورفقوا بضعيفها وأحسنوا التعاهد لها؛ فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة، لما يحصل لهم من التدريج علىٰ ذلك برعي الغنم، وخصت الغنم بذلك لكونها أضعف من غيرها؛ ولأن تفرقها أكثر من تفرق الإبل والبقر لإمكان ضبط الإبل والبقر بالربط دونها في العادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقيادا من غيرها)[1].

■ أهميتها في السياق الإصلاحي -وجودًا وعدمًا-:

- اعتياد العمل، واستسهاله للقيام بالمشاريع الجديدة والمبادرات النافعة.
- الخبرة تختصر المسافات والأوقات، وتعطي أفضل النتائج.
- عدم استعجال النتائج والثمرات؛ حيث يتضح للمصلح بالخبرة الناتجة عن طول التجربة أن ثمرة الإصلاح تتطلب صبرا وانتظارًا.
- القدرة علىٰ التعامل مع الفرقاء ومختلف الأطراف.
- الصمود أمام الضربات.

■ كيفية تحقيقها:

- التدريب واكتساب المهارات والقيام بالتجارب، في الإلقاء ومعاملة الناس والكتابة وغير ذلك، مما ينفع في المجالات الإصلاحية.

---

(١) فتح الباري لابن حجر (٤/٥٥٨) ط: دار السلام

- الممارسة العملية للإصلاح، وتحمل الأعباء في سبيل ذلك والصبر علىٰ اللأواء بنيّة الفقه لحقائق الطريق.
- الاستفادة من تجارب الآخرين في السياقات الإصلاحية.
- قراءة سير المصلحين والوقوف عند عبرها.

الصفة الثانية عشرة:
المسؤولية

■ بيانها وما يدخل فيها:

• المسؤولية الذاتية تجاه النفس بالنجاة من عذاب الله تعالىٰ؛ مما يؤدي إلىٰ الالتزام بمقتضىٰ الوحي في الطريق الإصلاحي وعدم الخضوع أمام الإغراءات.

• المسؤولية المتعدية تجاه بقية المسلمين بالنصح والنصرة والإعانة.

• المسؤولية المتعدية تجاه عموم البشر بدعوتهم إلىٰ الله تعالىٰ وهدايتهم.

■ مستندها من الوحي في السياق الإصلاحي:

• قال الله ﷻ: ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾.

• وقال سبحانه: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا﴾.

• عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّكُم راعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، الإمامُ راعٍ ومَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ»[1]

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩٣) ومسلم (١٨٢٩).

• عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ عن الدجال: «إنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ، فأنَا حَجِيجُهُ دُونَكُمْ، وإنْ يَخْرُجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ، فَامْرُؤٌ حَجِيجُ نَفْسِهِ»(١)

■ أهميتها في السياق الإصلاحي: -وجودًا وعدمًا-:

• تحمل المسؤولية من أهم أسباب المبادرة الدائمة إلىٰ الخير، فكثير من المشاريع الإصلاحية إنما تنشأ نتيجة الشعور بالمسؤولية، وعدم الإلقاء بها علىٰ الآخرين.

• أنها من أهم أسباب المداومة علىٰ العمل الإصلاحي أوقات الأزمات والفتن ومراحل الانكسار.

• أنها من أسباب التصحيح للأخطاء، وتطوير العمل، وعدم الرضا بأقل النتائج.

■ كيفية تحقيقها:

• الابتعاد عن صحبة البطالين والتافهين.

• تعزيز مركزية الآخرة.

• إدراك خطورة إلقاء التبعات علىٰ الآخرين والتملص من المسؤولية علىٰ السياق العام للأمة.

• الانطلاق من مركزية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣٧)

الصفة الثالثة عشرة:
العـزة

■ بيانها وما يدخل فيها:

- الاستعلاء الإيماني.
- الأنفة من الخضوع للباطل وأهله.
- كرامة النفس.
- تنزيه الحق عن دنس المطامع.

■ مستندها من الوحي في السياق الإصلاحي:

• قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قال السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أي: ولا يحزنك قول المكذبين فيك من الأقوال التي يتوصلون بها إلىٰ القدح فيك، وفي دينك فإن أقوالهم لا تعزهم، ولا تضرك شيئًا. ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾ يؤتيها من يشاء، ويمنعها ممن يشاء. قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ أي: فليطلبها بطاعته، بدليل قوله بعده: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾ ومن المعلوم، أنك علىٰ طاعة الله، وأن العزة لك ولأتباعك من الله ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾)[1]

---

(١) تفسير السعدي (٤١٢) طبعة ابن الجوزي.

- ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ في هذه الآية يذكر الله عن المنافقين أنهم يتطلبون العزة لدىٰ الكفار ويُعرضون عن ابتغائها من عند الله الذي له العزة جميعا، وهذا حث للمؤمنين علىٰ أن يبتغوا العزة من عند الله، كما قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والمقصود من هذا: التهييجُ علىٰ طلب العزة من جناب الله، والالتجاء إلىٰ عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد)[1]
- ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾.

■ أهميتها في السياق الإصلاحي: -وجودًا وعدمًا-

- الصمود أمام الإغراءات التي يُراد بها تدنيس شرف الدعوة.
- عدم الرضوخ لسطوة المال ولو كان علىٰ هيئة دعم للمشاريع الإصلاحية.
- مقاومة دواعي الاستسلام والانهزام أمام كثرة الابتلاءات والعقبات.
- أن خلوّ المصلح من العزة يجعله عُرضة لتقديم التنازلات الفاسدة.

■ كيفية تحقيقها:

- التربية المبكرة علىٰ قوة النفس وعلىٰ الشجاعة والأنفة.
- الاستغناء بالمصادر المالية الحرة البعيدة عن سطوة المتحكمين.
- عدم الانكفاء عن ميادين المدافعة بين الحق والباطل.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٧٩٧) طبعة الرسالة.

الصفة الرابعة عشرة:
الرحمة بالمؤمنين واللين معهم والرفق بهم

■ بيانها وما يدخل فيها:

• التآلف والتحاب والتواد والحرص علىٰ تأسيس ورعاية أواصر الأخوة في الله.

• الحرص علىٰ المؤمنين بالرعاية والاهتمام والنصيحة.

• الرفق في التعامل مع الأخطاء.

• الإيثار.

• الصبر علىٰ الأذىٰ الذي قد يصل إلىٰ المصلح من إخوانه.

• نصرة المظلوم.

■ مستندها من الوحي في السياق الإصلاحي:

• ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾.

• ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

• ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾.

• قول النبي ﷺ: «إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[1] وقوله: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»[2].

■ أهميتها في السياق الإصلاحي: -وجودًا وعدمًا-

• تحقيق التآلف بين العاملين للإسلام فيه مؤازرة القلوب ببعضها، وتقوية الظهر أمام الأعداء، وشد العضد لتحمل التكاليف: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾.

• البعد عن سبب الفشل الذي ذكره الله في القرآن وهو التنازع ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ وهذه قضية مركزية في السياق الإصلاحي.

• التناصح وسد الخلل وتصحيح الأخطاء.

• عدم التوقف عن طريق الإصلاح بسبب بغي بعض الصالحين.

■ كيفية تحقيقها:

• إدراك مركزية الرفق وأنه سبب الخير، وأن خلو الأعمال عن الرفق إنما هو نزع للخيرية منها «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه»[3].

• عدم الاكتفاء بالدروس الشرعية النظرية، وأهمية دخول طلاب العلم في سياقات تربوية عملية، والواقع يثبت الفرق بين من تربىٰ في محاضن تربوية وبين من اكتفىٰ بالدروس العلمية دون سياق عملي، من جهة معاني الأخوة والإيثار والرحمة والرفق واللين.

• تدريب النفس علىٰ التنازل والعفو وكظم الغيظ.

• تعزيز قيمة الولاء للمؤمنين وأنه من العقيدة والأصول ومركزيات الشريعة.

---

(١) البخاري (٤٨١) ومسلم (٢٥٨٥)

(٢) البخاري (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠)

(٣) صحيح مسلم (٢٥٩٤)

الصفة الخامسة عشرة:
العـدل

■ بيانها وما يدخل فيها:

مفهوم العدل في أساسه واضح بيّن، غير أن المجالات التي ينبغي أن يستحضرها المصلح في سياق تحقيقه للعدل متنوعة، من أهمها:

• العدل مع كل من هم تحت مسؤولية المصلح المباشرة، من أهل وأبناء وطلاب وعاملين، وذلك بإعطاء كل ذي حق حقه والحرص علىٰ المساواة بينهم.

• العدل مع المخالفين من المسلمين، سواء أكان الخلاف عقديًا أم فقهيا أم منهجيًا أم شخصيًا، وذلك بعدم إهمال محاسنهم والخير الذي عندهم بسبب الخلاف أو الشر الذي لديهم.

• العدل مع الكفار الصادين عن سبيل الله، وذلك بعدم مجاوزة الأمر المشروع فيهم.

■ مستندها من الوحي في السياق الإصلاحي:

• قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ ۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وقوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا

يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

• عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: (إن المقسطين عند الله علىٰ منابر من نور عن يمين الرحمن عَزَّ وَجَلَّ، وكلتا يديه يمين؛ الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا)(1).

• عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: (سبعة يظلهم الله يوم القيامة في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: **إمام عادل**، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل ذكر الله في خلاء ففاضت عيناه، ورجل قلبه معلق في المسجد، ورجلان تحابا في الله، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلىٰ نفسها، قال: إني أخاف الله. ورجل تصدق بصدقة فأخفاها؛ حتىٰ لا تعلم شماله ما صنعت يمينه)(2)

■ أهميتها في السياق الإصلاحي -وجودًا وعدمًا-:

• الابتعاد عن سبب من أهم أسباب تأخر النصر، ألا وهو الظلم، وموافقةُ سبب من أهم أسباب النصر ألا وهو العدل، ولذلك فإنَّ المُصلح إذا لم يكن قد تربىٰ علىٰ العدل وتشرب مفهومه فإنه قد يجور في الطريق، وكلما ازداد جورا ازداد عن عون الله وتأييده بُعدًا.

• التوازن في السير الإصلاحي بإعطاء كل ذي حق حقه، لأن المصلح قد تكثر أعماله، وتتسع دائرة علاقاته، فتكثر الحقوق عليه، فإذا لم يكن عادلًا فقد يظلم أهله علىٰ حساب دعوته، وقد يفعل العكس.

• عدم إسقاط العاملين الآخرين بسبب بعض أخطائهم، والعمل بمبدأ الموازنة بين حسناتهم وسيئاتهم، وهذا مهم للسياق الإصلاحي، لتحقيق اجتماع

---

(1) أخرجه مسلم (١٨٢٧)

(2) أخرجه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١).

الكلمة والبعد عن الفرقة والاختلاف؛ ففقدان العدل من أهم أسباب التنازع بالباطل، والبغي علىٰ الإخوان.

■ **كيفية تحقيقها:**

• الإيمان التام بمركزية العدل وأنه معيار من أعظم معايير صحة الطريق الإصلاحي.

• العلم بهدي رسول الله واتباعه في ذلك فهو الميزان في العدل.

• قيام المربين بتحقيق العدل عمليا في تعاملهم مع الطلاب حتىٰ تكون قيمة حاضرة يتلقاها الجميع.

• إبراز قيمة العدل ومعالمه بالتطبيق العملي من المصلح.

• محاربة البغي في الأوساط الإسلامية.

الصفة السادسة عشرة:
الـربـانـيـة

سأتناول هذه الصفة الإصلاحية بدمج العناصر الأربعة التي قسمت بها الصفات السابقة، وذلك لكون الحديث عن هذه الصفة سيكون دائرًا حول آية في كتاب الله هي العمدة في صفة الربانية، وهي قوله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ وهي آية عظيمة ومركزية في سياق صفات المصلحين، وفيها دعوة من الأنبياء لأتباعهم بأن يكونوا علىٰ هذه الصفة.

وقد تنوعت أقوال المفسرين في التعامل مع هذه المفردة (الربانيين)، واختلفوا في اشتقاقها هل هو من (الربّ) أم من (الربّان)، ومنهم من فسرها بأوصاف مباشرة، فقالوا: الربانيون هم: الحكماء العلماء الحلماء، ومنهم من قال: الفقهاء المعلمون، كما قال الماوردي في تفسيره: (فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: فقهاء علماء، وهو قول مجاهد. والثاني: حكماء أتقياء، وهو قول سعيد بن جبير. والثالث: أنهم الولاة الذين يربون أمور الناس، وهذا قول ابن زيدوفي أصل الرباني قولان: أحدها: أنه الذي يرب أمور الناس بتدبيره، فسمي العالم ربانيا لأنه بالعلم يدبر الأمور.

والثاني: أنه مضاف إلىٰ عالم الرب، وهو علم الدين، فقيل لصاحب العلم الذي أمر به الرب رباني)[1]. وهكذا تجد أن الأقوال في تفسير الآية تدور حول

(١) النكت والعيون (١/ ٤٠٥-٤٠٦) مؤسسة الكتب الثقافية. باختصار

معنىٰ العلم والفقه والعمل به وتعليمه والتربية عليه، غير أن إمام المفسرين: ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قد وُفق في تفسير الآية وفُتح عليه في بيان معناها بكلام حري بأن يُحفَظ وتعقد عليه الأنامل، وهو مهم في السياق الإصلاحي، وقد سبق أن أوردت بعضه في أكثر من موضع في الكتاب.

وهو قد رجح أولًا أن أصل الكلمة من (الربان) وانتصر لذلك واحتج له، ثم بيّن من الذي يصدق عليه أن يسمىٰ ربانيا بعد هذا التقرير، وفي تقريره لهذا المعنىٰ جمع بين الأقوال في جملة بديعة، ومن مجموع كلامه يستبين لك مركزية صفة الربانية في السياق الإصلاحي، قال رحمه الله تعالىٰ: (وأولىٰ الأقوال عندي بالصواب في «الربانيين» أنهم جمع «رباني»، وأن الرباني المنسوب إلىٰ «الرَّبَّان»، الذي يربُّ الناسَ، وهو الذي يُصْلح أمورهم، و«يربّها»، ويقوم بها، . . ، يقال منه: «رَبَّ أمري فلان، فهو يُربُّه رَبًّا، وهو رَابُّه، فإذا أريد به المبالغة في مدْحه قيل: «هو ربّان»، كما يقال: «هو نعسان» من قولهم: «نعَس يَنعُس» . . .

فإذا كان الأمر في ذلك علىٰ ما وصفنا،

وكان «الربَّان» ما ذكرنا،

والربّانيُّ هو المنسوب إلىٰ من كان بالصفة التي وصفتُ،

وكان العالمُ بالفقه والحكمة من المصلحين يَرُبّ أمورَ الناس، بتعليمه إياهم الخيرَ، ودعائهم إلىٰ ما فيه مصلحتهم،وكان كذلك الحكيمُ التقيُّ لله،

والوالي الذي يلي أمور الناس علىٰ المنهاج الذي وَليه المقسطون من المصْلحين أمورَ الخلق، بالقيام فيهم بما فيه صلاحُ عاجلهم وآجلهم، وعائدةُ النفع عليهم في دينهم، ودنياهم = كانوا جميعًا يستحقون أن يكونوا ممن دَخل في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾.

فالربانيون إذًا، هم عمادُ الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا؛ ولذلك قال مجاهد: «وهم فوق الأحبار»، لأن «الأحبارَ» هم العلماء، و«الرباني»

الجامعُ إلىٰ العلم والفقهِ البصرَ بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم)[1].

ثم قال ﷺ: (فمعنىٰ الآية: ولكن يقول لهم: كونوا، أيها الناس، سادة الناس، وقادتهم في أمر دينهم ودنياهم، ربَّانيِّين بتعليمكم إياهم كتاب الله وما فيه من حلال وحرام، وفرض وندب، وسائر ما حواه من معاني أمور دينهم، وبتلاوتكم إياه ودراسَتِكموه)[2] انتهىٰ كلامه ﷺ، وهو كلام في غاية الأهمية.

وما سبق من كلام العلماء علىٰ معنىٰ (الربانيين) يدل علىٰ أهمية ارتباط العلم بالعمل، وأن يكون العلم وسيلة، والعمل غاية، خاصة وأن الآية ختمت بقول الله تعالىٰ ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾، وهذه نصوص تكشف عن أهمية هذا الارتباط من كلام المفسرين:

قال الزمخشري: (بسبب كونكم عالمين وبسبب كونكم دارسين للعلم؛ أوجب أن تكون الربانيةُ -التي هي قوة التمسك بطاعة الله- مُسَبَّبَةً عن العلم والدراسة، وكفىٰ به دليلا علىٰ خيبةِ سعيٍ من جهد نفسه وكد روحه في جمع العلم، ثم لم يجعله ذريعة إلىٰ العمل، فكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء تونقه بمنظرها ولا تنفعه بثمرها)[3].

وقال صديق حسن خان في فتح البيان في تفسيره لهذه الآية: (فدلت الآية علىٰ أنّ العلم والتعليم والدراسة توجب كون الإنسان ربانيًا؛ فمن اشتغل بها لا لهذا المقصود فقد ضاع علمه وخاب سعي).

---

(١) تفسير الطبري (٥/٥٢٩-٥٣١) ط: دار عالم الكتب باختصار.

(٢) تفسير الطبري (٥/٥٣٣) ط: دار عالم الكتب.

(٣) الكشاف مع فتوح الغيب للطيبي (٤/١٥٧)

الصفة السابعة عشرة:
الصدق

■ بيانها ومستندها من الوحي[1]:

لا يُقصد بهذه الخصلة في سياق صفات المصلحين مجرد صدق الحديث باللسان، وإنما المقصود بها أن يكون المصلح في عمله وواقعه مصدقا لدعواه بلسانه، وأن يثبت على عهده مع الله تعالى حتى يلقاه غير مبدل ولا مفتون، كما قال سبحانه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ وكما قال سبحانه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ فالذين قالوا آمنا بألسنتهم يبتليهم الله ويفتنهم ويختبرهم حتى يتبين بواقع أحوالهم وبأعمالهم هل كانوا صادقين في قولهم ﴿ءَامَنَّا﴾ أم أنهم كذبوا في هذا الادعاء فلم يثبتوا عند الابتلاء؛ فنكصوا على أعقابهم، وفي ذلك يقول الإمام الطبري تعليقًا على قول الله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ قال: (يعني: مع من صَدَق اللهَ الإيمانَ به، فحقَّق قوله

---

(١) دمجت في هذه الخصلة بين فقرتي (بيانها) و(مستندها من الوحي) للتداخل الحاصل بين مضمونيهما في هذه الصفة.

بفعله، ولم يكن من أهل النفاق فيه، الذين يكذّب قيلَهم فعلُهم)[1] وهذا نصٌّ واضح شريف من أبي جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أن مدار الصدق في هذه الآية علىٰ موافقة الفعل للقول، وهذه الآية لها ارتباط بالسياق الإصلاحي وذلك أنها قد أتت بعد سياق قصة الثلاثة الذين خلفوا، وقبل أمر الله لأهل المدينة بعدم التخلف عن رسول الله إذا خرج إلىٰ الغزو؛ ولذلك قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره لهذه الآية وذِكْر سياقها: (واعلم أنه تعالىٰ لما حكم بقبول توبة هؤلاء الثلاثة، ذكر ما يكون كالزاجر عن فعل ما مضىٰ، وهو التخلف عن رسول الله ﷺ في الجهاد فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفة أمر الرسول ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ يعني مع الرسول وأصحابه في الغزوات، ولا تكونوا متخلفين عنها وجالسين مع المنافقين في البيوت)[2].

ولذلك نجد أن الصدق يُذكَر في كتاب الله مع الجهاد لكون الجهاد فيه أعلىٰ درجات التصديق الفعلي للادعاء القولي بالإيمان، كما قال سبحانه في سورة الحجرات: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ﴾ فتأمل حكمه سبحانه لمن جمع بين اليقين والجهاد بأنه هو الصادق في إيمانه؛ إذْ إن اليقين الذي يُدرأ به الريب، والجهاد الذي فيه تقديم محبة الله ورسوله علىٰ النفس والأهل والمال = هما من أعظم ما يقدمه المؤمن برهانا علىٰ صدقه في دعواه بلسانه أنه مؤمن، ولذلك فقد ذكر الإمام ابن تيمية كلامًا عجيبا في قضية الجمع بين اليقين والجهاد وكونه علامة علىٰ الصدق، وذلك في قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر، أو ولدوا علىٰ الإسلام والتزموا شرائعه وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله = فهم

(١) تفسير الطبري (١٢/ ٦٧) ط: دار عالم الكتب.
(٢) التفسير الكبير للرازي (١٦/ ١٩١) المكتبة التوفيقية.

مسلمون، ومعهم إيمان مجمل، ولكن دخول حقيقة الإيمان إلىٰ قلوبهم إنما يحصل شيئا فشيئا -إن أعطاهم الله ذلك-، وإلا فكثير من الناس لا يَصِلون لا إلىٰ اليقين ولا إلىٰ الجهاد، ولو شُكّكوا لشكّوا، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا -وليسوا كفارا ولا منافقين-، بل ليس عندهم من علم القلب ومعرفته ويقينه ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ولرسوله ما يقدمونه علىٰ الأهل والمال، وهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة، وإن ابتُلوا بمن يورد عليهم شبهات توجب ريبهم، فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب وإلا صاروا مرتابين، وانتقلوا إلىٰ نوع من النفاق. وكذلك إذا تعين عليهم الجهاد ولم يجاهدوا، كانوا من أهل الوعيد، ولهذا لما قدم النبي ﷺ المدينة أسلم عامة أهلها، فلما جاءت المحنة والابتلاء نافق من نافق، فلو مات هؤلاء قبل الامتحان لماتوا علىٰ الإسلام ودخلوا الجنة، **ولم يكونوا من المؤمنين حقا الذين ابتلوا فظهر صدقهم**؛ قال تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾(1).

وفي كتاب الله تعالىٰ غير موضع يُذكر فيه الصدق في سياق الجهاد كما في سورة الأحزاب، وسورة محمد، وغيرها، ومما يجدر التنبيه إليه أن مرتبة الصديقية التي هي بعد مرتبة النبوة إنما هي درجة عالية من منزلة الصدق، كما قال ابن القيم رحمه الله: (أعلىٰ مراتب الصدق: مرتبة الصديقية وهي كمال الانقياد للرسول مع كمال الإخلاص للمرسِل)(2)

■ أهميتها في السياق الإصلاحي -وجودًا وعدمًا-:

بناء علىٰ ما سبق بيانه في صفة الصدق ومستندها من الوحي؛ فإنها تُعدُّ صفة مركزية في الطريق الإصلاحي، إذْ لا يمكن للمؤمن أن يثبت عند الابتلاءات والفتن، فيظل مستقيمًا غير متذبذب ولا مضطرب إلا بالصدق مع الله تعالىٰ،

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ٧/ ٢٧١

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٨) دار طيبة

فالصدق أساس الثبات، كما أنّ الصدق من أعظم ما يقي صاحبه من الشبهات والشكوك التي تعرض له في الطريق، فالصدق في الإيمان لا يكون إلا باليقين الثابت، ولذلك فإنه بقدر ما ينقص الصدق في القلب فإن اليقين ينقص معه، وكلما ازداد الصدق ازداد اليقين والعمل والتضحية والثبات.

■ **كيفية تحقيقها:**

من أهم ما تُحقق به صفة الصدق في السياق الإصلاحي، ما يلي:

١- العمل بالعلم، والإدراك التام أن معيار الصدق إنما هو العمل بما يوافق الادعاء اللفظي، وأن معيار الكذب هو مخالفة الواقع العملي لما يدعو الإنسان إليه بلسانه ويدعيه بقوله.

٢- تحقيق الإخلاص والحرص الدائم علىٰ إجراء كل الأعمال عليه، ودفع الرياء عن العمل.

٣- دوام الاستحضار، والحرص علىٰ تحقيق مرتبة الإحسان التي هي (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)

٤- دوام الانكسار بين يدي الله تعالىٰ، وعدم رؤية النفس بمنظار العُجب، والاعتراف الدائم له بالفضل والمنة سبحانه.

حملة الإصلاح

معالم منهجية في بناء المصلحين

- مركزية هدي الأنبياء في طريق المصلحين
- أهمية بناء ثقافة معيارية للمصلحين
- التربية على أهمية استمرار ثغر صناعة المصلحين
- البناء في ساحة العمل والمدافعة أنفع من البناء في ساحة الأمان والدعة
- أهمية تنوع روافد البناء
- أهمية التنوع والتكامل في مجالات البناء الإصلاحية
- عدم التصدير قبل التمكن

بيان صفات المصلحين

مصادر معرفة صفات المصلحين

- القرآن والسنة
  1) سير الأنبياء وما يتعلق بهم من السياقات الإصلاحية في القرآن والسنة.
  2) الآيات المتعلقة بأصحاب الأنبياء في السياق الإصلاحي.
  3) التوجيهات الربانية التي خاطب الله بها المؤمنين في السياق الإصلاحي.
  4) السيرة النبوية وتطبيقاتها في تربية المصلحين والتعامل معهم في سياق المعالجة الإصلاحية.
- سير المصلحين
- التجارب الإصلاحية التاريخية والمعاصرة
- القراءة الجيدة للواقع

تفصيل القول في صفات المصلحين

- العبودية لله سبحانه
- الوعي
- التسليم لمرجعية الوحي والانطلاق منها والاستمساك بها
- الحكمة
- اليقين العام والخاص
- الدربة والتجربة والخبرة
- الصبر
- المسؤولية
- التزكية وحياة القلب
- العزة
- العلم
- الرحمة بالمؤمنين واللين معهم والرفق بهم
- العمل
- العدل
- القوة
- الربانية
- الصدق

القسم الخامس

عوائق الإصلاح

المبحث الأول
أهمية توقع التحديات التي يواجهها المصلح
وضرورة الاستعداد لها واتخاذ سبل الوقاية من أضرارها

إن المتأمل في كثير من النتائج السلبية التي أصيب بها بعض من لهم اتصال بتجربة إسلامية سابقة، يجد أن نقص التوعية المبكرة بطبيعة التحديات والعوائق والابتلاءات التي يمكن أن تواجه الشاب المسلم في الواقع والمستقبل =كانت من أهم الأسباب التي أدت إلىٰ هذه النتائج السلبية، ويزداد الإشكال تعقيدا حين يصحب ذلك ضخ هائل للمبشرات والمطمئنات بحسن الثمرة، وقرب النتائج الحسنة دون توازن بينها وبين التبيين الكافي للواقع وتحدياته، ثم إذا جاءت الأزمات والنكبات المتعلقة بالعمل الإسلامي تجد أن كثيرا من العاملين يصابون بصدمة تؤدي بهم إلىٰ اليأس والإحباط، بل وأحيانا إلىٰ الانتكاس والحور بعد الكور.

بينما إذا انتقلنا إلىٰ السياق النبوي، سنجد أن من أول ما سمعه النبي ﷺ بعد بعثته: (لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا عودي)[1] ثم بُيّن له نوع التحدي، وهو الإخراج، فقال ورقة: (ليتني حيا إذْ يُخرجك قومك)، ومن المعلوم أن الإخراج عادة ما يكون مسبوقا بالتكذيب والأذىٰ والتضييق.

---

(١) صحيح البخاري (٣) صحيح مسلم (١٦٠)

ثم إذا تأملنا في توعية النبي ﷺ لأصحابه بالتحديات؛ فسنجد أمثلة كثيرة للتوعية المبكرة التي تقود إلىٰ الاستعداد والتهيؤ، ومن أمثلة ذلك:

▪ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا فُتِحَتْ علَيْكُم فارِسُ والرُّومُ، أيُّ قَوْمٍ أنتُمْ؟» عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كما أمَرَنا اللهُ قالَ رَسولُ الله ﷺ: «أوْ غيرَ ذلكَ، تَتَنافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحاسَدُونَ ثُمَّ تَتَدابَرُونَ ثُمَّ تَتَباغَضُونَ، أوْ نَحْوَ ذلكَ، ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ في مَساكِينِ المُهاجِرِينَ، فَتَجْعَلُونَ بَعْضَهُمْ علَىٰ رِقابِ بَعْضٍ»(١)

▪ وعن عمرو بن عوف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ بَعْدَ أَنْ قَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بِمَالٍ مِنَ الْبَحْرَيْنِ: «فأبْشِرُوا وأَمِّلُوا ما يَسُرُّكُمْ، فَوَاللهِ ما الفَقْرَ أخْشَىٰ علَيْكُم، ولَكِنِّي أخْشَىٰ أنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كما بُسِطَتْ علَىٰ مَن كانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنافَسُوهَا كما تَنَافَسُوهَا، وتُهْلِكَكُمْ كما أهْلَكَتْهُمْ»(٢).

▪ وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أكْثَرَ ما أخافُ علَيْكُم ما يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِن بَرَكاتِ الأرْضِ» قيلَ: وما بَرَكاتُ الأرْضِ؟ قال: «زَهْرَةُ الدُّنْيا»(٣).

▪ وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: اسْتَيْقَظَ النبيُّ ﷺ ذاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: «سُبْحَانَ اللهِ! مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الفِتَنِ، ومَاذَا فُتِحَ مِنَ الخَزائِنِ، أيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الحُجَرِ، فَرُبَّ كَاسِيَةٍ في الدُّنْيَا عَارِيَةٍ في الآخِرَةِ»(٤).

▪ مخاطبة أسعد بن زرارة لقومه الأنصار بالتحديات التي ستواجههم إن هم آووا النبي ﷺ واستعدادهم المبكر لذلك، فقال رضي الله عنه: (رويدا يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ، وأن إخراجه اليوم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٢).

(٢) البخاري (٣١٥٨) ومسلم (٢٩٦١)

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٢٧) ومسلم (١٠٥٢)

(٤) أخرجه البخاري (١١٥)

مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون علىٰ ذلك، وأجركم علىٰ الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبينة، فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله)[١]

■ الأحاديث الكثيرة في كيفية مواجهة التحديات المستقبلية، ومنها: حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: كُنَّا مع رَسولِ الله ﷺ في سَفَرٍ، فَنَزَلْنا مَنْزِلًا فَمِنَّا مَن يُصْلِحُ خِبَاءَهُ، وَمِنَّا مَن يَنْتَضِلُ، وَمِنَّا مَن هو في جَشَرِهِ، إذْ نَادَىٰ مُنَادِي رَسولِ الله ﷺ: الصَّلَاةَ جَامِعَةً، فَاجْتَمَعْنَا إلىٰ رَسولِ الله ﷺ، فَقالَ: «إنَّه لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إلَّا كانَ حَقًّا عليه أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ علَىٰ خَيْرِ ما يَعْلَمُهُ لهمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ ما يَعْلَمُهُ لهمْ، وإنَّ أُمَّتَكُمْ هذِه جُعِلَ عَافِيَتُهَا في أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ فيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الفِتْنَةُ فيَقولُ المُؤْمِنُ: هذِه مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ وَتَجِيءُ الفِتْنَةُ، فيَقولُ المُؤْمِنُ: هذِه هذِه، فمَن أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وهو يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَومِ الآخِرِ، وَلْيَأْتِ إلىٰ النَّاسِ الذي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَىٰ إلَيْهِ، وَمَن بَايَعَ إمَامًا فأعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطِعْهُ إنِ اسْتَطَاعَ، فإنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ»[٢].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد ١٤٤٥٦

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٤).

المبحث الثاني
تفصيل القول في بعض التحديات التي تواجه المصلح في مسيرة تكوينه ومسيرة إصلاحه

تتنوع التحديات التي تواجه المصلحين في سياقاتهم الإصلاحية في هذا الزمن، وتختلف أسبابها ودوائرها ومصادرها؛ وتعود في الجُملة إلىٰ نوعين من التحديات والعوائق:

١) **تحديات خارجية**: وهي التي يصدرها الأعداء من خارج الصف الإسلامي علىٰ مختلف أصنافهم وانتماءاتهم، وتنقسم إلىٰ قسمين:

١- تحديات حسية: وتشمل الحروب وأنواع الهيمنة المادية والأمنيّة.

٢- تحديات فكرية: وتشمل بث الشبهات ودعم الاتجاهات الفكرية المنحرفة داخل الأوساط الإسلامية وغير ذلك، وهي حرب شرسة عملت عملها في الواقع الإسلامي ولا تزال.

وهذه التحديات الخارجية عميقة التأثير، شديدة التمكن، طويلة الأذرع، غير أن كثيرا منها إنما يتم تأثيره ويعظم خطره لأنه يوافق قدرا من الضعف الداخلي في الصف الإسلامي، فالسبب الخارجي مهما كان قويا ومؤثرا فإنه لا يعمل وحده العمل التام إلا بقابلية من الداخل.

٢) **تحديات داخلية**: وهي الصادرة من الداخل الإسلامي، وتنقسم إلىٰ قسمين كذلك:

١- تحديات قلبية تزكوية يواجهها المصلح من نفسه، سواء أكان ذلك بسبب تصرفات الآخرين من المصلحين والعاملين أم من داخل نفسه.

٢- تحديات منهجية فكرية، وهذه كذلك لها أسباب متعلقة بطبيعة التفاعل مع الإشكالات الخارجية سواء من جهة الأعداء أم من جهة العاملين في المجال الإصلاحي، ولها أسباب متعلقة بالأهواء الذاتية وكيد الشيطان ووساوسه.

ونظرًا لكوني -في هذا الكتاب- أعتني بالسياق الإصلاحي الداخلي بصورة أعلىٰ؛ فسأركز في هذا المبحث علىٰ **التحديات الداخلية**، وسأتناول منها المشكلات التالية:

١- اليأس والإحباط.

٢- انحراف البوصلة.

٣- التنازع والتفرقة.

٤- صعوبات الحياة.

٥- فتن الشهوات.

٦- موجات الشبهات العقدية والتساؤلات المنهجية والتحديات النفسية.

وسأتناول تحت كل عنوان منها مجموعة موضوعات علىٰ شكل نقاط مكثّفة

أولًا: اليأس والإحباط:

وهذا التحدي من أبرز ما يواجه المصلحين اليوم، إما في أنفسهم، أو في الدوائر المتصلة بهم، وقد سبق تفصيل القول في هذه المشكلة ومظاهرها وأسبابها وكيفية التعامل معها في القسم الأول من الكتاب؛ فليراجع.

ثانيًا: انحراف البوصلة:

والمقصود به: جنوح المصلح عن السداد والاستقامة إلىٰ أحد طرفي الانحراف: الغلو أو التفريط.

أسباب انحراف البوصلة:

أ- استعجال الثمرة الإصلاحية، فإذا لم يجد بعض المصلحين ثمرة سريعة من العمل الدعوي أو الإصلاحي تجده ينساق إلىٰ ما يظن أنه يحقق ثمرة أسرع ولو علىٰ حساب الصحة والاستقامة، فليتنبه المصلح من هذا المزلق، وليجعل عمدته في الانطلاق والثبات ليس مقدار الثمرات وإنما مدىٰ صحة الطريق الذي يسير عليه، وليسع -مع ذلك- إلىٰ التحسين والجودة وزيادة الثمرات.

ب- ردود الأفعال غير المنضبطة المتعلقة بنوازل الأمّة ومشكلاتها، وذلك أن المشكلات المتعلقة بالأمة كثيرة وشديدة ومؤثرة علىٰ النفوس غاية التأثير، والمطلوب من المسلم تجاهها ألا يكون جامدًا متجاهلًا، بل متأثرًا متفاعلًا، ولكن طبيعة العمل الإصلاحي الذي ينبغي فعله تجاه هذه النوازل والأزمات يتطلب وعيا وحكمة حتىٰ يكون نافعا.

ت- البناء العلمي المشوه، والوقوع في فخ (وهم المعرفة)، وهذا يقود إلىٰ مزالق كثيرة في انحراف البوصلة، وحله في قوة البناء الشرعي ومنهجيته.

ث- التعصب والتحزب والتقليد المذموم.

ج- ضمور حياة القلب، واختلال مركزية الآخرة لدىٰ العامل، مما قد يجعل بوصلته منجذبة إلىٰ النفع الدنيوي.

ح- تعميم اختيارات حال الضرورة -التي يتخذها بعض المصلحين في سياقهم الإصلاحي- علىٰ جميع الحالات والسياقات، وتحويل الاستثناء إلىٰ أصل، بل وذكر محاسن هذا الاستثناء، وذلك أن بعض المصلحين قد يضطر إلىٰ شيء من أحكام الضرورة والمصلحة في الدعوة لاعتبارات دقيقة في الفقه الشرعي، ولا يدرك الكثير هذه الاعتبارات فيظنون هذا الفعل سائغا في كل حين، فتنحرف البوصلة حين تجعل مثل هذه الأفعال الاضطرارية أصلًا.

خ- كيد الأعداء في إخلال بوصلة الطريق الإصلاحي، وهذا من الأمور الخطيرة التي تتطلب وعيا استثنائيا من العاملين، فالأعداء لهم تدخل في كثير من الأمور المتعلقة بالأوساط الإسلامية، ومن أشهر طرقهم في ذلك: دعم بعض الاتجاهات الإسلامية علىٰ حساب الأخرىٰ، ومن يقرأ تقارير مؤسسة راند الأمريكية يدرك شيئا من ذلك، وهذه القضية ليست فرعية في السياق الغربي بل إن الاهتمام بالحركات الإسلامية ودراستها ومتابعتها من أهم السمات للاستشراق الجديد، ومن المكتب المفيدة في التوطئة لهذا المعنىٰ: كتاب الاستشراق الجديد لعبد الله الوهيبي.

د- التأثر بالشبهات التي تُضخ في الفضاءات الإلكترونية.

ذ- ردات الفعل النفسية -غير المنضبطة- تجاه المواقف الخاطئة لبعض الرموز المؤثرين في العمل الإصلاحي، وقد يكون من أسباب ذلك: الغلو في الرموز ابتداء.

ضمانات عدم انحراف البوصلة:

أ- التأصيل الشرعي المتين.

ب- مركزة التزكية في السياق البنائي الإصلاحي.

ت- السوية النفسية للمصلح[1].

ث- الإيمان بمبدأ تعدد الثغور والتكامل الإصلاحي.

ج- ترك مساحة واسعة للاجتهاد في اتخاذ الوسائل الإصلاحية وعدم قولبتها.

ح- تحديد الرؤية والغاية، وترسيخها مبرهنة.

خ- تفعيل مركزية الاستهداء، وتحول هذا المعنىٰ من كلمات وشعارات إلىٰ مركزية حقيقية.

ثالثا: التنازع والتفرقة:

يُعد هذا التحدي مركزيًا في مختلف الساحات الإسلامية، ومعيقًا عن كثير من التقدم في العمل أو الثبات عليه، وكثيرًا ما يُكسىٰ التنازع لباس الغيرة علىٰ الحق، أو الانتصار للعقيدة أو المنهج، وإذا فتشتَ وراء هذه الشعارات تجد - أحيانًا- حظوظ النفوس وأهواءها حاضرة، أو تجد إشكالا في تضخيم بعض القضايا التي لا تستحق التضخيم، وفي أحايين أخرىٰ يكون الخلاف حقيقيًا متعلقا بالعقيدة والمنهج، ولكن لا يكون معه فقه في كيفية إدارة هذا الخلاف سواء من جهة الشدة أو من جهة التراخي، فليس الإشكال دائمًا في الشدة، بل قد يكون أحيانًا في التهاون والتراخي، وسيأتي زيادة تفصيل في هذا إن شاء الله.

وإذا نظرنا في خطاب الوحي المتعلق بالتحذير من التنازع والفرقة سنجد أن هذه القضية قد أخذت بُعدًا مركزيًا في سياق المشكلات التي نبه الوحي عليها، وشواهد ذلك كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾ وقول النبي ﷺ «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضربُ بعضكم رقاب بعض»[2] وقوله ﷺ: «إن

---

(١) لي مادة منشورة علىٰ الشبكة بعنوان (سوية المؤمن) وهي سلسلة مرئية لا تزال مستمرة.

(٢) البخاري (٦٨٦٨)

الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم»[1]

الأسباب المؤدية إلىٰ التنازع والتفرقة بين المصلحين:

١) السبب الأول: ضعف التزكية:

- ضعف التزكية يجعل المصلح ينظر إلىٰ غيره من العاملين علىٰ أنهم منافسون له في حظٍّ شخصي؛ فيعاملهم بحدّة.

- ضعف التزكية يعني تخلف العمل عن العلم، فالعلم الموجب للائتلاف بين المسلمين لن يُثمر علىٰ أرض الواقع ما لم يكن مصحوبا بنية صالحة وعزيمة صادقة، ولن يتحقق مقتضىٰ هذه النية والعزيمة ما لم تُتجاوز العوائق المانعة التي من أهمها: الحظوظ الشخصية والهوىٰ، ولا سبيل لمعالجتها بدون التزكية؛ فالتزكية تعالج كثيرا من المعيقات التي تحول بين المصلحين وبين تآلفهم وتقاربهم مع بعضهم.

٢) السبب الثاني: أمراض القلوب، وخاصة (العُجب والكبر والحسد):

▪ الحسد داء داخلي قلبي مركزي، ينتج كثيرا من المظاهر الخارجية الفاسدة، ومن المهم إدراك حقيقته وأبعاده وكيفية علاجه، فهو داء قديم، متجدد الحدوث، متكرر الوقوع، لا تخلو منه بيئة ولا مجتمع.

▪ من وسائل تجاوز إشْكالية الحسد بين العاملين للإسلام:

أ- أن يقصد المربي أو القائم علىٰ العمل الإصلاحي إلىٰ مدح أَصْحاب المشاريع الإصلاحية الأخرىٰ -وخاصة المنافسة- والثّناء عليهم، حتىٰ يتربىٰ الطلاب عنده علىٰ كسر الحساسية والتنافسية، وقد يكون المطلوب أكثر من ذلك أحيانا وهو تعمد تصدير الآخرين وتقديمهم ومساعدتهم.

---

(١) مسلم (٢٨١٢)

ب- الشراكة والتَّعاون في العمل الدعوي والإصلاحي.

■ من المركزيات التي ينبغي أن يعتني بها المصلح: أن يختار معاركه، وألا ينجرّ وراء معارك جانبية.

■ ليس كل انتقاد من شركاء الطريق يُصنف علىٰ أنه حسد، بل ربما يكون انتقادًا صحيحًا، والمعيار في ذلك: (العلم والعدل والرفق من جهة الناقد، والعلم والصدق من جهة المنتقَد) فإذا اختل شيء من ذلك اختلت العملية التصحيحية، وهذه القضية مهمة جدا للمشاريع الإصلاحية الصاعدة، إذ كثيرا ما يتعرض القائمون عليها للنقد، وهذا يتطلب وعيا في التفريق بين ما يراد به الشر والإسقاط أو كان مبنيا علىٰ جهل، وبين ما هو مبني علىٰ علم وعدل ويراد به التصحيح.

■ كثيرًا ما يكون الحاسد أو الحاقد ابنَ السياق الإصلاحي الداخلي، فينقلب ضد من تربىٰ علىٰ أيديهم أو تعلم منهم، إما بسبب حسد حصل بينه وبين أقرانه، أو بسبب تهميش حصل له وعدم تقدير لقدراته -ولذلك تكثر هذه الانقلابات بين الأذكياء وذوي القدرات المتميزة-، أو بسبب العُجب والغرور المؤديان إلىٰ التعنت في طلب ما يراه المرء استحقاقًا له من الأدوار والمناصب والأجور، وهذا من أبرز أسباب التفرقة. وقد وقع هذا في التجارب الإسلامية القريبة مرارًا، ومن الوسائل في مواجهة ذلك: الاحتواء والإكرام لمن يرىٰ منه بوادر التفلُّت والانقلاب، لا المعاندة والإصرار علىٰ الإبعاد، وهذا -في الجملة- خاضع للتقديرات والمصلحة.

■ ينبغي علىٰ العاملين أن يغرسوا صمَّامات الأمان الواقية من الأمراض القلبية وخاصة العجب والغرور في نفوس طلابهم، خاصة ممن يرجىٰ أنْ يكُونوا رموزا مصلحة في المستقبل.

٣) السبب الثالث: الاختصاص أو التهميش والاستئثار:

▪ توزيع الأدوار التكليفية العملية بين المصلحين بحسب مستوياتهم وبحسب طبيعة العمل: سنة نبوية، وينبغي ألا يُنظر إلىٰ هذا الفعل علىٰ أنه تهميش أو سبب لإثارة الحزازات، بل يجب أن يفقه العاملون الفرق بين الاختصاص المستحَق وبين الاستئثار غير العادل، والمعيار في ذلك هو الكفاءة والأولوية: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾، وقد كان النبي ﷺ يخص بعض أصحابه بمزيد من الأدوار القيادية لكفاءتهم، كما فعل مع زيد بن حارثة رضي الله تعالىٰ عنه، فهو أكثر صحابي أمّره ﷺ علىٰ قيادة السرايا حتىٰ قُتِل في إحداها وذلك في مؤتة، كما قالت عائشة رضي الله عنها: (ما بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في جيش قط إلا أمره عليهم، ولو بقي بعده استخلفه)(١)، وكان زيد بن حارثه وابنه يعرفان بلقب خاص بين الصحابة، وهو (حِب رسول الله ﷺ) وحين حصل شيء من الكلام بخصوص الإمارة قام النبي ﷺ فتحدث وبين أن هذا التكليف بالإمرة صحيح لا غبار عليه، وأن المعيار في ذلك كونه يستحق هذا التكليف، كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: بعث رسول الله ﷺ بعثا، وأمر عليهم أسامة بن زيد، فطعن بعض الناس في إمرته، فقام رسول الله ﷺ فقال: (إنْ كنتم تطعنون في إمرته، فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل، وايم الله، إن كان لخليقا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إلي، وإنّ هذا لمن أحب الناس إلي بعده)(٢)، وهذا الحديث فيه بيان لطريقة من طرق المعالجة لمثل هذه الإشكالات التي قد تؤدي إلىٰ التنازع والتفرقة.

▪ من الأمور التي يحسن مراعاتها عند الاختصاص ببعض المهام أو الأدوار: جبر الخواطر لمن فاته ما كان يرجوا من التكليف، وقد يصلح الاستدلال علىٰ ذلك بحديث ابنة حمزة حين خرج النبي ﷺ من مكة، فتبعته ابنة

---

(١) أخرجه أحمد ٢٥٨٩٨

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٣٠) ومسلم (٢٤٢٦)

حمزة تنادي: يا عم، يا عم، فتناولها علي، فأخذ بيدها، وقال لفاطمة ﵂: دونك ابنة عمك. فحملتها، فاختصم فيها علي، وزيد، وجعفر؛ قال علي: أنا أخذتها وهي بنت عمي. وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي. وقال زيد: ابنة أخي. فقضىٰ بها النبي ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم». وقال لعلي: «أنت مني، وأنا منك». وقال لجعفر: «أشبهت خلقي، وخلقي». وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا»[1]، وكذلك حديث الأنصار حين وجدوا في أنفسهم من توزيع الغنائم فجبرهم النبي ﷺ بالخطبة المشهورة.

■ قد يحصل استئثار غير عادل لبعض العاملين دون الآخرين، وقد يقع التهميش علىٰ البعض، وهذه بعض الحلول تجاه مشكلة الاستئثار والتهميش:

أولًا: الصبر: ومستنده حديثان صحيحان:

١) حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال للأنصار: (إنكم سترون بعدي أثرة شديدة، فاصبروا حتىٰ تلقوا الله ورسوله ﷺ علىٰ الحوض)[2].

٢) حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: (تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبىٰ لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع)[3] وهذا الحديث عجيب في استصلاح المعايير، إذ إن فيه امتداحًا للذي لا يبالي ما فاته مادام أنه في سبيل الله.

ثانيًا: المصارحة بما وجد الإنسان في نفسه نتيجة ما يظنه استئثارًا أو نحوه، كما فعل الأنصار حين ظنوا أنه ﷺ قد آثر قومه عليهم في الغنائم، فعن

(١) أخرجه البخاري (٤٢٥١)

(٢) أخرجه البخاري (٣١٤٧) ومسلم (١٠٥٩)

(٣) البخاري (٢٨٨٦)

عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه قال: لما أفاء الله علىٰ رسوله ﷺ يوم حنين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار شيئا، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم، فقال: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟» كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمنّ. قال: «ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ؟» قال: كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن. قال: «لو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا! أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي ﷺ إلىٰ رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار، والناس دثار، إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتىٰ تلقوني علىٰ الحوض»[1].

■ وأما الهجر، فهو وسيلة شرعية من حيث الأصل، ولكن استعمال الهجر يتطلب فقهًا ووعيًا، وكثيرا ما يقع بعض الناس من الصالحين في الغلو في الهجر اعتمادًا علىٰ ما ورد عن السلف رضي الله عنهم، ولكن دون فقه بمقامات ذلك الهجر ودون نظر إلىٰ مجموع الحال النبوي، فالنبي ﷺ لم يستعمل الهجر إلا قليلًا في حياته، وقد شرب أناس في حياته الخمر بعد تحريمها، ووقع آخرون في ذنوب متنوعة، ولكنه لم يستعمل الهجر إلاّ قليلًا، بل بعكس ذلك كان يتألف القلوب ويعطي من ضعف إيمانهم أكثر مما يعطي الخيار والصالحين، وهذا كله ينبغي أن يعتبر في الفقه والنظر، وأشهر حادثة في الهجر هي ما حصل مع المتخلفين عن غزوة تبوك، ولو نظرنا في السبب الذي هجر النبي ﷺ لأجله أولئك الثلاثة الذين هم من خيار الصحابة لوجدنا أن بعض من يهجرون المخالفين لهم في أبواب العقيدة هم أولىٰ بالهجر لتخليهم عن مقامات نصرة الدين ومؤازرة المؤمنين في سبيل الله، بل ولمحاربتهم من يقوم هذه المقامات ونبزهم بالألقاب والتصنيفات. هذا من جهة.

---

(١) صحيح البخاري (٧٢٤٥) صحيح مسلم (١٠٦١)

ومن جهة أخرىٰ: ينبغي التفريق بين المقامات والأحوال في الهجر من جهة تحقيق المصلحة من عدمها، كما قال ابن تيمية في نص بديع يَظهر فيه فقهه لما يُنقل عن السلف رضوان الله عليهم، لا كما يفعل البعض من صغار المتحمسين للسلف باندفاع ظاهري متشنج، والله المستعان.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذا الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم وقلتهم وكثرتهم، فإنّ المقصود به زجر المهجور وتأديبه ورجوع العامة عن مثل حاله؛ فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يفضي هجرُه إلىٰ ضعف الشر وخُفْيَته كان مشروعا، وإن كان لا المهجورُ ولا غيرُه يرتدع بذلك بل يزيد الشر، والهاجرُ ضعيف بحيث يكون مفسدة ذلك راجحة علىٰ مصلحته لم يشرع الهجر، بل يكون التأليفُ لبعض الناس أنفع من الهجر، والهجر لبعض الناس أنفع من التأليف، ولهذا كان النبي ﷺ يتألف قوما ويهجر آخرين، كما أن الثلاثة الذين خلفوا كانوا خيرا من أكثر المؤلفة قلوبهم؛ لما كان أولئك كانوا سادة مطاعين في عشائرهم؛ فكانت المصلحة الدينية في تأليف قلوبهم. وهؤلاء كانوا مؤمنين، والمؤمنون سواهم كثير، فكان في هجرهم عز الدين وتطهيرهم من ذنوبهم.

وهذا كما أن المشروع في العدو القتالُ تارة والمهادنة تارة وأخذ الجزية تارة كل ذلك بحسب الأحوال والمصالح، وجواب الأئمة كأحمد وغيره في هذا الباب مبني علىٰ هذا الأصل، ولهذا كان يفرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع، كما كثر القدر في البصرة والتنجيم بخراسان والتشيع بالكوفة، وبين ما ليس كذلك، ويفرق بين الأئمة المطاعين وغيرهم، وإذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطرق إليه)[1].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٢٠٦-٢٠٧)

٤) السبب الرابع: عدم العمل بفقه الخلاف:

▪ العلم بفقه الخلاف يكون مؤثرًا ونافعًا لمن لديهم قدر صالح من التزكية والصلاح القلبي، وتجاوزٌ لأمراض القلوب من الحسد والعجب ونحوهما، وأما مع وجود هذه الأدواء فلا يفيد العلم بفقه الخلاف شيئًا؛ إذ إنّ بعض الخلافات بين العاملين سببها عدم معرفة فقه الخلاف، وبعضها الآخر سببه عدم العمل بفقه الخلاف مع وجود العلم به.

▪ يوجد طرفان خاطئان في الموقف من المخالفين من أهل القبلة: متشدد ومتساهل، فالمتشدد يغلو في التكفير والتبديع والتفسيق بمجرد تلبّس المخالف بقول أو فعل فيه بدعة أو نفاق، دون اعتبارٍ لجهل أو لغيره من الموانع، ودون اعتبار لمجموع حال المخالف من مقامات نصرة الدين والعمل للإسلام كثرة الخير والحسنات، وقد يُتبِع ذلك باستحلال الدم.

والطرف الآخر هو المتساهل الذي يبالغ في إعذار المخالف ولو كان الانحراف العقدي كبيرًا، أو كان حال المخالف يشهد بانحلاله وسوء قصده، بل إننا قد ابتلينا في هذه السنوات الأخيرة بإشكال أعمق من ذلك وهو الموقف من المخالف من غير أهل القبلة، ممن ينتسب إلىٰ النصرانية أو اليهودية أو الإلحاد، وذلك بالإنكار علىٰ من يكفره أو بالقول بأنهم تحت رحمة الله فإن شاء عذبهم وإن شاء عفا عنهم، وهذا إنما يكون لأهل الإسلام والتوحيد لا لأهل الكفر بالله والشرك به فضلا عن أهل الإلحاد، هذا من حيث الحكم العام الذي يجب تقريره.

▪ مما ينبغي أن يُراعىٰ في فقه الخلاف ما يلي:

- في شأن البدع: من المهم التفريق بين مقام الرد العلمي علىٰ أهل البدع -وهو مقام صحيح مهم- وبين التعاون مع أهل البدعة في مقامات الحق التي يُحتاج فيها إلىٰ التعاون، فتُمد جسور التعاون فيما فيه المصلحة للدين، وهذا كما فعل المحدثون من أئمة السلف ﷺ في روايتهم عن أهل البدع، وهي كثيرة

جدًا. ومن المهم التفريق كذلك بين الداعي إلىٰ البدعة وبين غير الداعي إليها، وهذا مسلك معروف عند المحدثين كذلك، فيُغلّظ علىٰ الداعي ما لا يُغلظ علىٰ غيره.

- وفي شأن الاختلافات المنهجية: ينبغي التفريق بين من يظهر صدقهم في نصرة الدين والعمل له وإن كانت لديهم بعض الأخطاء المنهجية، وبين من يكون الإشكال المنهجي لديهم: محاربتهم للعاملين المصلحين ممن يخالف منهجهم، خاصة إذا جمعوا مع ذلك بذل الولاء للظالمين المحاربين للدعوة والإصلاح، فهؤلاء لا يمكن التقارب معهم لأن مشروعهم قائم علىٰ هدم مشاريع الآخرين، وهذا ضابط مهم في عموم الاتجاهات المنتسبة للعمل الدعوي والإسلامي.

- وفي شأن الخلافات التكتيكية وفي الوسائل والإجراءات ينبغي أن يُربىٰ المصلحون علىٰ أن هذا المجال هو أقل المجالات الجديرة بالاهتمام -مع كونها من أكثر المجالات سببًا للخلاف-، والمطلوب في هذه الخلافات: التغاضي عن صغيرها وما لا يضر منها إن كان التغاضي مجديًا، والنقاش والبيان فيما يؤثر منها علىٰ العمل الإصلاحي، والرجوع في ذلك إلىٰ أصحاب الخبرة والنزول عند آرائهم، فهذه وسيلة مهمة في القضاء علىٰ هذا النوع من الإشكالات من جهة الآثار المترتبة عليها لا من جهة وجودها ابتداء فهذا أمر حتمي.

- العناية بمركزة المركزيات، وإعطاء قضايا الدين ثقلها بقدر ثقلها في الوحي، فهذا يعيد ترتيب قيمة ما يُختلف عليه مما يستحق الوقوف أو لا.

٥) السبب الخامس: الانشغال بالجدل وتتبع الزلات وتصيد الاخطاء:

▪ قد يكون من التحديات التي سيواجهها المصلحون في المرحلة القريبة القادمة: (تنامي بعض اتجاهات الغلو المتعنتة) التي تقتات علىٰ أعراض المصلحين من السابقين واللاحقين، ولذلك فإن من الأهمية بمكان أن يعتني المربون والمصلحون بتكوين المناعة من نَفَس الغلو في الدين بطريقة واعية، لا بطريقة ظاهرية صورية تعالج بعض المسائل الظاهرة.

■ كثرة الجدل والخصومات من المؤشرات الخطرة علىٰ انحراف البوصلة، ومن الأدلة علىٰ ذلك ما أخرجه الترمذي وأحمد من طريق حجاج بن دينار عن أبي غالب عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدىٰ كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾. وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح[1].

■ إذا كانت ثقافة المصلحين المعيارية متوجهة نحو القضايا الكبرىٰ، فإن هذا التوجه بطبيعته يُعد طاردا للسياقات الجدلية والتعنتية الضيقة، ولذلك فإن بناء بوصلة الطلاب نحو قضايا المسلمين الكبرىٰ يُعد من صمامات الأمان المهمة.

٦) السبب السادس: كيد الأعداء:

■ يجهل كثير من العاملين مقدار ما وصل إليه الأعداء في هذا العصر من القدرة علىٰ إشاعة الفرقة بين العاملين للإسلام عبر وسائل كثيرة لا تخطر بالبال من شدة المكر المستعمل فيها، والذي ينبغي علىٰ القائمين علىٰ أي سياق تربوي لبناء المصلحين: تبصير طلابهم بهذا الكيد، وزيادة الوعي بخطر المنافقين من ذوي القدرة علىٰ التأثير في الأوساط الإسلامية.

■ مما يُسهّل علىٰ الأعداء عملهم في التفرقة: وجود القابلية لدىٰ العاملين والتي تتمثل في: (خفة العقل، التعصب الشديد، عدم الوعي، ضعف التزكية).

■ لا بد من تصحيح المعايير وتثبيتها وتفعيلها في سياق تكوين المصلحين حتىٰ لا يُستغلوا من قبل الأعداء، ومنها: معيار الولاء للمؤمنين وتقديمه علىٰ الولاءات الأخرىٰ -وإن كانت معتبرة في الشرع من حيث الأصل-. ونحو ذلك.

---

(١) (٣٢٥٣) وأبو غالب ضعفه جماعة، وقال الترمذي عنه: ثقة مقارب الحديث.

رابعًا: صعوبات الحياة:

■ المقصود بصعوبات الحياة: ما يعترض المصلح من ظروف معيشية واجتماعية تعيقه عن السير كما ينبغي في السياق الإصلاحي.

■ يقلل البعض من قيمة الحديث عن صعوبات الحياة ظنًا منهم أنها من الأمور التكميلية الثانوية، بينما هي في الحقيقة ذات تأثير بالغ علىٰ كثير من العاملين، وخاصة في هذه المرحلة الزمنية، ومن يعرف الواقع يدرك أن من أشد العقبات التي تعترض طريق العاملين: العقبة المادية وأحيانًا الاجتماعية.

■ ينهمك بعض المتربين وطلاب العلم في محاولة تجاوز صعوبات الحياة إلىٰ درجة الارتهان، أو الخضوع، أو التخلي عن جوهر الطريق الإصلاحي؛ نتيجة الخوف الزائد، والهلع المبالغ فيه علىٰ الرزق أو الراحة، أو إرضاء الأطراف الاجتماعية، وقد قال النبي ﷺ: (شرٌّ ما في رجلٍ: شحٌّ هالع، وجبنٌ خالع) أخرجه أبو داود بإسناد قوي[1].

■ يغلو كثير من الطلاب في الدراسة الأكاديمية، ويبالغون في رسم مكانتها، ويتهاونون بسببها في كثير من مبادئهم، ويعولون عليها أكثر مما ينبغي، ومن المهم علىٰ مصلحي المستقبل: صناعة إطار تعريفي جديد يؤطر السياق الأكاديمي ولا يُجاوز به حدوده المعقولة من الناحية العلمية، ومن الناحية المعيشية، ومن النواحي الاجتماعية.

■ يبالغ بعض الموجِّهين من داخل العمل الإسلامي في رسم معايير النجاح في الحياة والتعامل مع صعوباتها، وقد تأثر بعضهم بشيء من الأطروحات الغربية في باب النجاح وتطوير الذات، فينبغي التنبه لذلك.

■ لا ينبغي ترك بذل الأسباب والاجتهاد في تحصيل الأمور المعيشية، استنادًا إلىٰ حسن النية ولا إلىٰ شرف الطريق الإصلاحي وحده، فإن من سنن الله

(١) (٢٥١١)

في هذه الحياة أن يُتعامل مع هذا الباب بالتدبير والسعي مع التوكل والدعاء، والمتأمل في الحديث المركزي في هذا الباب يجد الجمع بين الأمرين واضحًا، وذلك في قول النبي ﷺ: (المؤمن القوي خير وأحب إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا. ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل. فإن لو تفتح عمل الشيطان)[1] وقد كان مبدأ اتخاذ الأسباب والسعي فيها معتبرًا عند أصحاب رسول الله في زمنه وعلىٰ عينه، ومن الأمثلة علىٰ ذلك: سعيُ علي رضي الله وتعبه في شأن زواجه، وذلك في قوله: (فلما أردت أن أبتني بفاطمة بنت رسول الله ﷺ واعدتُ رجلًا صوّاغًا من بني قينقاع أن يرتحل معي فنأتي بإذخر أردت أن أبيعه الصواغين وأستعين به في وليمة عرسي)[2]

▪ علىٰ المصلح أن يكون مهتما بالحقوق الشرعية الاجتماعية، وموازنا بينها وبين طريقه الإصلاحي، وفي الباب أحاديث متعددة، منها: (إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا؛ فأعط كل ذي حق حقه)[3]

▪ اعتبار المصلح للحقوق الاجتماعية لا يعني إتاحته الفرصة لغيره في أن يستولوا علىٰ حقه في الانشغال بما ينفعه في طريق الآخرة من العبادة والدعوة والإصلاح، وذلك أن كثيرا من الشباب المهتمين اليوم يواجهون إشكالات مع آبائهم أو أمهاتهم في كثرة التحكم بهم من هذه الجهة، ومنعهم من الدروس أو اختيار ما يحبه الابن فيما هو من خاصة شأنه، والذي ينبغي أن يضن المصلح باختياراته إذا كان قد بناها علىٰ بصيرة، ويدفع عن نفسه وعن طريقه بالتي هي أحسن، بشرط قيامه بالحقوق التي عليه تجاه أهله وعدم تفريطه فيها، فإن أبىٰ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) البخاري ٣٠٩١

(٣) أخرجه البخاري (١٩٦٨)

أهله التفهم أو القبول ومنعوه من مجالات العلم الشرعي والنفع فله أن يصر علىٰ طريقه، وأن يفهمهم بوضوح أن هذا ليس من حقهم، ولا هو من صلاحياتهم، وأن طاعتهم في ذلك ليست من البر المشروع، وليُقدر ذلك من جهة المصالح والمفاسد، فإن كانت المفاسد أكبر فليصبر وليسأل الله الفرج، وليستحضر المصلح -من جهة أخرىٰ- أن من أهم الجهات التي ينبغي أن تستفيد من دعوته ورسالته: الدوائر العائلية القريبة منه.

■ من الواجبات الإصلاحية المهمة علىٰ مصلحي المستقبل: تصحيح المفاهيم المتعلقة بالمعاني الاجتماعية التي يكثر فيها الخطأ، مثل المفاهيم المتعلقة بالدراسة والوظيفة والزواج والتعدد ونحو ذلك.

■ ومن الناحية المادية فإن من المشاريع المهمة التي ينبغي السعي فيها، والحرص عليها، وتوجيه الداعمين لها: مشاريع كفالات طلاب العلم الذي يبنون أنفسهم للإصلاح المستقبلي، حتىٰ يتفرغوا لمسيرتهم، ولا ينقطعوا في مراحل الطريق بسبب صعوبات الحياة، وهذا من أهم المشاريع التي يمكن أن تكون مؤثرة في السياق الإصلاحي العام، وهي سنة مسلوكة منذ الزمن الأول، وقد كان عبد الله بن المبارك يكفل جماعة من طلاب الحديث، ويقدمهم علىٰ بعض الفقراء حتىٰ يتفرغوا لحفظ الشريعة وحمل العلم، وكذلك الإمام ابن جرير الطبري كان أبوه ينفق عليه في طلب العلم، وغيرهما من أهل العلم، وقد ذكر الفقهاء أن لطالب العلم أن يأخذ من الزكاة، وهذا كله يؤكد أهمية هذا الباب وضرورة العناية به.

خامسًا: فتن الشهوات:

■ من المهم علىٰ المصلح أن يدرك العلاقة المباشرة بين الذنوب وبين العوائق في الطريق الإصلاحي سلبًا وإيجابًا، فقد يُفتَح علىٰ العبد من الخير والبركة في العلم والأثر الدعوي بسبب استقامته وصلاح قلبه، وقد يُغلق عليه ويمنَع من الإقدام أو الثبات في بعض المواطن بسبب ذنوبه، كما في قوله ﷻ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾ وقوله: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾ ولذلك؛ لا ينبغي أن ينظر المصلح إلىٰ الذنوب علىٰ أنها متعلقة بالنجاة الشخصية في الآخرة فقط، بل لها علاقة بالشأن الإصلاحي في الحياة الدنيا.

■ إذا كانت فتنة الشهوات في أصلها خطرة فإنها اليوم في أشد حالاتها خطرا، ولم يعد أحدٌ في منأىٰ عن أن يمسه منها فتنة، وهي اليوم من أكثر الأسباب المؤدية إلىٰ الانتكاس، ولذلك فإن علىٰ المصلح أن ينمي إيمانه، ويحصن قلبه، ويغض بصره، ويعرف كيف يتعامل إذا وقع في ذنب.

■ من النقص في بعض السياقات التربوية السابقة في التعامل مع فتنة الشهوات: التركيز علىٰ الشهوات الجسدية منها دون القلبية، أو تناول القلبية بصورة هامشية، والمطلوب في السياق الإصلاحي التصحيحي القادم: أن يُعطىٰ الحديث عن الشهوات القلبية الحظ الأعظم من جهة العناية في المعالجة الإصلاحية. وهذه بعض **وسائل الوقاية من الشهوات القلبية**:

١) تشرب ثلاثية المعرفة بـ (الرب - النفس - الخلق) فمعرفة الرب تورث تعظيمه؛ وتعظيمُه ينافي الرياء والنفاق، ومعرفة النفس تورث ازدراءها؛ وازدراؤها يقي من الغرور والعجب، ومعرفة الخلق تورث عدم التعلق بهم؛ وعدم التعلق بهم يقي من الرياء والشرك، ومن بيع رضا الله برضا الناس.

٢) التزام أدعية الثبات: ومنها ما ثبت عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللَّهُمَّ لكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بعِزَّتِكَ، لا إِلَهَ إلَّا أَنْتَ، أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الحَيُّ الذي لا يَمُوتُ، وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ»(١).

---

(١) صحيح مسلم (٢٧١٧)

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِن أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ، ثُمَّ قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا علَىٰ طَاعَتِكَ»[1].

وعن علي بن أبي طالب قال: قال لي رسول الله ﷺ: «قُلِ اللَّهُمَّ اهْدِنِي وَسَدِّدْنِي، وَاذْكُرْ بالهُدَىٰ هِدَايَتَكَ الطَّرِيقَ، وَالسَّدَادِ سَدَادَ السَّهْمِ»[2].

٣) دوام الإنابة وتجديد التوبة، وهي من أعظم أسباب الوقاية والعلاج من الأمراض القلبية، وهي سر من أسرار الهداية ومفتاح عظيم من مفاتيحها، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

٤) الالتزام بالأوراد والمداومة عليها، وهذا له شأن عظيم في الثبات والوقاية من الأمراض القلبية.

٥) دوام محاسبة النفس، والمحافظة علىٰ خاصة استشعار تغير القلب وضمور الإيمان فيه، ومن ثم المبادرة إلىٰ الإنابة.

سادسًا: موجات الشبهات العقدية والتساؤلات المنهجية والتحديات النفسية:

■ إذا نظرنا إلىٰ كثير من واقع الشباب المهتمين سنجد أن الشبهات والتساؤلات لا تنحصر في المجالات العقدية فحسب، بل يمكن أن يضاف إليها التساؤلات المنهجية، والتي قد تكون أكثر إشغالًا وأشد إلحاحا في كثير من الأحيان، والمقصود بالتساؤلات المنهجية تلك المتعلقة بالموقف من الاتجاهات الإسلامية والاختلافات بينها، وأسئلة المشاريع والإصلاح وسبله، وأسئلة الجدوىٰ، وتحقيق النتائج والثمرات، وما إلىٰ ذلك، وقد تم تناول هذا النوع من

(١) صحيح مسلم (٢٦٥٤)

(٢) صحيح مسلم (٢٧٢٥)

التساؤلات في القسم الثاني من الكتاب، تحت عنوان (أسئلة الإصلاح). وأما الشبهات العقدية المتعلقة بأصول الإسلام فإنها -اليوم- أشد خطرًا من السابق، مع كونها أضعف من ناحية المضمون والأفكار، ولذلك فإن من المهم المحافظة علىٰ مركزية تعزيز اليقين وتثبيت الثوابت في بناء المصلحين، بحيث تكون دلائل أصول الإسلام لديهم واضحة راسخة عميقة. ومن هنا تأتي أهمية البرامج والكتب المعتنية بذلك، نحو برنامج صناعة المحاور ومقرراته.

▪ من المهم في سياق التكوين الشرعي للمصلحين عدم الاقتصار علىٰ المواد التي تدرس فيها العلوم الشرعية المحضة، وإنما ينبغي أن يضم إلىٰ ذلك ما ينمي روح الاستعلاء والاستغناء الإيماني، ويعزز الهوية، ويسقط أصول الاتجاهات الفكرية المنحرفة، كما أن من المهم تنمية التفكير النقدي/ الشرعي وتقويته.

▪ من سمات الجيل الصاعد أنه تكثر فيه التحديات النفسية المتعلقة بالثقة بالنفس، وإثبات الذات، والشتات، والاستسلام للفشل، وأسئلة العجز والضعف، وأسئلة القلق المعرفي، وإشكالات الهوية، وما إلىٰ ذلك، ولا بد للمصلحين من المربين والدعاة أن يتنبهوا لخطورة هذه الإشكالات النفسية علىٰ الأجيال الصاعدة، والبدء بالتحصين النفسي قبل التحصين الفكري والمنهجي لتهيئة المحل المستقبِل.

▪ الأجيال السابقة -مواليد الثمانينات وما قبلها- أكثر تعرضا للتساؤلات المنهجية، وإن كانت الأقل عرضة للشبهات العقدية، وتشترك معها الأجيال المتوسطة -مواليد التسعينات علىٰ سبيل التقريب- في الإشكالات المنهجية -بل هي أكثر شريحة تعاني من الإشكالات المنهجية-، وتزيد عليها في إمكان تأثرها بالشبهات العقدية أيضا.

وأما الأجيال الصاعدة فهي الأكثر عرضة للتأثر بأنواع الشبهات كلها: العقدية والمنهجية مع زيادة الإشكالات النفسية والتي قد تكون سببًا في زيادة الإشكالات الأخرىٰ.

■ من الوسائل المعينة علىٰ معالجة الضعف النفسي عند الجيل الصاعد:

١- تكوين السوية النفسية للذات المؤمنة بالله تعالىٰ، وقد تناولت في سلسلة مطولة مجموعة من الملفات المتعلقة بهذه القضية تحت عنوان (سوية المؤمن)، ومن أمثلة هذه العناوين: (الأمان، القوة، الصداقة، الصبر، الهم والحزن، العزيمة، التوازن، الشتات، المسؤولية، الثبات، الحكمة).

٢- التمكين المهاري.

٣- التمكين من الإنجاز في البناء والعطاء.

٤- إيجاد مساحة الأمان والتواصل بين المربين والجيل الصاعد.

٥- التربية علىٰ معاني العزة والمسؤولية والجدية.

عوائق الإصلاح

أهمية توقع التحديات التي يواجهها المصلح وضرورة الاستعداد لها واتخاذ سبل الوقاية من أضرارها

تفصيل القول في بعض التحديات الداخلية التي تواجه المصلح في مسيرة تكوينه ومسيرة إصلاحه

خارجية

تحديات حسية: وتشمل الحروب وأنواع الهيمنة المادية والأمنية.

تحديات فكرية: وتشمل بث الشبهات ودعم الاتجاهات الفكرية المنحرفة داخل الأوساط الإسلامية وغير ذلك.

داخلية

اليأس والإحباط

انحراف البوصلة

أسباب انحراف البوصلة

١. استعجال الثمرة الإصلاحية.
٢. ردود الأفعال غير المنضبطة المتعلقة بنوازل الأمة ومشكلاتها.
٣. البناء العلمي المشوه، والوقوع في فخ (وهم المعرفة).
٤. التعصب والتحزب والتقليد المذموم.
٥. ضمور حياة القلب، واختلال مركزية الآخرة لدى العامل.
٦. تعميم اختيارات حال الضرورة -التي يتخذها بعض المصلحين في سياقهم الإصلاحي- على جميع الحالات والسياقات.
٧. كيد الأعداء في إخلال بوصلة الطريق الإصلاحي.
٨. التأثر بالشبهات التي تُضخ في الفضاءات الإلكترونية.
٩. ردات الفعل النفسية -غير المنضبطة- تجاه المواقف الخاطئة لبعض الرموز المؤثرين في العمل الإصلاحي.

ضمانات عدم انحراف البوصلة

١. التأصيل الشرعي المتين.
٢. مركزة التزكية في السياق البنائي الإصلاحي.
٣. السوية النفسية للمصلح.
٤. الإيمان بمبدأ تعدد الثغور والتكامل الإصلاحي.
٥. ترك مساحة واسعة للاجتهاد في اتخاذ الوسائل الإصلاحية وعدم قولبتها.
٦. تحديد الرؤية والغاية وترسيخها مبرهنة.
٧. تفعيل مركزية الاستهداء.

التنازع والتفرق

الأسباب المؤدية إلى التنازع والتفرقة

١. ضعف التزكية.
٢. أمراض القلوب، وخاصة (العُجب والكبر والحسد).
٣. الاختصاص أوالتهميش والاستئثار.
٤. عدم العمل بفقه الخلاف.
٥. الانشغال بالجدل وتتبع الزلات وتصيد الاخطاء.
٦. كيد الأعداء.

صعوبات الحياة

فتن الشهوات

سبل الوقاية من الشهوات القلبية

١. تشرب ثلاثية المعرفة بـ (الرب- النفس- الخلق).
٢. التزام أدعية الثبات.
٣. دوام الإنابة وتجديد التوبة.
٤. الالتزام بالأوراد والمداومة عليها.
٥. دوام محاسبة النفس.

من الأمراض التي تظهر في السياقات الإصلاحية

١. التعصب المذموم لحزب أو قبيلة أو دولة
٢. حب الجاه والوصولية.
٣. الانشغال بالجدل وتتبع الزلات وتصيد الاخطاء.

موجات الشبهات العقدية والتساؤلات المنهجية والتحديات النفسية

وسائل معينة على معالجة الضعف النفسي عند الجيل الصاعد

١. تقديم مجموعة من المفاهيم والقضايا النفسية في سياق تكوين الطلاب بصيغة تجمع بين الاستمداد من مرجعية الوحي ومخزون التراث وبين مساحات الواقع وتطبيقاته.
٢. التمكين المهاري.
٣. التمكين من الإنجاز في البناء والعطاء.
٤. إيجاد مساحة الأمان والتواصل بين المربين والجيل الصاعد.
٥. التربية على معاني العزة والمسؤولية والجدية.

جدول مقررات معززة لمادة الكتاب ومهمة
في سياق التكوين الإصلاحي أنصح بدراستها والاهتمام بها

خاتمة

عطفًا علىٰ خاتمة قديمة كتبتها قبل سنوات في كتاب سابغات، أقول مرة أخرىٰ، وهذه المرة بيقين أكبر، وثقة أشد، وصوت أعلىٰ:

(الإسلام قادم)